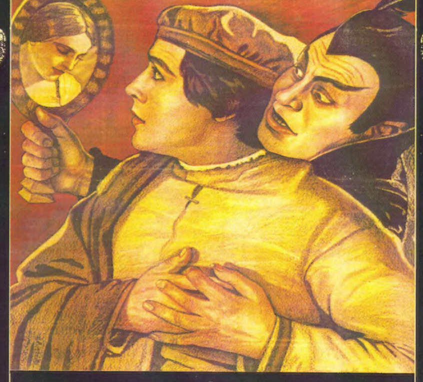
المركز القومى للترجمة

فاوست

ميراث الترجمة



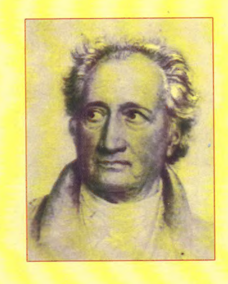
تأليف: جوته

ترجمة: محمد عوض محمد

تقديم: طه حسين

1408/2



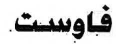


تجد فى هذه القصة صورة صادقة دقيقة لحياة العالم الأوروبى قبيل الثورة الفرنسية وإبانها، أى فى عصر الانتقال الذى وثب بأوروبا الوثبة الأخيرة من حياة القرون الوسطى إلى حياة العصر الحديث. ويقال إن فاوست الثانى يصور المثل الأعلى الذى يسمو إليه الرجل الفيلسوف وكيف يسمو إليه وكيف يظفر به. وقد تعمدت أن آتى بلفظ الشك هذا؛ لأن الذين فهموا فاوست قليلون. وقد أسأل نفسى أحيانًا: هل فهمه جوته؟... ولعل أصدق حكم على هذه القصة، التى أقدمها الآن إلى القراء، حكم مدام دى استال عليها حين قالت:

"إن هذه القصة تضطرك إلى أن تفكر فى كل شىء، وإلى أن تفكر فى أمر آخر فوق كل شىء".

طه حسين

تصميم الغلاف: نسرين كشك


فاوست

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1408
- فاوست
- جوته
- محمد عوض محمد
- طه حسين
- 2014

هذه ترجمة كتاب:

FAUST
GOETHE

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

فاوست

تألـيـف : جوته
ترجمـة : محمد عوض محمد
تقـديم : طه حسين



2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جوته.

فاوست/ تأليف: جوته؛ ترجمة: محمد عوض محمد.

ط ١ - القاهرة: (المركز القومى للترجمة)، ٢٠١٤

٢٨٨ ص؛ ٢٤ سم

١ - القصص الألمانية.

(أ) العنوان ٨٣٣

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٦٥٥٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 479 - 536 - 4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

كلمــة

للأستاذ الدكتور طه حسين

(١)

عرفته منذ أعوام هادئ النفس، صافى الضمير، كريم الخلق عذب الحديث، وكان يلذ لى أن أسمع له فأفهم، كما كان يعجبنى أن أتحدث إليه فيفهم عنى؛ كل ذلك فى سهولة ورفق، من غير تكلف ولا محاولة. وكنت أقدر أن بينه وبينى صلة خاصة تقرب المسافة بيننا أو تمحوها. ولم تكن هذه الصلة بالطبع تنشأ عن المادة التى اختص بها، وبرع فيها. فقد كان يقال إنه وصاف للأرض، ماهر فى الوصف، مقوم للبلدان بارع فى التقويم. درس فى مصر ثم فى إنجلترا وعاد إلى مصر يحمل إجازات راقية فى الجغرافيا - وحظى من هذا العلم قليل، ولا يمكن إلا أن يكون قليلا؛ وإلا أن يكون مشوها بعض التشويه. أثر الخيال والخطأ فيه أكثر من أثر العلم والصواب - فلم يكن غريبا أن أبحث عن هذه الصلة التى كانت تقرب بينى وبين الأستاذ محمد عوض، حتى قال لى قائل: إنه يحب الأدب ويشغف به، ويعكف عليه حين يفرغ من وصف الأرض وتقويم البلدان. وقال لى قائل بعد ذلك: إنه يحب اللغات ويدرس منها ما يجد إلى درسه سبيلا. فهو يتقن الإنجليزية والألمانية ويحسن الفرنسية وله من التركية حظ ومن الفارسية نصيب؛ وهو إلى استظهاره النصوص العربية القديمة الغليظة لا يحب من اللغات الأجنبية التى يحسنها أو يلم بها إلا خلاصاتها العلمية والفنية والأدبية؛ لا يعنيه كثيرا أن يتكلمها فى الأندية ودور التجارة؛ وإنما يعنيه أن يفهمها وينفذ إلى لبها الخالص. قال لى قائل هذا كله فقلت معجبا مبتسما: إنه ليذكرنى بجوته، فقد كان هذا الشاعر

على ألمانيته طلعة مسرفا فى الطموح إلى ما لا يعلم، يحسن لغات أجنبية ويلم بلغات أخرى ويحاول أن ينفذ إلى لباب هذه اللغات وآثارها الفنية والأدبية، لا تصرفه اللغات الجديدة عن اللغات القديمة، ولا تلهيه لغات الغرب عن لغات الشرق، فقد اتصل بالمستشرقين وقرأ صورا من الأدب العربى وحاول أن يترجم إلى الألمانية أو ترجم بالفعل القصيدة المشهورة:

إن بالشعب الذى عند سلع　　لقتيلا دمه ما يطل

ولم تكن اللغات وآدابها لتلهى جوته عن العلم، والجد فى تحصيله والإمعان فيه، فقد كان يعنى إلى آخر أيامه بالعلوم الطبيعية عناية لا تعدلها إلا عنايته بالآداب والفنون والفلسفة - قال صاحبى : وإن صديقنا ليحب جوته ويقف عليه كثيرا من وقته؛ وقد أخبرت أنه ترجم (فاوست) أو يترجمه. وقد أخبرت أنه يترجم من الألمانية، لا من لغة أخرى، وقد أخبرت أنه إذا فرغ من قطعة واستوثق من حسن الملاءمة بينها وبين الأصل الألمانى قابل بين ترجمته العربية وتراجم مختلفة فى الإنجليزية والفرنسية ليطمئن إلى حسن وصحة نقله.

هنالك عنيت بالتودد إلى هذا الجغرافى الغريب. وانتهزت كل ما أتيح لى من فرصة لأتحدث إليه فأطيل الحديث. ولم أزل به حتى اضطررته إلى أن يعترف بأنه يترجم فاوست وبأنه قد مضى فى هذه الترجمة إلى أمد بعيد... ثم التقينا فى لندرة إبَّان الصيف الماضى ومكننا أياماً لا نكاد نفترق، وكنا كلما التقينا إبتدأنا حديثا لا ينقطع إلا حين نفترق كارهين. وكنت أفكر، كلما تحدثت إليه أو تحدث إلى، فى (فاوست) وترجمته لفاوست، وكنت أقول فى نفسى يجب أن تكون هذه الترجمة صحيحة دقيقة متقنة لأن نفس صاحبى قد تلونت بلون جوته، ففى حديثه سخرية متصلة هادئة دائما، ولكنها عميقة لاذعة دائما... وكذلك جوته فى القسم الأول من فاوست، وهذا هو القسم الذى يترجمه صاحبى. ولست أدرى أيذكر الناس أنى قدمت إليهم منذ سنين ترجمة صديق الزيات لآلام فرتر، وأنى اشترطت فى هذه المقدمة ألا يكتفى المترجم الأدبى بإجادة الترجمة من لغة إلى لغة، بل أن يلبس نفس المؤلف وينقل إلى الناس شعوره وحسه وعواطفه وميوله وأهواءه كما يجدها المؤلف نفسه، اشترطت هذا الشرط فى نقل

الآثار الفنية والأدبية. ولم أكن أشك وأنا أتحدث إلى مترجم فاوست أنه قد استطاع أن يلبس نفس جوته ويحس كما كان يحس، ويرى الأشياء كما كان يراها، لا فى أطوار الترجمة وحدها، بل فى حياته العادية المتصلة. وسيستطيع كل قارئ عرف الأستاذ أن يتحقق هذا بنفسه حين يقرأ (فاوست) فيرى نفس جوته، ثم يتحدث إلى المترجم فيرى كيف اصطبغت نفسه بتلك الصبغة، وكيف اتخذت لغته وأحاديثه هذه الألوان التى يراها فيعجب بها حين يقرأ ما فى (فاوست) من لغة وحديث.

رجل وقف الخلاصة من حياته على الجغرافيا واستطاع مع ذلك أن يعنى بالأدب، ويأخذ منه بحظ موفور. ثم أن يهجم على أشق الآثار الأدبية وأعسرها، وأبعدها عن اللغة العربية، خليقٌ بالإعجاب والإكبار، وقد أكبرته وأعجبت به، وطلبت إليه فى شىء كثير من الإخلاص والمودة الصادقة أن يدع إلىَّ تقديم ترجمته إلى جمهور القراء من أهل العربية فقبل مبتسما وأحسبه كان راضيا، وأحسب أن هذا الرضا لم يكن يخلو من الاغتباط.

(٢)

ولكنى حين كنت أعرض على صاحبى هذه المقدمة لم أكن أقدر أنى سأتردد كثيرا قبل أن أكتبها. وسأضطر إلى قراءة طويلة شاقة؛ منها اللذيذ الحلو ومنها الثقيل الممل، قبل أن أبدأ فى إملائها. ولم يكن صاحبى حين قبل ما عرضت عليه يقدر أنى سأضنيه وأعنيه وأؤخر صدور ترجمته الأشهر الطوال، قبل أن أدفع إليه هذه المقدمة. ذلك أن غرور الإنسان لا يعدله شىء، فنحن نظن بأنفسنا القدرة على تصريف حياتنا كما نحب ونهوى، حين تخضعنا هذه الحياة لضروب من العبث وألوان من التحكم لا نكاد نعرف لها مصدرًا أو نقدر لها غاية. إنه لفى ترجمته منذ سنين يقدم عليها حينا ويحجم عنها حينا آخر، يحبها ويكرهها، ينتصر وينهزم؛ ويغالب فيرضى ويكره. وإنى لفى ما أنا فيه من عمل مختلف، فيه ما يسر وفيه ما يسوء، وفيه على كل حال ما يصرفنى عن جوته وآثار جوته وترجمة هذه الآثار إلى اللغة العربية أو غيرها من اللغات. ثم يشاء الله فى يوم من الأيام أن يتم لصاحبى النصر، وأن يقدم ترجمته إلى المطبعة وأن تهيأ هذه الترجمة لتلقى إلى الناس وأن يستنجزنى صاحبى ما وعدت فى الشتاء، فإذا أنا غريق

فى الفرزدق وجرير، ثم فى الربيع، فإذا أنا غريق فى الأخطل وذى الرمة، ثم فى الصيف، فإذا أنا غريق فى أعمال أخرى ليست من هؤلاء الشعراء بسبيل؛ ولكنها ليست قريبة من جوته ولا مُرَغِّبة فى قراءته والتفكير فيه.. وصاحبى ينتظر وأنا أعتذر، وهو يلح فى رفق وأنا أتعلل فى دعة. وكيف أقدم كتابا لم أقرأه ! أليس يجب أن أقرأ هذا الكتاب لأستطيع أن أقول عنه شيئا؟ فلأختلس إذن ساعات أو لحظات أقرأ فيها هذا الكتاب قراءة متفرقة مقطعة لا صلة بينها ولا جامع بين أجزائها. وعلى هذا النحو قرأت الكتاب فى أشهر.

ولكن أليس من الحق على أن أقرأ هذه الترجمة فى لغات أخرى غير اللغة العربية، وبأقلام أخرى غير قلم الأستاذ عوض، وأن أقارن بين ما أحدثت الترجمة العربية فى نفسى من أثر وأثارت من شعور وبين ما تحدثه وتثيره التراجم الأخرى فى هذه النفس؟ فلأختلس إذن ساعات ولحظات أخرى أقرأ فيها هذه التراجم. ولأقارن بين الترجمة الفرنسية مثلا والترجمة العربية لأنظر أيهما أحسن فى نفسى وقعا وأيسر إليها مسلكا. ثم لقد بعد العهد بينى وبين جوته فنسيته، والأدباء الأوربيون يذكرونه ويتناولون حياته وآثاره بالدرس والبحث فى غير ملل ولا انقطاع، فيكشفون فى كل يوم عن جديد ويظهرون فى كل يوم شيئا لم يكن معروفا. أليس من الحق على أن ألم بشىء مما يكتبون لأقدم هذه الترجمة للناس عن شىء من العلم والبصيرة ودون أن أتورط فى هذا الجهل المنكر الذى يتورط فيه من لا يقرءون ولا يتحرجون مع ذلك من الكتابة والإسراف فى الكتابة عما يعلمون وما لا يعلمون، لأختلس إذن ساعات ولحظات أخرى أقرأ فيها بعض ما كتب الناس عن جوته فى هذه الأعوام الأخيرة، وليحتمل صديقى الأستاذ عوض بعض المشقة فى هذه القراءة؛ فعليه أن يبحث لى عن الكتب وأن يحملها إلىَّ. وعليه فى بعض الأحيان أن ينظر فى هذه الكتب ويعلم لى صحفا يحسن أن أقرأها أو أنظر فيها. فالكتابة عن جوته كثيرة كثرة لا تكاد توصف؛ متشعِّبة تشعبًا ليس من اليسير أن نحيط به؛ قوم يكتبون عنه طفلا، وآخرون يكتبون عنه شابًا، وقوم يكتبون عنه فيلسوفًا، هؤلاء يبحثون عن أسرته، وأولئك يدرسون رفاقه فى الصبا، هؤلاء يقفون جهودهم على حياته الغرامية، وأولئك يصرفونها إلى حياته العامة. هؤلاء يُعْنَون بفاوست الأول،

وأولئك يعنون بفاوست الثانى. وآخرون يعنون بڤرتر. وقوم يعنون بقصص تمثيلية أُخرى. وقوم يعنون بمقطوعات غنائية، وآخرون لا يفكرون فى جوته إلا من الناحية العلمية. وعلى هذا النحو يتشعب البحث وتمتد أطرافه مع امتداد الزمن وقدرة الباحثين على الدرس والتنقيب. يحاول الباحثون والمنقبون أن يحيطوا بصاحبهم ويحصروه فى دائرة ما حتى لا تفلت منهم دقيقة من حياته أو آثاره. هم يدأبون فى ذلك وشخصية جوته تدأب فى العظم والامتداد. تمتد كما يمتد البحث. فإذا هى تفلت من الباحثين، وإذا شىء منها كثير لا يزال مجهولا سيتعب الناس ويكلفهم ضروبا من الجد، حتى إذا ظفروا به أو خيل إليهم أنهم قد ظفروا تبينوا أن شيئًا كثيرًا من هذه الشخصية لا يزال بعيدًا غامضًا عسيرا. وكذلك عظماء الرجال، لا يبلغون أوج العظمة حين يموتون، وإنما يبدأون هذه العظمة حين يموتون. وهم كالمثل الأعلى يطمعون الباحثين والساعين إليهم، يحثونهم بذلك على البحث والسعى، ولكنهم على ذلك يبعدون عنهم وينأون لأنهم يعظمون ويعظمون كلما طال عليهم الزمن أو بعد بهم العهد.

وقد كان جوته رجلا عظيما، فرضت عظمته على الإنسانية العاقلة الحساسة أن تحبه وتسعى إليه وتجد فى فهمه والوصول إلى دخيلة نفسه والظهور على عظمته وسر تفوقه. وهل فرغت الإنسانية من درس شكسبير؟ وهل قالت فيه كلمتها الأخيرة؟ كلا لن تفرغ الإنسانية من هذا الدرس ولن تقول هذه الكلمة، وكذلك لن تفرغ من درس جوته ولن تقول فيه كلمتها الأخيرة. لن تظفر بعظيم من عظمائها درسا وفهما وتحليلا حتى تظفر بمثلها العليا.

قرأت الترجمة العربية وتراجم أخرى فى لغات أخرى لفاوست، وألمت إذن بشىء مما يكتب الناس فى هذه الأيام عن جوته وعن آثاره وعن فاوست بنوع خاص. وأشهد لقد بهرتنى الترجمة العربية، فما ينقضى إعجابى بها، وما أجد إلى تحقيق الثناء عليها سبيلا. أما الدقة فليس فيها شك، وحسبى أن أقارن بين هذه الترجمة العربية وتراجم أخرى فى لغات أخرى فاظفر بالملاءمة التامة، وحسبى أن أرجع فى كثير من الأحيان إلى الأصل الألمانى مع مترجمين غير الأستاذ عوض، فإذا ترجمة صاحبى دقيقة دقة

لا غبار عليها، إلا فى مواضع قليلة أعلن إلى هو أنه تصرف فيها بعض الشيء، ولاحظت أن غيره من المترجمين الأوربيين تصرف فيها أيضـا لأنها لا تستطيع أن تؤدى فى غير الألمانية.

ولقد قرأت فيما قرأت أن جوته قرأ فى آخر أيامه ترجمة فرنسية لفاوست أصدرها الشاعر الفرنسى المعروف جيراردى نرڤال، فأعلن الرضا عنها والإعجاب بها وقال لبعض محدثيه إنه منذ سنين لا يحب أن يقرأ فاوست فى الألمانية وإن هذه الترجمة الفرنسية قد حببت إليه النظر فى هذا الكتاب. كان ذلك قبل أن يموت جوته بسنة أو سنتين. وأشهد لو قدر لجوته أن يعيش إلى هذا العصر أو قدر لعوض أن تتقدم به الحياة إلى أوائل القرن الماضى لقال جوته فى ترجمته مثل ما قال فى ترجمة جيراردى نرڤال. ففى هذه الترجمة العربية دقة، وفيها ظرف ورقة، لم نعرفهما فى التراجم العربية للآثار الأدبية الأوربيـة. فأنت تقرأ هذه الترجمة فيخيل إليك أنك تقرأ كتاباً لا ترجمة كتاب. لولا هذه الحواشى القيمة التى يلفتك المترجم بها إلى أنه يترجم كتاباً. فهو يشرح بعض نصوصه الغامضة أو يفسر بعض أسمائه الغريبة، أو يرد بعض معانيه إلى مصادرها الأولى، وقد تعودنا من الذين يترجمون الآثار الأوربية إلى اللغة العربية أن تثقل عليهم الترجمة، فيخففون من أنفسهم ثقلها بتكلف الألفاظ الغريبة، يلتمسونها فى المعاجم سواء ألفتها الآذان أم لم تألفها، وبالجمل الفخمة الضخمة يفخمونها ويضخمونها ليخفوا ضعفهم فى الفهم أو قدرتهم على الأداء. فأما هذه الترجمة فسهلة يسيرة، كتبت باللغة التى يتكلمها الناس ويفهمونها، والتى تسمعها من المترجم حين تتحدث إليه، ليس فيها غريب وليس فيها جملة منتفخة، وإنما هو كلام مألوف منسجم عذب، لا يصرفك عن المعنى ولا يلهيك عن الموضوع وكذلك ترجمة جيراردى نرڤال فى الفرنسية دقيقة يسيرة واضحة إلا أن يكون الأصل غامضا فينبه المترجم إلى هذا الغموض كما ينبه المترجم العربى.

وشبه آخر بين المترجمين، وهو أن المترجمين آثرا النثر لأنه أيسر وأدنى، ولكنهما فى الوقت نفسه لم يهملا الشعر ولم ينصرفا عنه الانصراف كله، فترجما بعض الأغانى

وبعض المواضع الأخرى شعرًا لأن النثر لا يستقيم لها. ولكن جيرار دى نرفال كان شاعرًا أما عوض فجغرافى. والغريب أن شعر هذا الجغرافى لا تنقصه الخفة والروعة والظرف فى أكثر الأحيان. وإن كان قد يتكلف من الضرورات ما قد كان يستطيع اجتنابه لو أنه صاحب شعر لا صاحب وصف للأرض وتقويم للبلدان...

ترجمة جيدة لا أعرف أنى قرأت ترجمة أخرى لأثر من الآثار الأوربية فى لغتنا العربية تعدلها أو تدانيها دقة وخفة وسهولة وظرفًا. فليهن هذا الجغرافى البارع فى فنه، على ما يقول الجغرافيون، هذا الحظ الموفور من البراعة فى الأدب والتصرف فى فنون الشعر والنثر فى غير جهد ولا تكلف ظاهر.

(٣)

وهل أنا فى حاجة إلى أن أتحدث إليك عن جوته وفاوست بعد أن تحدثت إليك عن مترجمه؟ وهل تظن أنى أفيك شيئًا كثيرًا من العلم إن قلت لك إن جوته ولد سنة ١٧٤٩ ومات سنة ٢٣٨١ ثم قصصت عليك فى إيجاز بالطبع ما تعود المترجمون أن يقصوه من حياة هذا الشاعر الفيلسوف ؟ ألست تستطيع أن تظفر بهذا فى دوائر المعارف على اختلافها؟ وأنت لا تطمع منى فى أن أدرس لك هنا حياة جوته درسا مفصلا. فأنا أرجو أن شوقك إلى قراءة فاوست فى اللغة العربية أشد من أن يدعك تقرأ حياة مفصلة لمؤلفه الآن. ولكن كلمة (فاوست) نفسه شيء لابد منه قبل أن تبدأ فى قراءة هذه القصة الغريبة التى أثرت فى الحياة الأدبية والفنية لهذا العصر الحديث آثارًا بعيدة لم تبلغ أمدها بعد، ويظهر أنها لن تبلغ أمدها قبل وقت طويل.

فالقصة قد ترجمت إلى اللغات الأوربية كلها، وقد فسرت وشرحت من أنحاء مختلفة، وقد مثلت فى الملاعب وغنيت فى دور الموسيقى. لحنها كبار الموسيقيين فى أوربا المتحضرة، ثم انبسطت أشعتها حتى غمرت الآثار الأدبية المختلفة وتجاوزتها إلى الفلسفة، فليس هناك أديب من أدباء القرن الماضى ولا من أدباء هذا العصر إلا تأثر بفاوست، وليس هناك فيلسوف إلا تأثر بفاوست قليلاً أو كثيرًا فى فلسفته ولا سيما بفاوست الثانى الذى هو إلى الفلسفة أقرب منه إلى الأدب والبيان.

وقد نحب أن نتعرف تاريخ فاوست فنجد فى ذلك شيئا من المشقة والصعوبة. ذلك أن هذه القصة لم تكتب كما كتب غيرها من القصص التمثيلية التى أنشأها جوته. وإنما استغرقت كتابة فاوست الأول أكثر الحياة العاملة للشاعر الفيلسوف. بدأها شابًا ثم انصرف عنها راضيًا أو كارهًا، ثم كان يعود إليها من حين إلى حين فيكتب منها منظرًا أو بعض منظر، ثم ينصرف عنها عامًا أو أكثر من عام، ثم يعود إليها فيضيف جزءا طويلا أو قصيراً. وظل كذلك حتى أتمها أو خيل إليه أنه أتمها فى أوائل القرن الماضى. ثم انصرف عنها حينا، ورجع إليها فكتب فاوست الثانى. والذى ينظر فى هذه القصة يلاحظ شيئًا ظاهرا من التفكك والتفرق والبعد عن الوحدة الفنية، ويحس إحساسا قويا بأن الكاتب لم يفرغ لها وقتا بعينه ولم يرسم لها حدودا معينة وإنما أنشأها على النحو الذى أشرنا إليه.. ولكنه، مع هذا، حين يقرأ القصة ويمعن فيها التفكير يشعر بهذه الوحدة الفنية الفكرية قوية أشد القوة، واضحة أشد الوضوح، فالشاعر لم يضع قصة تمثيلية، وإنما وضع حوارا فنيًا فلسفيًا، فهو إذن غير مقيد بالوحدة التمثيلية، ولكنه مقيد بالوحدة الفكرية الفلسفية، وقد وفق إلى هذه الوحدة توفيقا غريبا. كتب هذه القصة فى أكثر من ثلث قرن، ولكنك لا تجد فيها ضعفا ولا اضطرابا ولا اختلافا، وإنما تقرأ فكأنك تقرأ لكاتب قد فرغ لموضوعه فأتقنه وأحسن تصويره وتأديته.

المصدر الظاهر لهذه القصة هى أسطورة الدكتور فاوست التى كانت شائعة فى أواخر القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث، والتى تناولها بعض الكتاب الإنجليز والألمان فكتبوا فيها كتبا مختلفة، بل وضعوها وضعا تمثيليا، ولكن لهذه القصة مصادر أخرى، فلم تكن أسطورة الدكتور فاوست إلا قالبًا صبت فيه فكرة أدبية فلسفية راقية، فهل من الحق أن جوته لم يتأثر بما سبقه إليه ڤولتير من السخرية اللاذعة فى خفة وظرف بكل شىء فى هذا العالم؟.

هل من الحق أنه لم يتأثر بما أثار لبنيتس من خصومة عنيفة بين أنصار الخير والشر حين أعلن نظريته التى لا يمكن أن تصاغ فى أحسن من الصيغة الإسلامية المعروفة، «ليس فى الإمكان أبدع مما كان»؟.

ظهرت هذه النظرية فى القرن السابع عشر فاختصم حولها الفلاسفة فى هذا القرن نفسه وفى القرن الثامن عشر. ووضع ڤولتير قصة (كانديد) ساخرًا من هذا المذهب، هادمًا له، مقارنًا بين الخير والشر، مصورا لما بينهما من الجهاد العنيف، والصراع المنكر، فى حياة الناس ووجود الأشياء، وانتهى ڤولتير إلى نتيجته المشهورة «ليعش كل منا بحديقته» مؤثرًا تسليم الترك وإذعانهم للقضاء، على فلسفة الفلاسفة ومحاولتهم فهم أسرارها. كتب ڤولتير قصته هذه إبان القرن الثامن عشر قبل أن يبدأ جوته فى كتابة فاوست بوقت غير طويل، وكان جوته مشغوفا بڤولتير كثير القراءة له والنظر فيه، كما كان الألمانيون جميعا مشغوفين بالآداب الفرنسية فى ذلك العصر، كما أنى لا أشك فى أن هناك شبهًا قويًا بين آلام ڤرتر وكثير من الآثار الأدبية لچان چاك روسو، فلست أشك فى أن هناك شبهًا قويًا بين فاوست وبين كثير من الآثار الأدبية لڤولتير، وربما كان من الحق الذى لاشك فيه أن جوته إنما هو استمرار لسخرية ڤولتير، ولكن ڤولتير كان يسخر فى ظرف وخفة ورشاقة كما كان يسخر الفرنسيون، بينما كان جوته يسخر فى مرارة وعنف وجد كما يستطيع أن يسخر الألمان، ولم يكن ڤولتير يبتغى شيئًا وراء الشك والسخرية، وكان جوته يبتغى مثلا أعلى وراء شكه وسخريته، ولم يكن ڤولتير يتناول بسخريته شيئا دون شىء، ولم يكن يعفى الحياة المعاصرة له من السخرية، وكذلك كان جوته، سخر من كل شىء، وأذاق معاصريه مرارة لا تعدلها مرارة...

تلخيص فاوست يسير، فقد بدأ الشاعر بمحاكاة التوراة فى سفر أيوب، فأنشأ حوارًا بين الله والشيطان حول حب الإنسان لله وقوته على الوفاء له، وانتهى هذا الحوار فى فاوست برهان بين الله والشيطان موضوعه هذا العالم الجليل الدكتور فاوست الذى أخلص حبه لله والعلم. يزعم الشيطان أنه قادر على إغوائه ويأبى الله عليه ذلك وينظره، فيندفع الشيطان إلى الدكتور فاوست فيصادفه فى ساعة سيئة من ساعات حياته، قد سئم العلم ويئس منه، وعجز الدين عن أن يسليه ويمنحه ما كان يطمح إليه من الوقوف على سر الحياة والاطمئنان إليه. فما يزال يحاوره حتى ينتهى به إلى عهد بينهما.

يصبح الشيطان عبدا لفاوست يتيح له كل ما يريد من يسير وعسير، ويذيقه كل ما يشتهى من لذات الحياة على اختلافها جليلها وحقيرها، على أن يكون فاوست فى آخر أمره، إذا لم يعجز الشيطان عن إرضائه، عبداً للشيطان ويتم العهد بين هذين المتجاورين، ويندفع الشيطان بصاحبه فى فنون من اللذات كثيرة، منها الراقى ومنها المنحط وفيها آثام كثيرة، وما يزال به حتى يغوى فتاة بريئة ويضطرها بهذا الإغواء إلى أن تقتل أمها وابنها وتسبب قتل أخيها ثم تضطر إلى السجن ثم إلى الموت، كل ذلك فى ظروف كثيرة طويلة، تتخللها أشياء أضيفت إليها إضافة وحشرت فيها حشرا ليس وبينها صلة إلا الجوار فإذا انتهيت إلى آخر هذه القصة رأيت الشيطان قد أنفق ما يستطيع لإرضاء فاوست فوفق كثيراً، ولكنه على كل حال لم يظفر بنفس فاوست لأن فاوست ما زال على كلفه باللذة وتهالكه عليها مزدريا لكل ما ظفر به طامحًا إلى شىء آخر عجز الشيطان عن أن يوصله إليه، وهو الذى يحاول أن يطلبه ويظفر به فى فاوست الثانى.

هذه خلاصة القصة، وهى التى صيغت عليها القصص التمثيلية والغنائية، ولكن جوهرها ليس فى هذا الإطار الذى صورته لك الآن، وإنما هو فيما يحيط به هذا الإطار من دقائق الحوار بين الله والشيطان ثم بين فاوست وتلميذه، ثم بين فاوست والشيطان، ثم بين الشيطان والناس. فى هذا الحوار كنوز من النقد والفلسفة والأدب لا سبيل إلى تقويمها ولا إلى تحليلها ولا إلى الإحاطة بها، ولكنها كفيلة بأن تعطيك من جوته صورة رجل عظيم قد عظم حتى كانت عظمته أشبه شىء بالتمرد، ورق حتى كانت رقته أشبه شىء بدعة الملائكة. ومن غريب الأمر أنك تجد جوته ممثلا أصدق تمثيل فى ضعف الدكتور فاوست وقوته، وفى ضعف مارجريت وقوتها، كما أنك تجده ممثلا أصدق تمثيل فى تمرد الشيطان وكبريائه. وأى غرابة فى هذا؟ أليس جوته هو الذى ابتكر فاوست ومارجريت والشيطان؟

تجد فى هذه القصة صورة صادقة دقيقة لحياة العالم الأوربى قبيل الثورة الفرنسية وإبانها، أى فى عصر الانتقال الذى وثب بأوربا الوثبة الأخيرة من حياة القرون الوسطى إلى حياة العصر الحديث. ويقال إن فاوست الثانى يصور المثل الأعلى الذى يسمو إليه الرجل الفيلسوف وكيف يسمو إليه وكيف يظفر به. وقد تعمدت أن آتى بلفظ الشك هذا لأن الذين فهموا فاوست الثانى قليلون. وقد أسأل نفسى أحيانا: هل فهمه جوته؟... ولعل أصدق حكم على هذه القصة التى أقدمها الآن إلى القراء حكم مدام دى استال عليها حين قالت:

«إن هذه القصة تضطرك إلى أن تفكر فى كل شىء وإلى أن تفكر فى أمر آخر فوق كل شىء».

«طه حسين»

نبذة عن حياة الشاعر

JOHANN WOLFGANO VON GOETHE

(١٨٣٢ - ١٧٤٩)

إذا أردنا أن نقف هنيهة لنذكر جوته وآثاره، ونستعرض فى خيالنا مؤلفاته وأعماله، جاز لنا أن نتساءل: أيها أجل شأنا وأعظم خطرا، أأشعاره الغنائية، أم قصصه ورواياته، أم كتاب فاوست الأول والثانى، أم رسائله وأبحاثه العلمية، أم أعماله الإدارية كوزير فى ڤيمار. لقد كتب جوته أشعارا غنائية لا يعادلها فى عذوبة اللفظ ودقة المعنى أشعار. وكتب قصصا مسرحية إن لم تبلغ مستوى شكسبير، فإنها لم تقصر عنه كثيرا. وكتب مؤلفه الهائل فاوست الذى يشغل فى الأدب العالمى مكانًا فذًا. وكتب «ديوان الشرق والغرب» جمع فيه بين روح الحضارتين الشرقية والغربية، وله بعد هذا كله أبحاث علمية قيمة واستكشافات خطيرة. وكانت إدارته للأعمال التى اضطلع بها وهو وزير ڤيمار إدارة حازمة موفقة، ولكن لعل أكبر أثر خلَّفه جوته هو سيرته وحياته لا كتبه ومؤلفاته. وقد عبر مرك MERCK عن هذا المعنى فقال إن الحياة التى عاشها جوته أبدع من الأشعار التى كتبها.. فالقارئ الذى يريد أن يطالع أجل آثار جوته وأعظمها يجب أن يدرس حياته من مبتداها إلى منتهاها.. وللأسف لا يسمح المقام هنا بالإلمام بهذه السيرة الحافلة إلا إلمامًا يسيرًا. دون الإشارة إلى كتبه ومؤلفاته إلاّ عرضًا.

* * *

ولد يوهان ولفجانج جوته فى اليوم الثامن والعشرين من مارس سنة ١٧٤٩، فى مدينة فرانكفورت على الماين. وهى من أقدم المدن الألمانية ومركز عظيم للتجارة والمال. وبالرغم من أن والده من ذوى اليسار، فإن الأسرة لم تكن تمت إلى أصل أرستقراطى. فقد كان جده حائكا نزل بمدينة فرانكفورت، وزاول فيها مهنته، حتى جاءه الطالع السعيد فى صورة زوجة نصف تملك فندقا يدر عليها رزقًا حسنًا. فانقلب الحائك الماهر إلى مدير فندق، ومن هذه الزوجة ولد له ولدان، أصغرهما يوهان كاسپار جوته وهو والد الشاعر.

إذن فإن جد جوته كان حائكًا، فى وقت كانت الحياكة فيه معدودة من أحقر المهن. ومن لطيف المصادفات أن تكون هذه المهنة قد أنجبت لألمانيا اثنين من أكبر رجالها، أولهما شاعرنا والثانى الرئيس إيبرت أول رئيس للجمهورية الألمانية، الذى كان يدير دفتها فى أشد الأوقات فى تاريخها حرجا ومن المهم أن نذكر هذه الحقيقة، أى أن جوته من أصل وضيع لأنها تفسر لنا أن طبقة الأشراف فى ڤيمار لم تكن راضية عن الخطوة التى نالها الشاعر لدى دوق ڤيمار. ولم تزل مصرة على عدم رضاها عن هذا الدخيل حتى منح الزائدة المعروفة **VON** فصار الشاعر يدعى **VON GOETHE**.

أما والد جوته فقد تعمد أبواه أن يحسنا تأديبه وتثقيفه حتى يستطيع أن يعوض فى ناحية التعلم ما كان يعوزه من ناحية النسب. وقد درس الحقوق والشريعة ونجح فى دراسته النجاح كله. ثم لم يزل يرتقى فى السلم الاجتماعى حتى أصبح يعد من أرقى الطبقة الوسطى فى فرانكفورت، واستطاع أن يتزوج من أسرة شريفة. وقد تم هذا الزواج عام ١٧٤٨، وكان شاعرنا أول ثمرة من ثمراته.

نستخلص من هذا كله أن جوته قد ولد وسط شىء كثير من الرخاء واليسار. حقيقة أن أباه لم يكن من كبار ذوى المال. ولكنه كان فى رخاء جعله دائما بعيدا عن الحاجة، فعاش الشاعر حياته الطويلة لم يعرف الفقر يومًا ولم يمارس الشـدة. وإذا كانت هذه الشدة معلما لابد منه للنبوغ، فإن جوته قد حرم هذا التعليم، ولكنا نبحث عن أثر هذا الحرمان فى حياته وأشعاره فلا نجد له أثرًا. فلقد كان محسنا يكتم إحسانه،

وكان شديد الألم لما قد ينزل بغيره من المحن والشدائد، وفى أشعاره فى غير موضع رنات حزن عميق ومواقف تستدر الدمع، فإن طبعه الحساس أغناه عن تجربة الشقاء تجربة فعلية.

كذلك من الغريب أن هذا الفتى، ربيب الغنى، وأليف النعمة، القادر على أن يعيش عيش النعومة والرخاء، قضى حياته فى جد ودأب، يعمل بهمة لاتعرف السآمة، وهو أغنى الناس عن الدأب والسعى. تلك أيضا ظاهرة قد تبدو غريبة فى الشخصيات المألوفة، ولكن ليس فيها غرابة فى شخص تدفعه روحه أبدا إلى العمل وفى صدره شهوة إلى الجد والسعى أقوى من شهوة النهم إلى الطعام والشراب، فكان طول حياته يرهق نفسه بالعمل حبا فى هذا الإرهاق لا من أجل ثمرة يجنيها، أو فائدة يستفيدها، بل كان دينه الذى يدين به السعى من أجل لذة السعى والدأب حبا فى الدأب.

على أن سعة العيش التى نشأ فيها جوته كان لها أثرها الطيب فى حياته فقد لقى وهو صبى كل عناية ورعاية، وتلقى دروسه الأولى فى منزل أبيه حيث لقنه المعلمون اللغات اللاتينية واليونانية والإيطالية والفرنسية، وهذا كله تحت إشراف والده. وقد ألِف الناس أن يسمعوا أن طفولة النوابغ من الرجال كانت طفولة عادية، لا تنمْ عما سيئول إليه أمر الطفل فيما بعد من العظمة والنبوغ. ولكن جوته من غير شك قد خرج على هذه القاعدة - على فرض أنها قاعدة - فقد كان طفلا نابغًا استطاع أن يكتب أربع لغات أجنبية عدا لغته الأصلية ولم يتجاوز الثامنة من عمره. وكان فى التاسعة يكتب قصصا صغيرة ليسلى بها أخاه الصغير يعقوب. ولما بلغ العاشرة احتلت فرانكفورت جنود فرنسية، وأنشىء فيها مسرح تمثل فيه الروايات الفرنسية. وكان جوته يختلف إلى هذا المسرح، وانتهى به الإعجاب بالروايات الفرنسية إلى دراسة الأدب الفرنسى دراسة مطولة، وإلى كتابة قطعة ضعيفة خيل إليه أنها تشابه تلك التآليف المسرحية.

انجلى الفرنسيون عن فرانكفورت فى سنة ١٧٦١ وعاد جوته إلى الدراسة المنتظمة فى دار أبيه. وأخذ يتلقى دروسًا فى الرياضة والموسيقى والرسم. فأما الرياضة فلم يستطع أن يسير فيها خطوة، وكذا لم يستطع أن يتقن الموسيقى رغم ما بذله فى

سبيل ذلك من جهود. وأما الرسم فقد تقدم فيه خطوات حسنة وبقى طول حياته يمارسه من آن لآن، ولا تزال آثاره فى هذا باقية محفوظة، وإن لم تصل إلى مرتبة عالية من الإتقان. وكذلك عاد إلى دراسة اللغات فتعلم الإنكليزية. وكان فى مدينة فرانكفورت عدد عظيم من اليهود لهم لهجتهم الخاصة، فحاول جوته أن يتعلمها، وهى لهجة تشتمل على مزيج من اللغة الألمانية المحرفة واللغة العبرية. فألح جوته على والده أن يساعده على تعلم العبرية فسمح أبوه بذلك فقطع فى دراستها شوطا حسنا بحيث استطاع أن يدرس التوراة فى لغتها الأصلية. وقد تركت هذه الدراسة أثرا عميقا فى نفسه.

كان فى طبع جوته ناحية تختلف تماما عما ألفنا أن نراه أو نسمعه عن الألمان. فإن الخلق الألمانى مشهور بأنه ميَّال إلى الجلد والصبر، والتعمق فى دراسة ناحية واحدة من النواحى العلمية أو العملية، والانقطاع إلى فهم موضوع واحد، ولهذا كان التخصص من الميزات الكبرى للألمان. فيحصر الرجل منهم نفسه فى دائرة محدودة يقتلها بحثا واستقصاء، حتى تكون له فيها الكلمة العليا والرأى السديد. وإلى هذا الطبع يرجع الفضل فى نبوغ الألمان فى مختلف نواحى الحياة. كان فى طبع جوته على العكس شىء كثير من القلق، يأبى عليه الاستقرار على شرعة واحدة ينهل منها، ومورد واحد يعكف عليه. كان طبعه القلق يدفعه أبدا إلى ورود مناهل جديدة والتماس جهة أخرى تتجه إليها نفسه الحائرة وقلبه الهائم، ثم لا يكاد يتجه هذا الاتجاه الجديد حتى يتركه إلى غيره. وهذا كان ديدنه طول عمره. ولهذا قلما انقطع إلى مؤلف واحد إلا زمنا يسيرا، ثم يتركه ويأخذ فى معالجة غيره، ثم يترك الأدب والشعر فجأة وينصرف إلى العلوم الطبيعية أو اللهو واللعب والملذات، ولهذا كله نرى أن مؤلفات جوته إما أن تكون قصيرة كتبها وفرغ منها فى زمن وجيز، أو كتبا طويلة قضى فى كتابتها سنين عديدة يتركها ثم يعود إليها، أو قطعا (Fragments) ابتدأها ثم تركها دون أن يعود إليها.

ورغبة جوته هذه فى الانصراف إلى أمر جديد قد كان من آثارها معالجته موضوعات كثيرة، سواء أثناء تعليمه فى منزل أبيه أو دراسته فى الجامعة أو فى الحياة نفسها. ولقد يرى بعض الناس أن جوته لو قصر همه على الشعر وحده أو الأدب وحده

لنبغ فيه نبوغا أجل وأسمى مما وصل إليه فعلا. وهذا القول له وجاهته. على أن من أكبر مميزات شعر جوته أنه يتناول نواحى شتى من الحياة، وكان من المستحيل عليه إخراج هذه الصور المتعددة لو لم تكن عبقريته متعددة النواحى مختلفة المشارب.

* * *

نعود إلى سيرة شاعرنا. فقد أخذ يكتب الشعر بشكل جدى وهو فى الرابعة عشرة، وفى تلك السن بدأت الحلقة الأولى من صلاته الغرامية وكان غرامه بفتاة طاهرة صالحة ذات قلب مملوء تقوى وإيمانا قد تركت فى نفسه أثرا حسنا. وفى شهر أكتوبر سنة ١٧٦٥ أرسله أبوه إلى ليبتسك ليدرس فى جامعتها وهو بعد فتى فى السادسة عشرة من عمره. وصل إلى هذه البلدة وصدره ملتهب شوقا لتعرف جميع نواحى الحياة. وقلبه تواق لورود مناهل العلم وجيبه ممتلئ بما يحتاج إليه من مال، بل وبأكثر مما تدعو إليه الحاجة. وكانت هذه المرة الأولى التى استنشق فيها نسيم الحرية بملء رئتيه. ولم تكن الرقابة الوالدية فى وطنه فرانكفورت رقابة شديدة ولا قاسية. ولكن الحرية التى وجدها فى ليبتسك حرية كاملة لا تشوبها شائبة، فأخذ يمرج فى بحبوحتها ما شاء له المرح والصبا.

وكان والده مصرا على أن يدرس ولده القانون قبل كل شىء، وأن يحرز فى دراسة القانون تفوقا، وله بعد هذا أن يجول جولاته فى أية دراسة أخرى. فحين وصل جوته إلى ليبتسك قابل أستاذ القانون وتلقى منه النصائح التى يجود بها الأساتذة فى مثل تلك المواقف. ولكن الفتى جوته قال لأستاذه فى شىء من الحياء، إنه مولع بالأدب، واستأذن فى أن يسمح له بإرواء غليله هذا بدلا من الانصراف التام إلى القانون، غير أن الأستاذ أفهمه أن الأدب شىء تافه يجب ألا يأبه له طالب جاد فى دراسته. وقد حاول جوته أولا أن يخلص فى التفرغ للدرس، فكان فى الفترة الأولى مقبلا على المحاضرات التى أوجبتها عليه دراسة القانون. غير أنه ما لبث أن أدركه السأم وفترت همته ولم يعد يواظب على الدرس. ولعل تجاربه هذه هى التى أملت عليه فيما بعد ذلك الحوار البديع بين الطالب وإبليس كما يراه القارئ فى كتاب فاوست.

لم يلبث جوته أن انصرف عن دراسة القانون إلى دراسات أخرى استطابها، وأضاف إلى حبه للأدب غراما جديدا بالتاريخ الطبيعى وبالطب. وقد ظهر ولعه بهما فيما بعد بأجلى مظاهره، على أن جامعة ليبتسك لم تحظ من جوته إلا بشطر يسير من زمنه. وأما الشطر الأكبر فكان يصرفه فى معهد الفنون الجميلة حينًا، وفى اجتياز سبل الحياة المختلفة خيرها وشرها، وفى التشبيب بابنة صاحب الفندق الذى كان يتناول فيه طعامه واسمها أنيت شونكويف (Annet Schoenkopf) وفى كتابة الأشعار والقطع التمثيلية. ففى أيام ليبتسك هذه نظــم روايتين : Die Laune des Verliebten (مزاج العاشق) وDie Mitschuldigen (زملاء فى الجريمة). وهاتان القطعتان هما أقدم شىء لدينا مما كتبه جوته. لأن كل ما كتبه قبل ذلك فقد. وأكثره أحرقه هو بيديه. ولهاتين القطعتين منزلة خاصة فى حياة الشاعر، إذ نرى منهما إلى أى علو قد حلق طائر شعره وهو بعد فتى فى السابعة عشرة من عمره.

وفى صيف سنة ١٧٦٨ أصاب جوته مرض شديد اضطره إلى أن يعود إلى فرانكفورت بعد أن قضى فى ليبتسك ثلاثة أعوام أحرز فيها الشىء الكثير من تجارب الحياة، والشىء القليل من الدراسة الجامعية. دام مرضه هذا زمنا فلم يتم شفاؤه إلا فى أوائل سنة ١٧٧٠، وعندها رأى والده أن قد آن له أن يعود إلى دراسة القانون دراسة جدية، وأن يعكف على هذه الدراسة حتى يحصل فيها شهادة عالية، ولعل هذا الإصرار من جانب الوالد على أن يتعلم جوته القانون مع قلة رغبته فيه هو الأمر الوحيد فى تربية جوته الذى يصح أن يكون موضعا للنقد. ولكن يجب ألا ننسى أن الوالد مع إعجابه بأشعار ولده أراد أن يعده لمناصب الحكم قبل كل شىء؛ ولهذا كانت الدراسة القانونية واجبة. ففى شهر أبريل من تلك السنة أرسل الفتى وقد جاوز العشرين إلى الجامعة مرة أخرى. وفى هذه المرة اختار له أبوه جامعة ستراسبورج. وقد أوجدته الصدفة وسط جماعة من طلبة الطب والعلوم. فأثار حديثهم كامن رغباته فى دراسة المباحث المتعلقة بهذه العلوم. ورغم مثابرته على دراسة الحقوق كان يصرف جزءا عظيما من وقته فى دراسة التشريح والنبات والكيميا. وبالطبع لم ينس نصيبه من دراسة الأدب. وهكذا نرى جوته فى درسه شأنه فى جميع أطوار حياته، لا ينقطع إلى

دراسة واحدة، ولا يصبر على طعام واحد. وإن نعجب فعجبا من فتى يجد من وقته متسعا لكل هذه الدراسات المتباينة. التى استطاع أن يضرب فيها جميعا بسهم، ويبلغ فى كثير منها مرتبة حسنة، وهو مع هذا كله لا يعدم وقتا يقضيه لدى معلم الرقص ليتقن هذا الفن من جهة، وليشبب بابنى المعلم فى الوقت نفسه.

وللمدة التى قضاها جوته فى ستراسبورج شأن خاص فى سيرته، فهنا استطاع بعد لأى أن يحصل على شهادة دكتور فى الحقوق أو شهادة تقرب منها، وأمكنه بهذا أن يقر عين والده ويزيح عن عاتقه عبئا ثقيلا. وفى ستراسبورج التقى جوته بهردر (Herder) ولازمه ملازمة التلميذ المخلص. وكان هردر قد اشتهر بمؤلفات فى أصول الأدب وأخذ يبث فى جوته تعاليمه التى يدين بها، وتنحصر هذه الجهود فى توجيه جوته نحو الأدب القومى والشعر القومى، كما يبدو فى التوراة وأشعار هوميروس وأوسيان وشكسبير، وأراه إن أول واجب على الشاعر الألمانى أن يلتمس الإلهام من الروح الجرمانية ممثلة فى تاريخ ألمانيا. وفى الميثولوجيا التيوتونية. وكان جوته مستعدا لهذه الآراء، لأنه قد تأثر حتى من قبل التقائه بهردر بتلك الروح القومية، وكان مصدر هذا التأثير دراسته لفن البناء القوطى، ممثلا أبدع تمثيل فى كاتدرائية ستراسبورج فقد كان يتأمل هذا البناء الشامخ طويلا، ويمعن فى التأمل فيه، حتى انتهى إلى تفضيل الفن الجرمانى فى البناء على الفن اليونانى واللاتينى. وقد يتعجب القارئ المصرى من أن شاعرا عظيما يتأثر فكره بتأمله لبناء من الأبنية، وقد يصعب علينا أن نتصور أن أحد شعرائنا قد يتأثر إذا أطال التأمل فى مسجد السلطان حسن أو الهرم الأكبر، ومع ذلك فقد كان لدراسة الفن القوطى، ممثلا فى بناء تلك الكنيسة، أثر عظيم فى تفكير جوته. وقد ترتب على هذا كله قيام نهضة فى ألمانيا جرمانية الصبغة تنفر كل النفور من القيود الثقيلة التى مبعثها الإعجاب بالأدب القديم، والفن القديم. وهذه الحركة هى التى أطلق عليها اسم (Sturm und Drang) وهما لفظان تصعب ترجمتهما. ومعناهما بالتقريب «الثوران والاندفاع». إذن فإن من أكبر ثمار المدة التى قضاها فى ستراسبورج، أن بعثت فى جوته هذه الروح الجرمانية التى نرى أثرها فيما بعد فى روايته المسرحية الجليلة جوتس (Gotz).

كذلك تعرف جوته فى أثناء دراسته فى ستراسبورج إلى أسرة رجل قسيس من خيار الناس يسكن قرية صغيرة قريبة من المدينة اسمها سيزنهايم (Sesenheim) ولم يكد يعود مرة أخرى إلى زيارة تلك الأسرة حتى شغفته فريدريكا بريون ابنة القسيس حبا. فى تلك الآونة كانت علاقاته بمعلم الرقص وابنتى المعلم قد انتهت. وكان قلبه فارغا من كل علاقة غرامية. فلم يكن بد من أن يهيم بتلك الفتاة الطاهرة. وتحول الهيام سريعا إلى التفكير فى الزواج. فلما وصل الأمر إلى هذه الغاية التى لابد أن ينتهى إليها، إذا الصلة قد انقطعت، والتقدم السريع قد انقلب إلى تقهقر بانتظام. هذه الظاهرة: التردد فى التقيد بقيود الزواج سنراها المرة بعد المرة فى حياة جوته ولهذا يحسن بنا أن نقف قليلا لنلخصها هنا:

الحقيقة أن جوته لم يكن فى يوم من الأيام عاشقا متيما. حقيقة أنه كانت تبد عليه كل علائم العشق المبرح، فكان يكثر من الزيارة إلى سيزنهايم، ويقضى الساعات الطوال فى منزل فردريكا، وتظهر عواطفه فى أشعار بديعة لا يشك قارئها فى أن قد أثارها الحب الصحيح الخالص من كل شائبة، ولكنا نراه حين يبلغ الأمر إلى نتيجته الطبيعية وحين توشك شجرة الحب أن تؤتى ثمرها، يصوب نحوها رياح جفاء وابتعاد لا تلبث أن تنويها وتقتلها. والحقيقة التى لا مناص من استنباطها أن جوته لم يكن يحب حبا مبرحا. بل كان يحب أن يرى نفسه محبا، ومغرما بأن يرى نفسه مغرما، فإذا جاءت الساعة العصيبة تذكر أن قيد الزواج قد يصرفه عن المعالى، وأن تجارب الحياة المقبلة قد تهديه إلى علاقة خير من هذه العلاقة. فيلتمس فى البعد شفاء من جراحه. فلا يلبث البعد والشباب والغنى واللهو أن تنسيه لوعته وتشفيه من كل سقم. وهكذا كان. وعاد فى أغسطس سنة ١٧٧١ إلى وطنه فرانكفورت، وهو الآن الدكتور ولفجانج جوته المحامى الناشئ.

وعقب وصله إلى موطنه أخذ يشتغل بجد فى رواية «جوتس». وانتهى من كتابتها فى أوائل العام التالى. هذه الرواية المسرحية التى أثارت ضجة كبيرة عندما نشرت فى سنة ١٧٧٣ قد تبدو اليوم أقل من مستوى الشاعر الذى كتب فاوست وولهلم مايستر. ولكنه كتبها وهو فى الثالثة والعشرين وأخرجها فى طراز جديد أثار اهتمام الأمة

الألمانية. وقد تعمد أن يسبغ على هذه الرواية الثوب الجرمانى ويبث فيها روح الثورة على التقاليد القديمة، والوحدات الكلاسيكية المعلومة. ولهذا كان لها صدى عظيم فى عالم الأدب. ونحن قد نتوهم اليوم أنه من العجيب أن تحدث ضجة فى ألمانيا لأن شاعرا من شعرائها أراد أن تسود الروح الجرمانية، وجاهد مجاهدة الأبطال فى هذا السبيل. هذا يبدو غريبا لأول وهلة. ولكن لنذكر أن ملك بروسيا فردريك الأكبر المعاصر لجوته كان يحتقر الأدب الجرمانى والفن الجرمانى، ولا يتكلم فى بلاطه بغير اللغة الفرنسية، ولا يسود فى بيئته غير الأدب الفرنسى، فإذا كان الناس على دين ملوكهم فأى جهاد هائل كان محتما على أمثال جوته وشيلر حتى يبثوا الروح الجرمانية فى الأدب الألمانى؟

لم ينشر كتاب جوتس للناس إلا عام ١٧٧٣ وقبل ذلك بسنة ذهب جوته إلى وتسلار وهى مقر محكمة الاستئناف العليا، للتمرن على الأعمال القضائية. وهذا الجزء من حياة جوته معروف للقارئ المصرى فلا حاجة للإطالة فيه. فهناك تعرف جوته بكستنر خطيب شرلوت بوف وهام بهذه الخطيبة أشد الهيام، وما كان هيامه بها شديدا إلى هذا الحد إلا لأنها مخطوبة بعيدة المنال. ولو كانت حرة وقبلت الزواج منه لولى الأدبار، ولاذ بالفرار، كما فر من فردريكا بريون من قبل وكما فر من ليلى شونمان من بعد.

وعاد بعد شهور إلى فرانكفورت وأخرج فى عام ١٧٧٤ ثمرة عشقه لشرلوت بوف، وهذه الثمرة هى كتاب «آلام وفرتر» الذى يعرفه الجميع والذى بلغ فى سرعة الذيوع والانتشار ما لم يبلغه كتاب آخر لجوته، ولو أن حماسة الناس قد فترت بعد ذلك، وأصبح كتاب «فرتر» وليس له ذلك المقام الكبير فى الأدب الألمانى. على أن أثره فى حياة الشاعر كان عظيما، فقد ذاع به صيته وحلقت رايته فى سماء الشهرة وكان لهذا شأنه فى حياة الشاعر بعد ذلك.

من النواحى الطيبة فى أخلاق جوته أنه كان يتلمس الهداية أبدا على يد المرشدين الذين يسوقه حظه إلى صحبتهم. وقد وفقه طالعه الحسن إلى صحبة ثلاثة رجال فى

فترات مختلفة فى حياته، وهؤلاء الثلاثة هم هردر ومرك وشلر. وقد سبق لنا أن ذكرنا مقابلته لهردر فى ستراسبورج، وأما شلر فسنعود إلى ذكره فيما بعد، أما مرك هذا فرجل أديب ناقد من النوع الذى يشحذ ولا يكاد يقطع! وكان له اتصال متين بكثير من كبار الكتاب والشعراء، وكانت نصائحه لهم عامة ولجوته خاصة باعثة على زيادة الإنتاج وإحسانه. وقد تعرف إليه جوته عقب عودته من ستراسبورج وكانت بينهما مودة متينة ولو أنها فترت قليلا فيما بعد.

كان هردر ومرك كلاهما أكبر من جوته سنا. ونظرا لانقطاعهما إلى دراسة النقد الأدبى، كانا من غير شك أعلم منه بهذا الموضوع. وكانا يبذلان له النصح فى شىء من غطرسة المعلم، وكان يقبل هذا كله منهما رغم ما جبل عليه من الكبرياء والغرور. وكان يتقبله أحيانا بشىء من المضض وأحيانا لا يذعن إليه. ولكن لاشك فى أن رغبته فى تثقيف نفسه من جهة، وحبه لهما من جهة أخرى، وإخلاصهما له من ناحية ثالثة، كل هذا جعله ينتفع بما بذلاه له من النصائح.

بعد أن أخرج جوته كتاب ڤرتر بزمن يسير ساقه القدر وهو فى فرانكفورت إلى صداقة فتاة فى السادسة عشرة من عمرها اسمها أنا شونمان Anna Schonemann وأطلق هو عليها اسم ليلى Lili وهى ابنة رجل من نوى اليسار ومن كبار أصحاب المصارف فى فرانكفورت . ولا نريد أن نطيل شرح علاقة جوته بليلى، فحسبنا أن نذكر أنها كانت تكرارا لما حدث له مع فردريكا، ولو أنه فى هذه المرة قد أضاف عنصرا جديدا وهو الخطبة الرسمية التى تمت رغم معارضة أهل الخطيبة والخطيب، ولكن هذا العنصر الجديد لم يغير كثيرا من سير القصة سيرتها الأولى. فقد أحجم جوته فى الساعة الأخيرة ثم سافر فى رحلة يصحبه الأخوان المستهتران ستولبرج إلى سويسره. وهو يزعم أنه مسافر ليرى هل يستطيع الصبر على فراقها. وعاد من سفره وقد خمدت الجذوة المستعرة وهان عليه فسخ الخطبة.

* * *

فى عام ١٧٧٥ كان جوته قد بلغ السادسة والعشرين ، وقد أصبح اسمه، بفضل ما أخرجه من الشعر الغنائى البديع، وبفضل كتابيه «جوتس» و «ڤرتر»، حديث الأندية الأدبية فى ألمانيا، بل وفى كثير من الأقطار الأوربية الأخرى، وأجمع الناس على أنه قد نبغ فى فرانكفورت شاعر مبدع، بلغ على حداثته شأوا بعيدا فى عالم الأدب. فى تلك السنة حدث لجوته حادث غير مجرى حياته؛ وهذا الحادث الخطير هو التقاؤه بكارل أوجست دوق ڤيمار. كانت المقابلة الأولى بينهما فى كارلسروهى Karlsruhe فى ولاية بادن فى أثناء رحلة جوته إلى سويسره، وهناك تعارفا، ودعا الدوق جوته لزيارة ڤيمار، ثم مر كارل أوجست بعد ذلك بفرانكفورت وهو عائد مع زوجته الشابة إلى ڤيمار، فقابل جوته مرة ثانية. وأعاد الكرة بأن دعاه بإلحاح لزيارته. وقد نصح مرك تلميذه بالقبول، ولكن الوالد كان ممانعا، وحذر ابنه من أن الاقتراب من الأمراء غير محمود العاقبة، ومثل له بما جرى بين ڤولتير وفردريك الأكبر، وكيف انتهت علاقتهما إلى الشقاق والخصام. وبعد تحريض وإلحاح قبل الوالد كارها أن يزور جوته ڤيمار ويقضى فيها «بضعة أسابيع». هذا ما أراده الوالد الشيخ، ولكن المقادير أرادت أن يذهب جوته إلى ڤيمار فيجعل منها وطنه الدائم طول الحياة ومثواه بعد الوفاة.

* * *

كانت دوقية ساكس ڤيمار قسما صغيرا من تلك الأقسام السياسية المستقلة التى كانت ألمانيا منقسمة إليها. وهى الآن جزء من جمهورية تورنجيا، وڤيمار، عاصمة الدوقية، بلدة صغيرة على نهر الألم، أحد روافد الإلب، من البلدان القديمة فى ألمانيا ذات طرقات ضيقة، ومن بقايا بلدان العصور الوسطى - وكان سكان الدوقية قليلين يعيش أكثرهم من الزراعة، وحالتهم لا تختلف عن حالة الفلاحين فى أوربا فى العصر السابق للثورة الفرنسية. ومع أن موارد الدوقية ضئيلة جداً فإنها أصبحت بفضل همة أميرها مجتمع كثير من العلماء والأدباء والفنانين، فكان بلاط ڤيمار لا يضارعه فى هذا إلا بلاط بوتسدام مع الفارق العظيم بينهما، وهو أنه بينما فريتس (فردريك الأكبر) لم يكن يرحب إلا بالثقافة اللاتينية، ولا يتكلم فى بلاطه إلا بالفرنسية، فإن الثقافة المنتشرة

فى بلاط ڤيمار ألمانية بحتة ورجالها جميعا من الألمان. ومع أن بلاط ڤيمار فقير جداً إذا قورن ببلاط بوتسدام، فإنه مع هذا لم يكن دونه بكثير، بل لقد كانت شمس العبقرية فيه من غير شك أسطع، وأثره فى الأدب الألمانى والثقافة الألمانية خيرا وأبقى.

كانت بلدة ڤيمار على صغرها جذابة لمن يرغب فى عيشة الهدوء والطمأنينة، والمناظر الطبيعية التى تحدق بها على درجة عظيمة من الجمال؛ فمن جدولها المتدفق ومروجها اليانعة إلى غاباتها المنتشرة وحديقتها الكبرى التى عنى جوته بأمرها عناية خاصة، حتى جعلها من خير الحدائق وأحسنها. وفوق هذا فإنه على مقربة منها مدن شهيرة مثل يينا ذات الجامعة وإيرفورت، وكذلك جبال تورنجيا ليست بعيدة منها. وإلى هذه الجبال كان جوته كثيرا ما يذهب هو وكارل أوجست للتنزه والرياضة، وقد بنى لهما كوخ صغير بالقرب من إلمناو لكى يبيتا فيه على أعالى الجبال.

وعلى صغر هذه الدوقية وبساطتها ، فإنها كانت عالما قائما بذاته، فكان بها إمارة وعرش وحاشية وحكومة، وكان يؤمها من آن لآن كثير من الأشخاص ذوى الشأن. واستطاع أميرها الصغير أن يجتذب إليها عددا كبيرا من أعلام الأدب والفن والعلم، وكان أهل القصر أنفسهم على جانب عظيم من الثقافة. ومن أهم الأفراد البارزين فى هذه البيئة الدوقة الوالدة أماليا أم كارل أوجست وصديقة الشاعر ڤيلاند الذى تعلمت منه اليونانية ودرست عليه الأدب القديم، وكانت تحسن الموسيقى والتأليف الموسيقى عدا حبها للهو والمسرات – وقد رحبت بمقدم جوته وكانت تكاتب أمه تباعا. ومن أكبر المقربين إليها ڤيلاند Wieland من متوسطى شعراء ألمانيا ومن كبار أدبائها. وهو الذى تولى تعليم كارل أوجست وتأديبه، ومن أهم نساء حاشيتها الآنسة كروتر، قينة القصر Hoff Sangerin التى كانت تمثل الأدوار الغنائية فى القطع التمثيلية التى يقوم بها بعض كبار الحاشية، وكذلك كان هنالك أدباء كثيرون نذكر من بينهم سكندرف مترجم آلام ڤرتر إلى الفرنسية، وبِرْتوخ مترجم سرفانتس وأماهردر صديق جوته وأستاذه فى الأدب فجاء إلى ڤيمار بعد جوته بقليل، وقد استدعاه الدوق بناء على رجاء جوته ليكون إمام القصر وواعظه.

أما الأميرة لويز دوقة ساكس ڤيمار وزوجة كارل أوجست، فكانت تختلف عن أماليا بأنها على حداثة سنها ذات طبع يميل إلى الجد، والمحافظة على التقاليد، والبعد عن اللهو والترف. ولا تعمل إلا كل ما يليق بمقامها ومركزها، وهذا بخلاف زوجها الدوق الفتى، الذى كان ينفر من التقاليد، ويحب اللهو والمرح، وقد كان هذا أحيانا سببا فى شىء من الفتور بينهما، لكنهما كانا عادة على صداقة ووئام.

إلى هذه البيئة جاء جوته فى نوفمبر سنة ١٧٧٥ وهو شاب فى السادسة والعشرين، وكارل أوجست فتى فى الثامنة عشرة ، لكن كان الأمير على حداثة سنه نافذ البصر، يعرف كيف يقدر النبوغ وكيف يجتذب النابغين إليه. ولم يمض إلا قليل حتى أصبح هو وجوته صديقين حميمين وبقيا كذلك مدى خمسين عاما. وكانا يتخاطبان من غير كلفة، وقد يبيتان فى دار واحدة، وفى حجرة واحدة، ويقضيان معا ساعات طوالا، يتجاذبان فيها الحديث، لا عن الفن والأدب فحسب، بل وعن شئون ڤيمار ووسائل إصلاحها. وقد كان كلاهما مولعا باللهو والمرح والمجون. فكانت الأسابيع الأولى لجوته فى ڤيمار ممتلئة بأنوا ع العربدة واللهو البرئ وغير البرئ، والفكاهات اللفظية والعملية، يمارس كل هذا هو والدوق بروح لا تعرف المسئولية ولا التقاليد، وكانا كثيرا ما يختلطان بالعامة من مزارعين وعمال، وقد يقضيان الليلة فى وسط مناجم إلمناو يرقصان مع بنات العمال إلى سويعات الفجر.

على أن هذا اللهو وإن شغل جزءا عظيما من وقتهما فإنه لم ينسهما العناية بالشئون العامة. والنشاط الهائل الذى امتاز به كل منهما كان مساعدا لهما على ممارسة ناحيتى الجد واللهو على السواء. وويلاند مع إعجابه بجوته وبالدوق، أبدى أسفه الشديد على أن يصرف جوته وقته فى هذه الترهات، بينما الواجب يقضى بصرفه فى جلائل الأعمال. والحقيقة أن جوته لم يخرج فى السنين الأولى بڤيمار مؤلفا يستحق الذكر. ولكن يجب ألا ننسى أنه قد اكتسب تجارب كثيرة كان لها من غير شك أثرها فيما أخرجه من الآثار فيما بعد، وفى الغالب أن كثيرا من كتبه التى ظهرت بعد ذلك كان فى هذه المدة فى دور «التفريخ»، فإنه يقول فى إحدى رسائله إنه رغم أعماله الكثيرة

فى خدمة الدوق كان لا يعدم الوقت اللازم لمتابعة دراساته الأدبية والعلمية، عدا أنه بالطبع لم ينس نصيبه من الدنيا.

وقد عرض عليه دوق ڤيمار منصبا يعتبر فى ڤيمار من أرفع المناصب، بمرتب ١٢٠٠ دولار أى نحو ٢٠٠ جنيه من نقود هذا الزمان. وكان هذا مبلغا لا يستهان به فى تلك الأزمنة وفى دوقية فقيرة كإمارة ڤيمار.

وتعيين جوته فى هذا المنصب وجعله عضوا فى المجلس الأعلى ، والحظوة الكبرى التى نالها عند كارل أوجست، كل هذا حرك ألسنة الحاشية بالشكوى المرة، من هذا الدخيل الذى لم يتدرج مثلهم من أصغر المناصب إلى ما هو أرقى منها، والذى حرمهم بلوغ المرتبة التى يطمحون إليها. ولكن كارل أوجست رد على احتجاجهم بأن وجود مثل جوته عنده شيء يحسد عليه، وبأن كفايته وعبقريته أمر معلوم للناس جميعا، وأنه لا يعلم فى جميع المتطلعين إلى هذا المنصب من يدانيه فى تلك الكفاية، وأنه (أى الدوق) أحزم وأعقل من أن يجعل مجرد الأقدمية سببا لحرمانه من خدمات مثل الدكتور جوته.

بهذا الرد الحاسم أخرست الألسنة ، وازدادت المودة والألفة بين الدوق وبين جوته، الذى أصبح ساعده الأيمن، وألقيت إليه الآن مقاليد الكثير من الأعمال الإدارية فى الدوقية ومنح الدوق جوته دارا صغيرة ذات حديقة غناء على نهر الألم (اسمها جارتنهاوس Gartenhaus) وبات بديهيا أن جوته قد جاء إلى ڤيمار ليقيم بها، ومادام كارل أوجست حاكمها فهيهات أن يسمح له بالابتعاد عنها طويلا.

وهنا لابد لنا أن نقرر أن المنصب الذى أسند إلى جوته لم يكن مجرد وسيلة لإبقائه فى ڤيمار ومنحه مرتبا يتمكن بواسطته من متابعة دراسته وتأليفه؛ لم يكن، بعبارة أخرى، منصبا فارغا من غير واجبات ولا أعمال مرهقة، بل كان منصبا يقوم شاغله بأعمال جدية فى الدوقية. وتأبى على جوته همته إلا أن يضطلع بأصناف الأعباء التى يقوم بها صاحب ذلك المنصب عادة؛ فإن إخلاصه لكارل أوجست وثقة كارل أوجست به، كل هذا كان من شأنه أن يجعل جوته يتولى شطرا عظيما من مهام الدوقية، وأن يرهق نفسه بالعمل من أجل صديقه ومولاه. فنراه مثلا يقوم بإدارة الفنون وبالأخص

المسرح والتمثيل، وبإدارة الحربية والمالية حيث كان يضطر لأن يقف فى وجه الأمير الذى يحب التبذير شأن الأمراء، وبتنظيم المدينة وحدائقها، وكثير من المشروعات التى ترمى إلى إصلاح حالة الأهالى، وبإدارة مناجم إلميناو (Ilmenau) التى كانت معطلة، وكان هو سبب افتتاحها مرة أخرى ويظهر أن اضطلاعه بكل هذه الأعباء وبغيرها مما لا يمكن حصره من أعمال الدولة، مضافا إليه مشاغله الأدبية والعلمية والقلبية، كل هذا قد آده حمله بحيث رثى له حتى كارل أوجست، وكان يقترح عليه من آن لآن أن يأخذ له قسطا من الراحة، لكن جوته لم يلتمس الراحة إلا فى سنة ١٧٨٦ حين سافر إلى إيطاليا بعد أن قضى عشر سنوات فى هذا الجد والدأب.

قلنا إن جوته فى هذه السنوات العشر، كانت له عدا أعماله الإدارية، مشاغله الأدبية والعلمية والقلبية. فأما أعماله الأدبية، فقد كان لا يفتأ ينظم الشعر الغنائى ويؤلف قطعا تمثيلية من أجل مسرح ڤيمار. ونذكر من بين هذه القطع رواية إيفجنيا مكتوبة نثرا - وقد نظمها شعرا بعد ذلك وهو فى إيطاليا - وكذلك رواية «انتصار الحساسية» (Triumph der Empfind - samkeit) . وهذه القطعة مهزلة الغرض منها السخرية بالعواطف السخيفة، وقد اضطر جوته لكتابتها لكى يقلل من تأثير كتابه آلام ڤرتر الذى كان سببا فى حلول مصائب بكثير من ضعاف الأحلام، وكانت تبلغ جوته أخبارهم فتتألم نفسه لذلك. واضطر أخيرا لكتابة تلك القطعة لعلها تحدث أثرا يذهب بأثر كتابه الأول.

وعدا هذه القطع فإن جوته من غير شك كان يعمل أو يفكر فى مؤلفات أخرى مما ظهر فيما بعد.

وأما مشاغله العلمية فإنه فى هذه الفترة كان يشتغل كثيرا بالعلوم الطبيعية حتى اهتدى إلى كشف عظيم فى التشريح، وهو الاهتداء إلى عظم ما بين الفكين (Os Inermaxillare) وكذلك كان يدرس شيئا عن فن البناء وتنظيم المدن وهندسة الحدائق ليطبق فى إصلاح ڤيمار وتجميلها.

أما مشاغله القلبية فى هذه السنين العشر فتدور حول شخص مدام فون شتاين. وهى من كبار سيدات قصر ڤيمار وزوجة أحد كبار ضباط الحرس، ولم تصبح بينها

وبين زوجها صلة بعدما ولدت له سبعة أولاد. كانت شارلوت فون شتاين حين رآها جوته امرأة فى الثالثة والثلاثين قد مارست الحياة حلوها ومرها. وفهمت طبائع الرجال وخصالهم، وكانت فوق هذا على جانب عظيم من الأدب والثقافة العالية. وفى شخصها لقى جوته امرأة لم ير مثلها من قبل. فإن صلاته إلى وقت نزوله ڤيمار كانت دائما بفتيات لم يتجاوزن العشرين، كان يجتذبه إليهن ماهن عليه من صباحة وطلاوة وبهاء وشباب غض. لكنهن كن دونه ثقافة وتربية وعقلا وعلما . أما مدام فون شتاين فكانت أكبر منه بسبعة أعوام، وكانت امرأة ناضجة عقلا وذكاءً وأدبًا. قادرة على أن تشاطره أحلامه مهما بعدت، وأفكاره مهما سمت، وتواسى جروحه، وتعجب بقوته وترثى لضعفه، فكانت له بمثابة الصديقة والشقيقة والحبيبة، وبالرغم من أنها لم تكن على شيء كثير من الجمال فقد أولع بها جوته ولم يفتر حبه لها طول هذه السنوات العشر. وقد علمت – وهى سيدة العارفين – أنها إن سلمت لهذا الفتى النزق بكل ما يشتهى فسرعان ما يسأمها ويفقدها وتفقده، فاستطاعت أن تبقى جذوته مستعرة ملتهبة، وأن تستبقى حبه وإجلاله لها عشر سنين طوالا. وبليتوفسكى يقول إن علاقتهما بقيت طاهرة نقية، ولو أن غيره يزعم غير ذلك؛ وعلى كل حال فقد كان نفوذها على جوته عظيما وصالحا ولم يتلاش هذا النفوذ إلا بعد عودته من إيطاليا.

* * *

كان جوته دائما يتوق إلى رؤية إيطاليا. ولم يتحقق حلمه هذا إلا فى سبتمبر ١٧٨٦ حيث غادر الدوق وحاشيته و سافر متخفيا إلى تلك البلاد الجميلة حيث الشمس لا تحجبها السحب وحيث الآثار الرومانية تنطق بالعظمة الخالدة. وقد أخذ يتنقل بين مدن إيطاليا المختلفة من أقصاها شمالا إلى صقلية جنوبا. وكل منها مفعم بالذكريات وبدائع الفن الخالد. لكنه كان مغرما بروما بوجه خاص، والذين يعرفون المدينة الأبدية يفهمون سر هذا الغرام، فهنا ألفى جوته نفسه أمام عظمة تلك الحضارة الهائلة التى لم ينقص مر السنين من رونقها وبهائها، ووجد فيها مثارًا لوحى جديد. وكذلك وجد فرصة لأن يتعلم

الدروس التى تلقنها الأسفار فى بلاد تختلف عن بلاده الاختلاف كله. وعدا هذا فإنه أصاب فى إيطاليا فراغا وسكونا وهدوءا، وما كان أشد احتياجه لهذا بعد تلك السنين المضنية.

دامت هذه الرحلة نحو العشرين شهرا، عاوده فى أثنائها غرامه بالفن والتصوير، فأضاع وقتًا كثيراً فى محاولات غير مجدية، فإنه ما كان ولن يكون رساما ماهرا. ولكن بجانب هذا أتم نظم إيفجنيا وإيجمونت. وشرع فى نظم تاسو، وهذه الثلاث من أحسن رواياته التمثيلية.

أجمع الكتاب على أن رحلة إيطاليا تعتبر نقطة مهمة فى حياة جوته. فإنها بصرف النظر عما تعلم منها أعطته فرصة طويلة لأن يتبصر فى أمر نفسه وأن يفكر فى مآله وحياته، وكان نزق الشباب قد أخذ فى الزوال وحل محله شىء من الوقار والرزانة والنضج، ورأى وهو فى إيطاليا أنه لن يستطيع أن يعود إلى تلك الحياة التى كان يحياها فى ڤيمار، حيث كان جانب عظيم من وقته ضائعا فى تافه الأعمال. ولهذا كتب إلى كارل أوجست من إيطاليا قبيل العودة يلتمس منه أن يعفيه من الواجبات الصغيرة التى كانت تقيد يديه ، وتلتهم جزءا عظيما من وقته، حتى يستطيع أن يفرغ للناحية الجدية من جهوده العلمية والأدبية. وكان كارل أوجست عند حسن ظن جوته به، فأعطاه سؤله، وأعفاه من رئاسة المجلس الأعلى، ومن الإدارة الحربية، واستبقى جوته بمحض رغبته إدارة الأعمال العلمية والفنية بما فى ذلك إدارة المسرح.

عاد جوته إلى ڤيمار فى يونيه سنة ١٧٨٨ ، وقد لاحظ الجميع فى خلقه شيئًا من التغير، فقد ألفوه الآن جادا وجافا فى طبعه، متحفظا فى شىء من الفتور أو البرود. لاحظت هذا التغير مدام فون شتاين، ورأت أنه لم يبق فى قلبه نحوها تلك الحرارة وذلك الشغف اللذان ألفتهما منه. وقد خاطبته فى ذلك فلم تجد المخاطبة، ثم لامته وأنبته فما أصلح هذا اللوم من الموقف شيئا. والحقيقة أن جوته، الذى عاد من إيطاليا، غير جوته الذى عرفته هذه السيدة، ولو أنصفت لأدركت الموقف الجديد، وعلمت أن أمامها

اليوم جوته الرجل لا جوته الفتى، وإن عليها أن تعامله معاملة جديدة تتفق والموقف الجديد، لكنها أصرت على اتهامه بالتقصير والإهمال، وأنكر هو هذه التهمة، وبعد قليل انقلت الجفاء بينهما إلى قطيعة وهجران، حينما تعرف جوته إلى كرستيانه ڤولپيوس التى صارت زوجا له فيما بعد.

* * *

فى يوليو سنة ١٧٨٨ كان جوته يتمشى فى حديقة ڤيمار فتصدت له فتاة حسناء وناولته كتابا تلتمس فيه مساعدة أخ لها أديب بائس فى بلدة يينا القريبة. هذه الفتاة هى كرستيانه ڤولپيوس، التى صارت أولا خليلة جوته ثم حليلة له. وكانت فتاة من طبقة فقيرة. والبون شاسع بين مركزها ومركزه الاجتماعى. لكنها على جانب عظيم من حسن الخلق، والخلق ولا يعوزها الأدب والتربية، ولو أنها لم تكن فى هذا لتدنو من مدام فون شتاين أو غيرها من نساء البلاط. ويقال إن جوته أراد أن يتخذها زوجا فأبت لعلمها أن هذا يحرج مركزه، فإن الحاشية لم ترض عن علاقة جوته بها، وحسبت هذه العلاقة عارا عظيما. وقاطعتها حاشية البلاط مقاطعة تامة. ولم يقبلوا أن يروها بينهم، فكانت لا تصحب جوته إلى القصر ولا ترافقه فى الحفلات، ومع أنها كانت تصاحبه إلى يينا، فيقدمها إلى أصدقائه وعارفيه، كانت أبواب ڤيمار أبدا موصدة أمامها. وكانت صداقتهما موضع نقد مر وطعن شديد فى جوته لخروجه، هذا الخروج الشنيع، على العرف والتقاليد.

ولم يلق جوته نقدا لأى عمل من أعمال حياته مثل الذى لقيه من حبه لكرستيانه. ويقول شيفر أحد مؤرخى جوته: «إن الأمة لم تغفر لأكبر شعرائها هذا الخروج على العرف والعادة، وهذه العلاقة النصف الزوجية كانت سببا كبيرا فى قلة تقدير الناس لأخلاق جوته، وفى الحكم بأحكام قاسية عليه وعلى تأليفه..». إلى هذا الغلو يذهب المجتمع فى استهجان من يخرج على تقاليده.

وبالطبع أمام هذا النقد المر لم يستطع جوته أن يعقد زواجه رسميا، ولكنه أعلن غير مرة أن كرستيانه زوجه فى كل شىء ما عدا الرسميات. وفى أول عام ١٧٨٩

ولدت له ولده الأول أوجست. فعند ذلك أسكنها وأمها فى الدار التى يسكنها وأصبح الجميع ينظرون إليها كزوجته.

لم يزل الكتاب الذين ألفوا فى سيرة جوته – وكثير ما هم – بين مستهجن وناقد ومتسامح فى نقده لهذا الحادث الخطير فى حياة هذا الرجل الخطير. كانت كرستيانه مليحة الصورة، جذابة جدا، وعاقلة ومدبرة ومغرمة به، ولكنها كانت إزاءه وضيعة النشأة قليلة التعليم. ومما يؤسف له، من غير شك، أن جوته لم يوفق إلى زوجة تناسبه من جميع الوجوه بحيث لا يستحى من مصاحبتها له فى المجتمع الذى يعيش فيه. ولكنه إن لم يجد فيها ضالته كلها، فإنه من غير شك وجد فيها كثيرا مما تهواه نفسه من الجمال والبساطة وطيب الخلق وسرعة الفهم. ولم يكن – وهو الذى احتقر العرف والتقاليد طول حياته – بالذى يبالى بما يقوله البلاط وأهله. وقد بقى جوته سعيدا جدا بعلاقته بها زمنا طويلا. وكانت مساعدة له على إنتاجه العلمى والأدبى. فإليها يرجع الفضل فى إخراجه القصائد المعروفة باسم «المنظومات الرومانية» وهى من أبدع ما نظم. حقيقة أنها ساءت حالها فيما بعد، وعكفت على الشراب إلى درجة مزرية، ولكن لم يكن معقولا أن يتنبأ جوته بهذا.

* * *

فى السنين التى أعقبت زواج جوته هذا انصرف برغبة وحماسة تكادان تشبهان الجنون إلى الأبحاث العلمية. فأخرج رسالته الفذة فى تطور النبات Metamorphosis der Pflanzen وهى من غير شك كشف جديد فى هذا العلم. وأعقبها برسائل أخرى دونها فى المنزلة العلمية كرسائله فى البصريات والرياضيات والألوان وغيرها. وقد بقى جوته منغمسا فى هذه الشهوات حتى انتشله منها شلر ووجهه بعنف نحو الأدب. وقبل أن نتدرج إلى ذكر اجتماعه بشلر يجب أن نشير إلى الحوادث التى شغلته قبيل ذلك. فى عام ١٧٩٠ سافر جوته للمرة الثانية إلى إيطاليا لكى يصحب الدوقة أماليا ويرافقها فى عودتها، ولم يكن لزيارته الثانية لإيطاليا فى نفس جوته من الأثر ما كان للزيارة الأولى. فإن الرحلة كانت محدودة المدى، والأحوال مختلفة عما

كانت عليه من قبل، وعقب عودته إلى ڤيمار كان العالم السياسى فى أوربا يموج بعضه فى بعض، فقد ثارت فرنسا ثورتها وزعزع عرش البربون، فثار ثائر ملوك أوربا إذ رأوا العرش تنتهك حرمته والصولجان يحطم، والحقوق الملكية المقدسة تداس وتمتهن. عزَّ هذا على أصحاب العروش. فجرد هؤلاء الحلفاء جيشا ليدافع عن الحق الملكى المشروع، تلقاء هذه الاعتداءات البذيئة من العامة والسوقة.

وقد يتساءل القارئ: وما لجوته وهذا كله؟ لم يكن جوته بالرجل الذى يأبه للحقوق الملكية المقدسة، ولم يكن يعطف على الثائرين بعدما رأى من انتهاكهم للحرمات، وكان أحب إليه أن يجلس فى داره ليفند آراء نيوتن الرياضية، ويحلل الألوان. ولكن لسوء حظه كان ملك بروسيا أحد الحلفاء، واختار كارل أوجست قائدا لفيلق من فيالق بروسيا، ولدوق ڤيمار ولع عظيم بالجيش، كما له ولع عظيم بجوته. فطلب من جوته أن يصاحبه. وما كان جوته ليرد لكارل أوجست سؤلاً. فصاحبه فى تلك الحروب وكان يقضى أكثر وقته فى تجاربه العلمية يفحص العظام ويراقب الألوان، ويدرس النبات. وكان سروره عظيما حين تمت هزيمة الحلفاء لا حبًا فى انتصار الثائرين. ولكن حبا فى العودة إلى درسه وعمله، وكتب إثر عودته إلى أحد أصدقائه يقول: «أعود الآن إلى منزلى لكى أرسم من حولى دائرة محكمة لا يدخلها غير الحب والصداقة والعلم والفن. ولست أشكو من الماضى، فقد تعلمت منه الشىء الكثير النافع». وهكذا صمم جوته أن يعكف على أعماله الأبدية العالمية، غير مكترث بتلك الزوابع السياسية التى تجتاح وجه أوربا.

كانت عودة جوته إلى ڤيمار فى أواخر سنة ١٧٩٤، وفى مايو من السنة التالية كان جوته فى يينا ليسمع محاضرة عن النبات فى دار جمعية التاريخ الطبيعى، فالتقى بعد المحاضرة بشلر، وهو إذ ذاك أستاذ التاريخ بها، ثم تحادثا قليلا بعد المحاضرة. ومنذ ذلك العهد توثقت الرابطة بينهما وازدادت صداقتهما قوة على مر السنين.

إن صداقة جوته وشلر فريدة فى بابها يكاد لا يكون لها نظير فى تاريخ الأدب لأية أمة فى أى عصر. ويصعب على الإنسان أن يتصور شاعرى ألمانيا العظيمين المتنافسين.

وقد ارتبط قلباهما برباط الحب والإخلاص، حتى لقد كان جوته يقول إن أسعد ظروف حياته هى التى مكنته من مقابلة شلر. ولأول وهلة يخيل للمرء أن تلك الصداقة متعذرة لما بين الرجلين من الفروق؛ كان جوته فى الخامسة والأربعين وشلر دونه بعشر سنوات. وكان جوته ربيب النعمة حليف الغنى، قد بسم له الحظ طول عمره. بينما شلر قد نشأ فى فقر وعاش فى فاقة، وكان دائما فى ضنك وضيق. كان جوته صحيح الجسم قوى البنية وشلر بعكس ذلك. وكان جوته يعشق الطبيعة والحقيقة، أى أنه ريالست (واقعى) بينما شلر كان يرمى بخياله بعيداً يلتمس المثل العليا، أى أنه إيديالست (كمالى)، وكان جوته يشتغل فى أول النهار. وشلر يعمل فى الظلام إلى ما بعد منتصف الليل. ثم أليس المعقول أن تتنازع شلر عواصف الحسد حين يقارن بين حال جوته وما هو فيه من بسطة فى الرزق وحالته هو، إذ يضطر لأن يجتزى بالشىء اليسير، وبينما جوته يسكن فى منزلين رحيبين فى ڤيمار، يكتفى شلر بغرفتين فى إحدى الدور الصغيرة؟.

على أن هذه الاختلافات بين الشاعرين لم تقم حائلا دون التأليف بين قلبيهما برباط من الصداقة النادرة. وذلك لأن كليهما كان يقدر ما للآخر من المزايا ويعجب بمواهبه، ويجد منه فهما وتقديرا لكل فكر وكل حس وكل بادرة تبدر منه ثم بعد هذا كله فقد كانا يعتقدان أن لديهما رسالة جليلة يؤديانها إلى العالم؛ فهل مثل هذين يجدان من وقتهما فراغا للتفكير فى الحسد والبغضاء؟

فى عام ١٨٠٠ جاء شلر إلى ڤيمار وأقام بها. وقد حاول الكثير أن يبذر شيئا من النفور بينهما، فأخذ الناس يتعصبون؛ فريق لجوته وفريق لشلر. وقد رد عليهم جوته بأنه أولى بهم أن يحمدوا الله أن لديهم شاعرين لا شاعرا واحدا. وقد حاول أهل حاشية ڤيمار بتمجيد شلر والاحتفال به أن يوغروا صدر جوته عليه. فلم يتم لهم شىء مما أرادوا. إن صداقة هذين الرجلين قلعة حصينة لم تؤثر فيها قنابل الدسائس ولا إغارات النميمة.

كانت هذه الصداقة بين الشاعرين أهم شىء فى تاريخ كل منهما. فكانت تلك السنين من أسعد سنى حياتهما. وكان إنتاجهما عظيما، ليس له نظير فى أى جزء آخر

من عمرهما، لا من حيث المقدار ولا من حيث الجودة. وقد كان كل منهما يقبل نصح الآخر، فيكمل كل منهما نقص صاحبه. وعاد إلى جوته نشاطه الأدبى، على ما صرح بذلك فى كتاب إلى شلر يقول فيه : «لقد خلقت لى شبابا جديدا وأرجعتنى مرة أخرى إلى القريض بعد أن باعدت بينى وبينه».

بدأ هذا التعاون الأدبى بإصدار مجلة أدبية **Die Horen** وبعد ذلك أخذا ينشران مئات من الرباعيات فى نقد معاصريهم واسمها **Xenia**. وفى سنة ١٧٩٧ أخذا يتنافسان فى تأليف قصائد قصصية من النوع المعروف باسم **Ballade** وجوته ولو أنه يعترف بأسبقية شلر فى هذا النوع من التأليف، قد أخرج فى تلك السنة تلك القصائد البديعة «عروس كورنت» و«الإرل كونج». فى هذه الفترة أخرج شلر خير رواياته التمثيلية مثل «والنستاين» و «ماريا ستوارت» و «ولهلم تل». وأخرج جوته «ولهلم مايستر»، و«فاوست الأولى»، و «هرمن ودوروتيا». عدا كثيراً من القصائد والمقطوعات.

هذا التعاون الفكرى الجليل بين الشاعرين قد رفع صداقتهما إلى مستوى قل أن تسمو إليه صداقة. وأصبح جوته يعتقد أن وجود شلر أمر لازم لوجوده هو. لهذا لا نعجب إذا علمنا أن قد خانه جلده، واستولى عليه جزع شديد حينما علم بوفاة شلر فى مايو سنة ١٨٠٥ ولم يتجاوز السادسة والأربعين. وكتب جوته إلى تسلتر يقول: «إن نصف حياتى قد بان عنى». ولم يعرف عن جوته أنه حزن لفقد عزيز أو موت ولد أو قريب حزنه على فقد شلر، وقد بكى من أجله مر البكاء، وهو الذى كانت تأبى عليه كبرياؤه أن يبدى جزعا أو حزنا بين أيدى الناس. وعبثا حاول أن يجد سلوانا فى الدراسة أو التأليف. فإن فكره قد خمد وجذوة ذكائه قد انطفأت على إثر هذه الكارثة.

فى شهر أكتوبر التالى لوفاة شلر. دارت المعركة المعروفة بين نابليون وأعدائه بالقرب من يينا وجاءت فرقة من الجنود الفرنسية فاحتلت ڤيمار انتقاما من كارل أوجست لأنه، وإن لم يحارب نابليون، عاون أحد القواد بأن أقرضه نقودا فى وقت الحاجة وآوى بعض الجرحى من الضباط البروسيين. وقد تصدت لنابليون الدوقة لويز، وبررت موقف زوجها والتمست من نابليون أن يرأف بأهل الدوقية ولم تزل به حتى لان، وانجلى العسكر عن ڤيمار.

وقد غضب جوته أشد الغضب إذ رأى هذا الظلم موجهًا إلى صديقه وسيده مع أنه لم يقم إلا بما يوجبه الشرف ويحتمه الواجب. أحسَّ جوته بأن الحال عصيبة وأنه أولى به أن يضم إليه جميع أقربائه والمخلصين له. فقرر أن يعقد قرانه على كرستيانه، وتم ذلك بعد معركة يينا ببضعة أيام بعد أن عاشرها معاشرة الزوجة سبعة عشر عاما، وبعدما ولد له منها ولده أوجست وكان عمره وقت الزواج الرسمى ست عشرة سنة. وقد قرر جوته أنه إذا حدث له شيء في تلك الأزمنة الخطيرة، فالأولى أن يترك زوجته وابنه في حال طبيعية. وبالطبع قد أثار هذا الزواج عاصفة انتقاد بين بعض أهل ڤيمار. ولكن أكثر أصدقائه هنأوه على هذه الخطوة الحميدة التى نظم بها حاله المنزلية. وقد هنأته أمه التى كانت دائما معجبة بكرستيانه وقد أحبتها منذ البداية.

بعد ذلك حسنت علاقة دوق ڤيمار بنابليون. وفي خريف سنة ١٨٠٨ كان نابليون في إيرفورت على مقربة من ڤيمار. وفي ٢ أكتوبر استدعى جوته إليه، ولما وصل إليه كان الإمبراطور يتناول فطوره، ومعه تاليران ودارو وبعض حاشيته. فسأل جوته عن سنه وكان قد بلغ الستين، فقال الإمبراطور إنك أحسنت الاحتفاظ بقوتك. ثم أخذ يتحدث عن الأدب فانتقد كتاب محمد لڤولتير ومدح آلام ڤرتر وقال إنه قرأها سبع مرات، ثم انتقد بعض أجزائها. وانتهى الحديث بعد أن استمر ما يقرب من الساعة؛ وبعد أن خرج جوته التفت نابليون إلى من معه وقال تلك العبارة المشهورة: **volla' un homme**.

بعد هذه المقابلة بأيام كان نابليون في ڤيمار في حفلة أقيمت له، وتحدث طويلا إلى جوته وويلاند، واقترح على جوته أن يؤلف شيئا يمثل فيه يوليوس قيصر وعظمته والخيرات الهائلة التى كان منتظرًا أن يغمر بها العالم لو لم يقض عليه؛ وكذلك دعاه لأن يزور باريس فأظهر رغبته في ذلك، ولولا تقدم سنه لنفذ هذه الرغبة من غير شك؛ وقبل سفر نابليون من إيرفورت أنعم بنيشان اللجيون دونير على كل من ويلاند وجوته.

في سنة ١٨٠٩ أخرج جوته قصة جديدة يصعب ترجمة عنوانها **(Wahlverw and Schaften)** (قرابة الاختيار)، وقد نشأت هذه القصة عن حادث جديد في حياة جوته؛ وهو حبه لفتاة

اسمها منّاهر تسليب، متبناة أحد أصدقائه، وقد رآها وهى طفلة ونمت وكبرت أمام عينيه ثم انتهى حب الطفلة إلى حب الفتاة. ولكنه أمسك نفسه وكظم حبه وأعيدت الفتاة إلى المدرسة برهة لكى تنجلى عمايته. ومقدرة جوته على أن يحب وأن يبعث الحب فى غيره قد لازمته طول حياته. ففى مارينباد التقى بفتاة أحبها وأحبته فى سنة ١٨٢١ وهو إذ ذاك قد جاوز السبعين، وقد أراد أن يتزوج منها لولا أن خشى العنت والسخرية.

وفى سنة ١٨١٠ أخذ يؤلف كتابه «الحقيقة والخيال» (Dichtung and Wahrheit) الذى أخرجه فى ثلاثة أجزاء وضمنه سيرة حياته من أولها. وإتمام هذا الكتاب الخطير كان من أهم الأعمال التى شغلته فى السنين الأخيرة من عمره. وفى سنة ١٨١٣ حزن جوته حزنا شديدا لوفاة ويلاند، ورأى عقد أصدقائه وأحبائه ينفرط جوهرة إثر جوهرة، فبعد هردر قضى شلر ثم الدوقة أماليا ثم أمه. والآن يذهب ويلاند فيزداد شعوره بالوحدة والوحشة.

فى عام ١٨١٣ تحالفت دول أوربا على نابليون، وفى أواخر السنة انهزمت الجيوش الفرنسية فى معركة ليبتسك، وفى العام الثانى كان نابليون سجينا فى جزيرة إلبا، وقد خسر العرش والدولة بأسرع مما أحرزهما. هذه الحوادث الجليلة التى ارتجت من أجلها أوربا، كان لها أثرها فى نفس جوته وفى حياته لكنها أثرت فيه تأثيرا خاصا. لم يكن فى صدر جوته لنابليون بغض، بل كان يجله ويتوقع له النصر، ولم يشارك كثيرين من الألمان فى بغضهم له وحقدهم عليه. فكانت نظرة جوته إلى هذه الحوادث نظرة فلسفية عالية، لا نظرة الوطنى مدفوعا بشعوره لوطنه. ولهذا هاله أن يرى النجم المتلألئ يسقط هذا السقوط الفجائى، وهذا الطود الشامخ تتداعى أركانه وتنقض جوانبه.

وهنا لابد لنا أن نشير إلى التهمة التى اتهم بها جوته، وهى أنه كان مارقا من دين الوطنية وأنه لم يكن فى قلبه عطف على ألمانيا. وإنصافا لجوته يجب أن نذكر القارئ بأنه كان مخلصا أشد الإخلاص لوطنه المختار «ڤيمار»، وكان حنقه شديدا على نابليون من أجل غضبه على كارل أوجست الذى كان جوته يتفانى فى الإخلاص له والذود عن حوضه. أما أنه لم يكن ذا شعور وطنى ألمانى، فليذكر القارئ أن ألمانيا فى عصر نابليون كانت عبارة جغرافية ليس لها مغزى سياسى، وكانت مقسمة إلى مائة

جزء كل منها مستقل عن الآخر، وكان نابليون هو العامل الأكبر فى إيجاد فكرة الوحدة , الألمانية، فقد وحد الألمان بغضه، والرغبة فى التخلص من نير استعباده. فهل من العدل أن يلام جوته وهو فى الستين عن عمره على أنه لم يستشعر البغض لمن لم يلحقه منه أذى، ولم يظهر العطف على فكرة أوجدها هذا البغض؟ إن جوته الذى كانت روحه عالمية، والذى قضى حياته فى تأديب نفسه على أن تنظر إلى الأمور من ناحية عالمية، لا يجوز أن يطلب منه وهو كهل أن يثور كما يثور طلبة المدارس من أجل فكرة كان يرى أن تحقيقها بعيد.

ولهذا لم يكن غريبًا أنه فى تلك السنين العصيبة: سنين إلبا ووترلو ومؤتمر فينا تحول جوته عن أوربا تماما وتركها وراءه ظهريا. والتفت يلتمس وحيًا جديدًا ومثارا جديدا للخيال والشعر بأن أخذ يدرس أدب الشرق، وبنوع خاص الأدب الفارسى والعربى. أخذ يدرس شعر حافظ الشيرازى مترجما إلى الألمانية، وأخذ يستعين ببعض المستشرقين على الاستزادة من هذا البحر الفياض.

وهكذا نرى جوته وهو شيخ فى السادسة والستين من عمره يقبل على الدرس إقبال التلميذ، بحماسة وحرارة نتمنى مثلهما لكل تلميذ. وأخذ يدرس القرآن وكان إعجابه به لا حد له. ولسوء الحظ لم يكن جوته قد درس العربية أو الفارسية. وإذا كان هذا مبلغ إعجابه بالأدب الفارسى والعربى مترجمين - والترجمة تشويه لا مفر منه - فكيف يكون تأثره لو أتيح له قراءة تلك النصوص فى أصولها؟

كانت ثمرة هذه الجهود كتاب بديع سماه ديوان الشرق والغرب. ضمنه كثيرا من الصور الشرقية مرسومة بريشة غربية. وقد أضاف إلى الأشعار شروحا يصف بها حالة الشرق وتاريخه، مما يعين القارئ على تفهم ما جاء فى الديوان. وهذا الكتاب، ولو أنه يشتمل على قصائد من أبلغ ما جادت به قريحة جوته، ليس من كتبه الشائعة المتداولة، نظرا لأن معانيه يحيط بها عادة غشاء من الغموض، فالكتاب إذن للخاصة لا للعامة، شأنه فى هذا كشأن الجزء الثانى من فاوست.

* * *

ولقد متع الله جوته بعمر طويل. وكانت السنين الأخيرة كلها هدوء وسكون. فقد خففت عنه أعباء أعماله الرسمية. وكان يقضى معظم وقته فى منزله، الذى أصبح حقيقة كعبة القاصدين يحج إليها الراغبون فى رؤية الشيخ الوقور، ولقد كان جوته فى كهولته على شىء كثير من الهيبة، وهنرى هاينه بظرفه المعهود يقول لنا إنه كان يؤلف الجمل التى يريد أن يقولها! حتى إذا كان فى حضرة المشترى (جوته) لم يحر كلاما، اللهم إلا عبارة، قالها فى ارتباك وحياء، عن شجيرات البرقوق التى رآها فى طريقه بين يينا وڤيمار.

وكان الزائرون من جميع الطبقات. فمنهم الأمراء والوزراء ألمان وغير ألمان، كانوا يحضرون فى صحبة دوق ڤيمار. ومنهم الأدباء والشعراء أمثال هاينه وتاكرى. ومنهم أيضا الفضوليون الذين لا تخلو ديار كبار الناس منهم. على أن حياة جوته إذ ذاك لم تكن مجرد زيارات واحتفالات، بل لقد كانت حافلة بنشاط كثير. فقد أتم فى هذه السنين الأخيرة الجزء الثانى من كتاب ولهلم مايستر وكتاب الحقيقة والخيال، والكتاب الثانى من فاوست. وهذا الأخير لم يتم تأليفه إلا فى سنة ١٨٣١، وهو معتبر عند الخاصة أجل شىء كتبه جوته، وقد أوصى الشاعر بألا ينشر إلا بعد وفاته، ولهذا بقى فى يده إلى آخر لحظة يزيد فيه ويعدل فيه ما شاء. وإلى الأسبوع الأخير من حياته كان جوته يكتب أو يملى الرسائل الأدبية والعلمية ويتعقب سير التفكير العلمى فى ألمانيا وفى أوربا بكل يقظة وانتباه.

وكان حافظا لكل قواه إلى النهاية، وبرغم ضعف سمعه، فقد بقى نظره صحيحاً سليماً.

* * *

كانت دار جوته فى شىء من الوحدة، ولكن تحسنت هذه الحال فى عام ١٨١٧ إذ تزوج ولده أوجست من فتاة من أذكى فتيات ڤيمار اسمها أوتليا. ولكن السرور بهذا الزواج قد شابه وفاة زوجه كرستيانه فى العام التالى، وقد كان حزنه عليها شديدا. ومن رزق عمرا طويلا كعمر جوته لابد أن يعانى مرارة فقد الأصدقاء والأحباب. ففى

عـام ١٨٢٧ مـاتت مـدام فـون شـتـاين. وفى يونيـو ١٨٢٨ مـات الصـديق الأكـبـر كـارل أوجست، وصـاح جوته إذ بلغه نعيـه: الآن قـد ذهب كل شىء (Nun ist alles vorbei)، وفى فبراير سنة ١٨٣٠ ماتت دوقـة ڤيمـار، وفى أكتـوبر توفى ولده أوجسـت وهو فى إيطاليا. وكان موته ضربة أليمة. وبعد وفاته جاءت زوجته أوتليا بأطفالها وأقامت فى دار جوته. فكان له من وجودهم بعض السلوان، فى وقـت بات فيه حقيقة وحيدا بعد أن درج أصدقاؤه وأقرانه.

* * *

فى أغسطس سنة ١٨٣١ كانت الحفلات قد أعدت من أجل عيد ميلاد شاعر ألمانيا الأكبر. وفرارا من هذه الحفلات ذهب جوته إلى إلميناو ليقضى مدة يسيرة ريثما تنتهى الضجة، وحين وصل إلى تلك البلدة صعد إلى المرتفعات المجاورة ونزل بالكوخ الصغير الذى قضى فيه مع أصدقائه أيامًا سعيدة، وحين دخل إلى الكوخ رأى مكتوبا على جدرانه سطورًا قد خطها هو بقلمه منذ سنين عديدة، وهى:

Ueber alle Gipfeln
Ist Ruh,
In allen Wipfeln
Spurest Du
Kaum einen Hauch;
Die Vögelein schweigen im Walde.
Warte nur, balde

Ruhest du auch.

وهى أبيات لابد أن تقرأ وتفهم فى لغتها الأصلية، ومع ذلك فإنا نعالج ترجمتها فى شىء كثير من التردد:

فى ذرى الأطواد صمت شامل
وسكون غشى الكون الفسيح..

خيمّ الصّمت على الغاب، فلا
صوت طُيرٍ فيه أو نسمة ريح..
كل شئ مستريح هادئ
وقريبا أنت أيضا تستريح !

طالع جوته هذه السطور، فاغرورقت عيناه بالدموع، دموع أثارتها ذكراه لأحبابه وأصحابه، ولأيام فتوته وشبابه، فأطرق مليا وردّد السطر الأخير «وقريبا أنت أيضا تستريح».

وحقيقة كانت النهاية قد اقتربت؛ ففى ظهر اليوم الثانى والعشرين من مارس ١٨٣٢ قضى نحبه فى داره بڤيمار بعد أن لازم الفراش أياماً قلائل. وقد دفن إلى جنب صديقه الخالد شلر.

فاوست

المأساة

فاتحـــة(١)

فـى السـماء

الرب. جمـوع الملائكـة: وبعـد قـليل يظـهر إبليـس

يتقـدم الملائكـة الثلاثـة المقربـون

إسـرافيـل

الشـمس تغنى[٢] كدأبها من الأزل، منافسة فى النشـيد أخــواتها الأجــرام. وتدور دورتها التى رسمت لها بخطى كالرعد القاصف.

---

(١) هذه الفاتحة فى السماء بمثابة مقدمة للكتاب أراد المؤلف أن يبين فيها المحور الذى تدور حوله حوادث القصة، وأن يضع أمام القارئ صورة لقوتى الخير والشر وتأثر الإنسان بكل منهما. ولهذا ذكر ذلك الحوار بين الرب وإبليس.

وقد اختار (غوتيه) أن يجعل هذه الفاتحة على نسق كتاب أيوب كما ورد فى التوراة: حيث يبدو إبليس مع الملائكة أمام الرب. فيمتدح الرب أيوب بأنه عبد مخلص. فيزعم الإبليس أن هذا الإخلاص لا يلبث أن يزول لو أن الرب ابتلى أيوب بفقد ماله وولده إلخ. فعلى هذا النسق كتب غوتيه هذه الفاتحة.

ومع ذلك فقد تناول بعض الكتاب هذا الفصل من «فاوست» بالنقد، زاعمين أنه من السفه وقلة الاحترام للدين «والتجديف» بمكان. والحقيقة أن غوتيه كان أبعد الناس عن التجديف والاستهزاء بالدين. وإنما حمله على كتابة هذا المنظر فى هذا الشكل القصة التى بنى عليها كتابه والتى اقتبسها عن كتاب القرون الوسطى والتى منها تلك المراهنة بين الرب وإبليس. وفى الكتاب أشياء أخرى خارقة للعادة سيراها القارئ.

(٢) إشارة إلى ما يقال من إن للأجرام السماوية فى دورانها أصواتا كالموسيقى. وقد ذكر شىء من هذا فى كتاب أيوب (إصحاح ٣٨) «ونجوم الصباح غنت معا».

ألا إن منظرها ليبعث القوة ويثير الهمة فى نفوس الملائكة، وإن لم يكن بينهم من يفهم كنهها ويدرك سرها .

إن هذه البدائع السامية، التي يقصر عنها الإدراك، لم تزل ذات روعة وبهاء كما كانت فى يومها الأول.

جبريل

وهذه الأرض ذات الجمال الرائع دائبة فى الدوران بسرعة يقصر عن تصورها الوهم. يتعاقب عليها النور الساطع والظلام الحالك الرهيب.

والبحر اللجى يرغى ويزبد، ويندفع تياره إلى سفح الصخور.

والبر والبحر كلاهما يدوران دورة الكواكب الأبدية السريعة.

ميكائيل

والعواصف تتبارى فى الدوى والزئير، مندفعة من البحر إلى البر، ومن البر إلى البحر. وتكون حول الأرض نطاقا هائلا من القوة والصولة. والبروق المتقدة تكتسح وتدمر ما يعترضها فى سبيلها. وعلى أثرها تدوى الرعود وتنقض الصواعق.

ومع هذا كله فإن رسلك أيها المولى الجليل يمجدون يومك الهادئ المطمئن ويقدسون هدوءه وصفاءه.

الثلاثة معا

إن هذا المنظر ليبعث القوة ويثير الهمة فى نفوس الملائكة وإن قصرت أفكارهم عن إدراك أسرارك الخفية.

وإن ما أبدعته فى العالم لم يزل ملؤه الروعة والبهاء كما كان فى اليوم الأول.

إبليس

أما وقد تنازلت أيها المولى الجليل فدنوت منا مرة أخرى، وسألتنا عن حالنا، وقد عودتنى من قبل أنك تسر لرؤيتى. فلهذا ترانى أنا أيضا واقفا وسط العبيد.

سامح يا مولاى واصفح! فإنى عاجز عن الإتيان بمثل تلك الكلمات الراقية، وإن جر على هذا العجز سخرية الجميع واستهزاءهم.

ولعمرى لو أننى جاريتهم فأبديت شعورا أو عاطفة لأضحكك صدور مثل هذا منى؛ لولا أنك غادرت عادة الضحك.

أنا لا أعرف كيف أتحدث عن الشمس ولا عن الأجرام العلوية.

وإنما أعرف بنى الإنسان وكيف يعذب بعضهم بعضا. إن ابن آدم – إله الأرض الصغير – لم يزل على طوره القديم لم يتغير. وهو اليوم عجيب غريب كما كان فى اليوم الأول[1].

وإن حاله قد تحسن وعيشه قد يطيب؛ لولا أنك منحته ذلك الشعاع من النور السماوى، الذى سماه العقل، واتخذ منه آلة يتوسل بها لأن يكون أكثر بهيمية من البهائم وأكثر وحشية من الوحوش.

وإنى لأشبهّه – لو يسمح لى مولاى – بتلك الجرادة الطويلة الساقين التى ما تنفك تطير واثبة، وتثب طائرة. وتغنى أنشودتها القديمة البالية وسط الحشائش. ويا ليته بقى دائما وسط الحشائش والأعشاب، ولم يذهب إلى كل بؤرة رجس وقذر فيدس بأنفه وسطها[2].

---

(١) يريد إبليس بتكرار عبارة «كما كان فى اليوم» شيئا من التهكم مما قالته الملائكة قبلا.

(٢) وجه الشبه هنا بين الإنسان وتلك الجرادة أنه يريد التحليق والطيران فلا يستطيع فيكتفى بالوثوب بين الحشائش. ثم يلهيه انغماسه فى الأقذار عن التفكير فى الطيران.

الرب

هل بقى شىء لم تقله ؟ مالك لا تجئ إلا لتتهم ؟ أما ترى مدى الدهر فى الأرض شيئا حسنا ؟

إبليس

كلا أيها المولى ! إنى لا أرى هناك إلا كل قبيح، كما هى الحال منذ القدم. وإنى لأشفق على بنى الإنسان حين أرى حياتهم الملأى بالآلام؛ حتى لقد رثيت أنا للمساكين فلا أريد أن أعذبهم.

الرب : أتعرف فاوست ؟

إبليس : الدكتور؟

الرب: خادمى.

إبليس: أجل. وإنه ليسلك فى خدمتك طرقا غريبة. إن ذلك الأبله قد بات لا يرى لنفسه فى الأرض قوتا أو شرابا. وذهبت به أحلامه وأوهامه إلى مدى بعيد. وإخاله مدركا سخفه وجنونه بعض الإدراك. وتراه اليوم يتطلب زُهر النجوم من السماء، ويريد أن تخرج له الأرض أقصى ما يشتهى ويحب؛ وبعد هذا كله فلا شىء فى العالم يشفى أوام نفسه الحائمة، ويطفئ غليل صدره الهائج.

الرب

لئن كان يعبدنى اليوم وهو مشتت الفكر موزع الفؤاد، فلسوف أهديه سبيل الرشاد بعد حين. والزارع يعلم حين يرى الشجرة قد أورقت أن سرعان ما تزدان غصونها بالأزهار والثمار.

إبليس

هل تراهننى على أن هذا العبد سيأبق من طاعتك؟

لا أطلب منك إلا أن تأذن لى كى أجره برفق إلى طريقى وسنتى.

الرب

لا أمنعك عن هذا ما دام على قيد الحياة.

إن المرء قد تزل به القدم حين يجد فى السعى.

إبليس

لك الشكر على هذا والحمد. فأنا لا أحب الموتى ولم يكن لى فيهم يوما ما أى مأرب. وأحب إلىّ تلك الوجوه الناضرة التى يتدفق منها ماء الحياة. أما رمم الموتى فلا أصلح لها ولا تصلح لى. وأنا فى هذا أشبه الهرة التى تأنف أن تأكل الفأرة ميتة وتأبى إلا أن تصيدها حية.

الرب

لا ضير ! إنى منحتك سؤلك وخليت بينك وبينه. حاول إن استطعت أن تحول تلك الروح عن ينبوعها الأسمى[1]، واجذبها إن قدرت إلى حضيضك، ثم لتقف ذليلا صاغرا حين يضطرك فشلك وعجزك إلى الاعتراف بأن الرجل الصالح - مهما أظلمت بصيرته - لا يلبث أن يهتدى إلى السبيل الأرشد والطريق الأقوم.

---

(١) يقصد غوتيه بالينبوع الأسمى الله. ولعل فى هذه الجملة وما يليها المحور الذى يدور عليه الكتاب.

إبليس

حسن جدا! إن هذا الأمر لن يدوم طويلا. ولست أخشى أن أخسر الرهان. ومتى أدركت غايتى فائذن لى بأن أسر وأفتخر بما أحرزت من النصر.

ولسوف يأكل التراب بلذة وشهية كما تفعل الحية الشهيرة، التى تجمعنى وإياها أواصر القرابة[١].

الرب

إن أدركت غايتك. فافعل ما تشاء.

إننى ما كرهت يوما ما من كان مثلك. ومن بين تلك الأرواح التى دأبها الإنكار والكفران أرى أقلها ثقلا على نفسى ذلك المازح الساخر[٢].

إنى رأيت الإنسان سرعان ما تخمد همته وتفتر عزيمته ويخلد إلى الدعة والراحة، ولهذا أرسلت وراءه قرينا يستفزه ويستثيره، ولا ينفك يعمل ويدأب كعادة الشياطين.

(للملائكة) وأنتم أيها الأبناء الحقيقيون للآلهة. أنعموا ماشئتم بهذا الحسن الغزير والجمال الرائع الأبدى.

ولتحطكم روح البركة والنماء، التى ما تزال تخلق وتنتج بسياج بديع من الحب.

وأما هذه الظواهر الزائلة التى تبدو لكم فلتستنبطوا منها الحقائق الثابتة والأفكار الخالدة[٣].

(تغلق السماء ويتفرق الملائكة ويبقى إبليس)

---

(١) تجمع إبليس والحية أواصر القرابة لأنها هى التى ضللت حواء وآدم. وقوله إنها تأكل التراب إشارة إلى ما جاء فى سفر التكوين، الإصحاح الثالث (١٤): «فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك».

(٢) الأرواح التى دأبها الإنكار هى الشياطين. وكان غوتيه يمثل إبليس بأنه الشيطان الذى يجمع إلى الإنكار والكفران (Yerneinung) شيئا من المجون والفكاهة والسخرية.

(٣) أى أن الظواهر كلها زائلة. وإنما الأبدى الدائم هو الأفكار الكامنة وراء تلك الظواهر.

إبليس

يحلو لي أن أرى المولى القديم من حين إلى حين. وسأبقى دائما حذرا، كي لا يحدث بيننا خصام.

ولعمري أنه لجميل جدا من سيد عظيم أن يتحدث إلى الشيطان نفسه بمثل هذا الأسلوب البشري.

فاوســـت

الجزء الأول من المأساة

(١)

فى الليل

فاوست جالس على كرسيه أمام مكتبه قلقا فى غرفة ضيقة مرتفعة السقف

فاوست

أجهدت نفسى فى دراسة الفلسفة والشريعة والطب. وتعمقت أيضا – ويا للحسرة!– فى دراسة علوم الدين[1]، بجد لا يعتوره فتـــور، وهـمة لا تعرف الكـــلال. ثم أرانى - أنا البليد المسكين - بعد هذا كله لم أتقدم شبرا ولم أخط نحو العرفان خطوة.

سميت الأستاذ والدكتور. وقضيت زهاء عشر سنوات وسط تلاميذى أخادعهم وأغرر بهم وأذهب بهم ذات اليمين وذات الشمال. ثم أرانا بعد هذا كله لم نزل عاجزين عن أن ندرك أمرا أو أن نلم بشىء. لا ريب أن احترقت مهجتى أسى وكمدا على تعب ضائع وعناء لم يكّن تحته من طائل.

---

(١) يتحسر فاوست على تعمقه فى دراسة علوم الدين (Theologie) لأن هذا سلبه راحة الإيمان. وسيعود إلى ذكر هذا فى نهاية المنظر.

لا أنكر أنى بت أكثر ذكاء من سائر الحمقى؛ كالدكاترة والأساتذة والفقهاء والقسيسين فلست ممن يملأ قلبه الوساوس والأوهام. ولا يزعجنى ذكر الجحيم والأبالسة والشياطين. بيد أن هذه المنزلة التى بلغتها هى التى جرَّت على الويلَ والشقاء وسلبتنى كل سرور وصفاء. فأصبحت وما تعلمت شيئا نافعا، ولا حصلت علما أفيد به تلاميذى وأصلح به بنى الإنسان وأرشدهم به إلى سبل الخير. وقد صرت إلى ما أنا فيه من الفاقة، بحيث لا مال لى ولا نشب، ولا جاها أحرزت ولا سعادة. إن هذا العيش لما تعافه الكلاب لعمرى وتأباه!

لهذا قد انصرفت إلى ممارسة السحر! لعلى بمخاطبة الأرواح، وبما لها من الصولة والقوة، أحيط علما بكثير من الأسرار، وأصبح فى غنى عن إجهاد نفسى هذا الإجهاد المر، فى ذكر أمور أجهلها الجهل كله. فأغدو وقد أدركت أى شىء خفى يمسك هذا العالم بعضه إلى بعض، وأبصرت جميع القوى المؤثرة، والجراثيم المنتشرة، بدلا من أن أبقى هنا أتشدق بالألفاظ الجوفاء، وأهرف بما لا أعرف.

أيها البدر المنير! ليت هذه آخر مرة ترانى فيها أعانى هذا الألم المبرح! لقد طالما جلست إلى هذا المكتب أرعاك فى منتصف ليال عديدة! ولكم أثرت لى أيها الصديق الحزين صحائفى وكتبى!

آه ليتنى كنت فوق قمم الجبال، أمشى مستضيئا بنورك المحبوب؛ ثم أسبح مع الأرواح حول الكهوف والغيران، طائرا وسط نورك اللطيف فوق المراعى والمروج! فأطرح عنى ما أكسبتنى هذه العلوم من ألم وعذاب، وأطهر نفسى بقطرات الندى المتساقطة من ضيائك!

ويلى! ألا أزال حليف هذا السجن؟ أسيرا فى غرفة رطبة لعينة لا يدخل إليها إلا القليل من نور الشمس المحبوب. يحجبه عنها كل هذا الزجاج الملون. ويملؤها إلى سقفها كثبان من الأسفار سلطت عليها الأرضة. وقد امتلأت أرجاؤها بالأنابيب والزجاجات والصناديق ومختلف الآلات.

بل وبما خلفه الآباء والأجداد من أثاث عتيق حقير!

هذه هى دنياك التى تعيش وسطها! فتبا لها من دنيا!

وبعد هذا كله تتساءل : لماذا يضيق صدرك وينقبض فؤادك؟ ولماذا تحس دائما ألما خفيا مبهما قد نغص عليك العيش وسلبك لذة الحياة؟ وكيف لا وأنت ثاو وسط هذا الدخان والطين، تحيط بك هذه العظام البالية، بدلا من أن تكون وسط الطبيعة الحية، التى خلقها الله لينعم بها الإنسان؟

فالهرب الهرب من هذه البؤرة. ولتنطلق فى فسيح الأرض! وحسبك هذا الكتاب الثمين المملئ بالأسرار الذى سطرته بنان (نصطر أداموس)[1] رفيقًا ودليلاً يرشدك إلى مسرى النجوم ودورة الفلك. ولئن تلقيت العلم عن الطبيعة نفسها فسرعان ما تفيض نفسك قوة وهمة وتدرك كيف تتخاطب الأرواح وتتحدث. وهيهات أن تدرك فحوى هذه الرموز المقدسة[2] إن قضيت حياتك هنا فى تفكير جاف عقيم.

أيتها الأرواح! إنك تسبحين حولى! أجيبينى إن كنت تسمعين صوتى!

(يفتح الكتاب فيقع بصره على الطلسم المسمى بطلسم العالم)

أى طرب وأية نشوة يسريان فجأة فى جوارحى ومشاعرى حين أنظر إلى هذا الرسم؟ إنى أحس الشباب والحياة. والسعادة القدسية تتقد وتلتهب فى لحمى ودمى.

أكان ربا قادرا هذا الذى خط هذه الطلاسم التى سكنت ما فى أعماق صدرى من الغيظ والغضب، وملأت قلبى المنكود بالسرور. وبما لها من قوة خفية، وتأثير غامض مبهم، قد كشفت الغشاوة عن عينى فبت أشاهد قوى الطبيعة ماثلة أمامى.

---

(١) نصطر أداموس أو ميشل دى نوتردام Michel de Notre Dame من علماء الهيئة فى القرن السادس عشر وكان يعيش فى فرنسا. وله مؤلفات ظهرت فى أواسط ذلك القرن ملأها بالتنبؤات التى كان يعتقد صحتها الكثيرون من معاصريه.

(٢) الرموز المقدسة من الطلاسم الموجودة فى كتاب نصطر أداموس المزعوم.

هل أنا إله ؟

إن بصيرتى قد استنارت. أنظر إلى هذه الرسوم الجلية الواضحة فأرى بين يدى الطبيعة القادرة الفعالة، أحسها بجسدى وروحى.

الآن تحققت صحة ما قاله ذلك الحكيم: «إن عالم الأرواح ليس بمغلق الأبواب. ولكن صدرك قد أغلق، وعقلك قد جمد. فانهض أيها الطالب نشيطًا فرحا، واغسل هذا الصدر الأرضى بنور الفجر المشرق».

(يتأمل الطلسم)

عجبا! كيف انتظمت هذه الأجزاء جميعها، فكونت كلا منسقا، حياة كل جزء متممة لحياة الأجزاء الأخرى. ومرتبطة بها الارتباط كله. والرسل السماوية فى صعود ونزول دائمين. يناول بعضها بعضا أباريق الذهب، سابحة فى الفضاء، تنثر البركة ذات اليمين وذات الشمال. وتهبط من السماء إلى الأرض فتجعل من سائر الكائنات منظومة منسقة منضدة[1].

ما أجل هذا المنظر!! لكنه – وأسفاه – ليس إلا منظرا! وصورة تبدو لعينى! فمن لى بأن أبلغ أسبابك أيتها الطبيعة التى لا حد لها ولا نهاية؟ أين أنت أيتها الصدور؟ يا ينابيع الحياة التى تستقى منها السماء والأرض، التى يتلهف إليها كل صدر أحرقه الظمأ! إنك تفيضين وتروين. وأنا هنا أشتاقك لا سبيل إليك.

(يقلب صفحات الكتاب وهو متهيج متأثر فيقع بصره على الطلسم المسمى روح الأرض)

شتان بين تأثير هذه الصورة فى نفسى وتأثير الأولى!

---

(١) هذه صورة العالم الكبير (ماكروكوزموس) كما كان يصورها بعض الكتاب. وأكثر الشراح يرى أننا يجب ألا ننظر إليها بأنها صورة كاملة أو أنها تمثل معتقد غوتيه نفسه، وإنما تمثل ما يخطر لرجل كفاوست فى حالة النفسية هذه.

أى روح الأرض! إنك أقرب إلى وأدنى منى رحما. ها أنذا أشعر بأن قواى قد ازدادت، وجسمى سرت فيه الحمية. وأحس من البسالة والإقدام ما يدفع بى إلى خوض غمار الكون، فأنزل بالعالم الويل والثبور، أو أحمل إليه السعادة والنعيم. ومن القدرة والبأس ما أكافح به العواصف، وأقتحم الأمواج وهى ترغى وتزبد، وتحطم السفن، وتهلك الركب، دون أن أعرف للتردد والإحجام معنى.

أرى الضباب يتكاثف من حولى. كاد نور القمر أن يختفى. وهذا المصباح قد خبا نوره. ما لهذا البخار يتصاعد! وهذه الأشعة الحمراء قد أحاطت برأسى! كأن الرعب قد ملأ فضاء هذه الغرفة ثم انقض فاستحوذ على! إنى أشعر بك تسبح من حولى أيها الروح الذى ناجيته! والآن فاكشف عنك الحجب وابد لعينى. إنى أحس صدرى يتمزق! وجميع جوارحى قد ثارت، متشوقة إلى شعور جديد وإحساسات لا عهد لى بمثلها!

إنى أشعر بأن قلبى منجذب بأسره إليك. أيها الروح! لابد لى أن أراك ولو كان فى ذلك هلاكى.

(يمسك بالكتاب ويقرأ عزيمة الروح بشكل مبهم، فيندلع لهيب أحمر ويبدو روح الأرض[1] فى وسطه).

الروح

من يناديني ؟

فاوست

(مشيحا بوجهه) منظر ترتعد له الفرائص!

---

(١) نصح غوتيه لإحدى فرق التمثيل التى أرادت تمثيل «فاوست» أن يكون ظهور روح الأرض على شكل وجه هائل بحيث يملأ جميع فراغ المسرح

الروح

إنك دعوتنى بقوة، وجذبتنى ببأس وعزم، وقد أطلت الامتصاص والارتضاع من مناهلى. والآن!

فاوست

ويلى! لا أطيق رؤيتك!

الروح

عجبا لك! تتلهف وتتشوق للقائى وسماع صوتى ورؤية وجهى. وقد جذبنى إلى هنا نداء منبعث من روحك ملؤه القوة والبأس. فأتيت وهأنذا أمامك. أى رعب هائل قد استحوذ عليك يا من يزعم أنه فوق البشر؟ أين ذهب نداء تلك الروح؟ أين ذلك الصدر الذى استطاع أن يخلق بين جوانحه عالما يعتز به ويزهى؟ ذلك الصدر الذى كان يهتز سرورا وطربا وينتفخ بكبرياء طمعا فى محاكاتنا معشر الأرواح!

أين فاوست هذا الذى رن صدى صوته فى أذنى واندفع نحوى بكل ما أوتى من قوة؟ أهو أنت الذى لم يكد يلامسه نفسى المتصاعد حتى أخذت فرائصه تضطرب وبات كالدودة المنكمشة فرقا ورعبا؟

فاوست

أو أجبن أمامك أيتها الصورة من اللهب؟

أجل أنا هو! أنا فاوست؛ أنا نظيرك ومثيلك.

الروح

فى تيار الحياة المتدفق، وفى وسط عواصف العمل والسعى،

أنا أبدا أطفو هنا وهناك؛ وأسبح ذات اليمين وذات الشمال.

مولد وممات!

بحر خضم أبدى!

نسيج دائم التغير والتبدل،

حياة دائمة التوقد والالتهاب.

هكذا أشتغل بجد وبأس، على منوال الدهر الهائل،

لكى أنسج بيدى الثوب الحى للألوهية(١)

فاوست

أيها الروح الجمة مشاغله، الدائب السعى فى أنحاء العالم، إنى لأشعر أنى قريب منك، شديد الشبه بك.

الروح: إنك تشبه ذلك الروح الذى يدركه فكرك. أما أنا فشتان بينى وبينك

(يختفى)

فاوست: (وقد صعق)

لست شبيها بك. إذن فشبيه بمن؟

أنا الذى برئت على صورة الإله، ألا أشبهك أنت؟

(يطرق الباب)

أواه! أعرف هذا الطارق... إنه تلميذى.

الآن يجئ هذا الجلف الجاف فينغص على مناجاتى للأرواح، ويقضى على أبهى ساعات عمرى وأسعدها.

(يدخل واغنر بلباس النوم وفى يده مصباح فيلتفت إليه فاوست مغضبا)

---

(١) ليس بواضح تماما ما عناه غوتيه بروح الأرض. والدور الذى يلعبه فى العالم. وإنما نذكر أن غوتيه كان حلوليا. ولعله يقصد بالثوب الحى للألوهية جميع الكائنات التى هى بمثابة الثوب تحل فيه الألوهية وتتجلى.

واغنر

عفوا ومعذرة! سمعتك تنشد شيئا بفصاحة وبيان، فما شككت فى أنك تطالع مأساة إغريقية. وبودى أن أحصل القليل من هذا الفن، فله فى زماننا هذا شأن جليل.

وكثيرا ما سمعت الناس يقولون إنه خليق بالقسيس أن يتعلم فصاحة الإلقاء وإجادة الإنشاد من الممثلين.

فاوست

أجل! خصوصا إن كان القسيس نفسه ممثلا ماهرا كما هى الحال فى بعض الأحايين.

واغنر

إذا كان مقضيا على طالب العلم أن يلتزم قاعة درسه وألا يرى العالم حتى فى يوم عيد، اللهم إلا على بعد عظيم. ترى كيف يتاح لمثله إذن أن يعظ الناس ويهديهم؟

فاوست

لن تدرك هذه الغاية ما لم تكن الهداية قد ملأت قلبك، ففاضت بها روحك، فملكت قلوب سامعيك واستحوذت على مشاعرهم وكان لها عليهم سلطان لا يقاوم.

إنك تجلس وكل همك أن تلتقط الأجزاء المتناثرة فتلصق بعضها إلى بعض وتصنع طعاما من بقايا موائد الآخرين. ولا تزال تنفخ فى الرماد المتراكم حتى توقد نارا ضئيلة. مثل هذا الشىء قد يستثير إعجاب القردة والصبيان، إن كان هذا ما تتوق إليه نفسك، ولكن هيهات أن تستطيع تحريك القلوب وإثارة الوجدان ما لم تستمد القوة من قلبك ووجدانك.

واغنر

على أن حسن الإلقاء هو سر نجاح الخطيب. هذا أمر أحسه جيدا وإن كان بعيدا عنى البعد كله.

فاوست

أسلك بنفسك السبيل القويم. ولا تك مثل مضحكى القصور، كثيرة ضوضاؤهم، خاوية عقولهم. وأخلق بالمرء إذا أوتى عقلا وفطنة أن يبلغ ما يشتهى، من غير حاجة إلى التعمل والتكلف. ولعمرى لئن كان لديك أمر خطير تريد أن تقوله ففيم السعى وراء الألفاظ والعبارات؟ إن خطبكم الرنانة الخلابة التى تقدمون فيها للعالم سخافات مزوقة منمقة هى أشبه شىء بريح الخريف الباردة، يدوى صداها فى أوراق الشجر الجافة المتناثرة، دون أن يكون فيها ما يثير الهمة أو يوقد الحمية فى النفوس.

واغنر

أى رباه! ما أطول العلم، وما أقصر العمر! لطالما ملأت رأسى وصدرى المخاوف على تلك الأبحاث العلمية التى أكابد فى تحصيلها كل عناء، خشية أن توافى المرء منيته قبل أن يبلغ من العلم مأربه. ما كفى المرء أن يعانى الشدائد الجمة فى إحراز تلك الوسائل(١) التى لابد منها للوصول إلى الينبوع الأسنى. فلا يكاد يبلغ منتصف الطريق حتى يقضى المسكين نحبه.

فاوست

وهل تحسب الصحائف والأوراق هى الينبوع الأقدس الذى تكفى شربة منه لإطفاء الظمأ مدى الدهر؟ إن غليلك لن يشفى، وظمأك لن يروى، ما لم يفض الينبوع من صدرك، ويتفجر من أعماق نفسك.

واغنر

عفوا أيها الأستاذ! إنها لسعادة كبرى أن نقرأ كتب المتقدمين ونشاهد روح الأعصر الخالية ماثلة لأعيننا. فنطالع الآراء التى أدلى بها الحكماء فى مختلف الأزمنة. ثم كيف ارتقينا نحن بعد ذلك إلى أسمى المراتب.

فاوست: أجل لعمرى! لقد ارتقيتم حتى بلغتم السماء!

---

(١) يريد بالوسائل الكتب والأسفار التى لابد من مطالعتها قبل الوصول إلى مرتبة سامية فى العلم. وهنا يبدأ حوار بين الأستاذ وتلميذه عن أهمية الكتب وقيمتها.

إن الأعصر الخالية أيها الصديق كتاب مغلق عليه سبعة خواتم. وما تسميه أنت روح العصور السالفة ليس لعمرك سوى روحك أنت انطبعت فيها صورة لتلك العصور. صورة مشوهة محزنة، تألم العين من مجرد مرآها. لأنها ليست ويا للأسف سوى حثالة قذرة أو سقط متاع لا غناء فيه.

وإن أقصى ما تبلغونه من تصوير الأعصر القديمة، أن تأتونا بقصة خرافية ملأى بالحكم الجوفاء التى تصلح لأن يرددها الأطفال أو ترددها اللعب الخشبية التى يلعب بها فى الأسواق(١).

واغنر

لكن هنالك مسائل مهمة : كالعالم وقلب الإنسان وروحه. أشياء يود كل امرئ لو أدرك كنهها بعض الإدراك.

فاوست

أى ما تسمونه أنتم إدراكا!

ومن ذا الذى يجرؤ أن يسمى كل شيء باسمه الصحيح؟ إن القليلين الذين وفقوا لفهم أسرار الكون وبلغت بهم البلاهة أن باحوا بمكنونات صدورهم للعامة والغوغاء، كان جزاؤهم أن قتلوا أو صلبوا أو أحرقوا.

والآن أيها الصديق لقد مضى من الليل شطر كبير. ويجب أن نفترق.

واغنر

كان بودى أن أبقى ساهرا أحادثك هذا الحديث الممتلئ علما وحكمة. وعلى كل حال فغدا أول أيام عيد الفصح. ولعلك تأذن لى من حين لآخر أن أسألك ما ليس لى به

---

(١) فى القرن السابع عشر شاعت فى أوربا عادة تمثيل قطع مسرحية بواسطة لعب خشبية. تحمل كأنها تمثل حادثا سياسيا خطيرا وتفوه بألفاظ وحكم وخطب جوفاء.

علم. لقد أكببت على الدرس والتحصيل بجد وعزم، ولئن كنت قد علمت الشيء الكثير، فبودى لو أحطت بكل شيء علما.

(يخرج)

فاوست (وحده)

يا عجبا لهذا المخلوق! كيف لا تدركه السآمة ولا يصل إلى قلبه القنوط! أبدا يجد وراء كل ما هو رث بال فيتشبث بأهدابه، ولا يزال يحفر في الصخر باحثا عن الكنوز المدفونة. فإن لقى بعد الكد والعناء دودة حقيرة عدها فوزا وغنيمة. أكان يليق أن مثل هذا الصوت الآدمى يرن فى أرجاء هذه الغرفة التى تملؤها الأرواح؟

لكنى فى هذه المرة أشكرك وإن كنت أحقر من دب على أديم الثرى. فقد انتشلتنى من وهدة اليأس الأليم الذى كاد أن يذهب بلبى وحسى. إن هذا المشهد الهائل الذى شهدته قد تضاءلت أمامه نفسى وبت لا أرانى بجانبه سوى قزم حقير.

أنا الذى برئت على صورة الله. وغدوت أحسب نفسى قد ارتقيت حتى اقتربت من مرآة الحقيقة الأبدية. وبت أنعم وأمرح فى ضياء السموات اللامع وصفاءها الخاص. ولم أعد أحسب نفسى بشريا سليل الطين بل أصبحت أرانى ملكا بل أسمى من الملك، قادرا – بمحض قوتى وصولتى – على أن أسرى فى عروق الطبيعة سريان الدم. وأتمتع بحياة الآلهة بما لى من قدرة على الخلق والإبداع.

هكذا أسأت تقدير نفسى وهكذا حلّق بى الغرور. والآن وقد زالت سكرتى فأى حسرة نعرونى وأى كمد يحرق فؤادي! كلمة فاه بها ذلك الروح الهائل قد هوت بى إلى الحضيض، كأنما انقضت علىّ الصواعق.

* * *

أجل! ليس لى أن أقيس نفسى بك أيها الروح أو أن أدنو من مقامك.

أيها الروح الجليل! ما لى قدرت على مناداتك وعجزت عن استبقائك!

تلك اللحظة القدسية التى شاهدتك فيها أحسست نفسى حقيرا بمقارنتى بك، عظيما باقترابى منك. لقد دفعتنى عنك بغلظة وقسوة فهويت إلى الحضيض، حيث أشاطر بنى الإنسان عيشهم الأنكد، ومصيرهم الغامض المبهم.

أين لى من يرشدونى ويهدينى؟ وأنى لى أن أعرف ما آتى وما أتجنب؟ وهل نافعى أن أطيع ذلك الدافع وأجيب ذلك النداء؟[1].

يا ويلاه! إن المصائب والكوارث ليت وحدها العلئق الذى يعترضنا فى الحياة، بل إن أعمالنا وجهودنا نفسها كثيرا ما تكون حربا علينا.

إن المثل العليا التى تتصورها النفس سرعان ما يذهب بحسنها ما يغشاها من العناصر الغريبة.

ولقد يتاح لنا فى الحياة أن نصل إلى ما هو حسن فنرضى بما بلغنا ونحسب السعى وراء ما هو أحسن وهمًا باطلا وتعبًا ضائعا[2].

إن أسمى العواصف وأرقى المشاعر التى ترفع النفس وتعليها لا تلبث وسط عواصف الدهر المهلكة حتى تذوى وتذبل.

لقد كنت فيما مضى يسبح بى الخيال وتحلق طير آمالى فى سماء الأبدية؛ والآن أصبحت أجتزئ من ذلك كله بمكان صغير، بعد أن تحطمت سعادتى المرة بعد المرة، ما بين الأعاصير المدمرة، والزوابع المهلكة.

لقد ثوى الهم فى أعماق القلب، وهو هناك دائب يخلق للمرء آلامه الخفية. ولا يقر له قرار حتى يذهب بالسرور ويقضى على الراحة، متذرعا إلى ذلك بكل وسيلة، وسالكا لذلك كل سبيل. فتارة يجعل من دورنا ومنازلنا، ومن زوجنا وولدنا مثارا لأحزاننا، وطورا يثير آلامنا من خشية النار المتقدة أو السيل الجارف أو الخنجر المرهف أو السم الزعاف. وإننا لنرتعد فرقا من ضربات لن تقع علينا. ونبكى حسرة على شىء لن يضيع منا أبداً.

---

(١) إشارة إلى ممارسة السحر.

(٢) أى أن الحسن عدو الأحسن: فالمرء قد يستحسن شيئا كالمال مثلا. فينصرف إليه فيلهيه ذلك عن التفكير فيما هو أحسن.

أنا لا أشبه الآلهة! أعلم هذا الآن علم اليقين. إنما أشبه الدودة الحقيرة التى تزحف وسط التراب وتغتذى من التراب، حتى إذا داستها قدم عابر السبيل أوردتها حتفها وقبرتها في الثرى. ففى التراب محياها، وفى التراب مثواها.

ولعمرى أليس ترابا ما على هذه الرفاف العديدة من الأسفار التى ضاقت بها الغرفة وضاق بها صدرى. وليست سوى سقط متاع ومجموع سخافات لا طائل تحتها. عالم تمرح فيه العثاث وتضجر منه النفوس.

أهنا أبحث عن طلبى وأنشد ما يعوزنى؟ وماذا يجدينى أن أقرأ فى آلاف الكتب أن بنى الإنسان ما برحوا فى شقاء دائم فى كل زمان ومكان. وأنه وجد فى العالم من آن لآن رجل سعيد؟

وأنت أيتها الجمجمة! ما لك فاغرة فاك كأنما تضحكين منى؟ وهل تضحكين إلا لأن مخك مثل مخى قد دفعته الحيرة إلى البحث وراء النور. فألقى نفسه فى ظلام حالك، وجدَّ فى طلب الحقيقة ثم باء بالخسران والضلال. وأنت أيتها الآلات العديدة: إنك تسخرين منى ولا ريب! ما أكثر ما فيك من عجلات ودوائر وشكول منوعة غريبة. وكان أجدر بك، وقد وقفت لدى الباب الموصد، أن تكونى مفتاحا أستعين به على تبين ما وراء تلك الأبواب. لكنك عاجزة حتى عن فتح قفل واحد، برغم ما بك من دقة فى الصنع والتركيب. فيا للحسرة! إن الطبيعة ما برحت غامضة مظلمة حتى فى رابعة النهار! على وجهها نقاب كثيف لا تسمح للأيدى أن تلمسه. وهى إذا أبت أن تجود بشىء من دفائن سرها، فهيهات أن تسلبها إياه قسرا أو تأخذه عنوة.

وأنت أيتها الأمتعة التى لم تكن بى يوما حاجة إليها. ما أنت هنا إلا لأن أبى كان يستخدمك، وينتفع بك. وكان أخلق بى أن أبدد هذا التراث القليل تبديدا، بدلا من تركه هنا ليكون جرحًا فى صدرى، وقذى فى عينى. وما خير إرث خلفه الآباء والوارث فى غنى عنه!

* * *

أرى بصرى لا يتحول عن تلك الناحية! فهل لهذه الزجاجة الصغيرة قوة تجذب بها العيون؟ ولماذا أضاء فكرى واستنار فجأة كأنما طلع علىَّ البدر وأنا وسط غابة مظلمة فى ليلة حالكة؟

أحييك أيتها القارورة المنقطعة النظير! وأتناولك بكل حزمة وإجلال. وأمجد فيك ذكاء الإنسان وعلمه. لقد ثوى فى باطنك عصير الرقاد. رقاد الفرح والصفاء. أنت خلاصة العناصر المرقدة، قد تجمعت فيك قوى الموت الزؤام. لقد آن لك أن تسدى إلى مولاك[١] يدًا وتوليه جميلا.

أنظر إليك فتخف آلامى. وألمسك بيدى فيقل عنائى ونصبى. إن تيار الحياة المتدفق قد أخذ ماؤه بغيض. وكأنما يلقى بى فى بحر علوى. وكأنى أبصر صفحته اللجينية تلمع تحت قدمى! لقد طلع فجر يوم جديد، يجذبنى إلى ساحل عالم جديد.

لكأنى أرى مركبة تحلق بأجنحتها فى الفضاء ميممة نحوى. وأحس الآن كأنما أسلك سبيلا جديدة إلى حيث أخترق الأثير، إلى عوالم وأجرام ملؤها الجد والنشاط، إلى تلك الحياة العلوية والسعادة القدسية. فيا ويحك! هل يتسنى لك وما زلت دودة حقيرة أن تبلغ ذلك الشأو البعيد؟

أجل... لم يبق إلا أن تولى شمس هذا العالم ظهرك بعزم ثابت! لتكن لديك الجرأة على تحطيم تلك الأبواب التى يفرق من منظرها الجبناء. ويجزعون من اقتحامها. لقد آن لك أن تثبت بالفعل – لا بالقول – أن كرامة الإنسان لن تجبن عن التطلع إلى مقام الآلهة. وأنك لن ترتعد فرقا أمام ذلك الغار المظلم الذى يتصوره الوهم ممتلئا بالويل والعذاب. لتقتحم الطريق الذى يوصلك إليه ولو اعترضتك نيران الجحيم المتسعرة. إنها لخطوة هائلة وأخلق بك أن تخطوها بقلب طروب، وعزم لاينثنى. أجل ولو لم يكن من ورائها سوى العدم والفناء.

---

(١) أى فاوست نفسه الذى صنع ذلك السم بيديه ويفكر الآن فى الانتحار كوسيلة لنيل مأربه المبهمة.

فتعال الآن أيها القدح البلورى اللامع! لقد طال ثواؤك فى صندوقك العتيق. مرت السنون دون أن تخطر لى ببال. وكنت من قبل كثيرا ما تزين موائد الأجداد. تتناولك أنامل الشاربين فتحمل السرور والبشر إلى القلوب الحزينة والوجوه العابسة. إنى أسرح الطرف فيما عليك من النقوش والصور، فأذكر الشرب حين كانوا يحاولون وصفها بالأوزان والقوافى. ثم يحتسون ما بك من الشراب جرعة واحدة. إن هذا يثير ذكرى شبابى وليالى صباى. أما الليلة فإننى لن أناولك أيها القدح إلى سواى. ولن أحاول وصف ما عليك من الصور الجميلة. وسأملأك بهذا العصير الأقتم اللون، الذى سرعان ما يسكر منه المرء. شراب أعددته بيدى، واخترته وانتقيته، فلا أعدل به الليلة بديلا. وهاأنذا أتناول منه جرعتى الأخيرة بقلب هادئ ونفس مطمئنة.

ولتكن هذه الشربة تحية للصباح الذى أوشكت شمسه أن تشرق.

(يرفع الكأس إلى ثغره ثم يتوقف إذ يسمع دق النواقيس وأناشيد العيد)

غناء الملائكة

قـام المسـيح من الثـرى
ورقى إلى أوج السـمـاء
طوبى لهم فليـهنأوا
وليطمـئن بنو الفناء
من كـاد أن يودى بهم
مـا ورثوه من الشـقـاء
ومن الخطايا المهلكات
ودائها الداء العـيـاء

فاوست

أى شىء هذا الصوت الشجى وتلك النغمات الرنانة التى انتزعت الكأس من فمى بقوة لا تقهر؟ أترن هذه النواقيس إيذانا بحلول عيد الفصح؟ وهل قامت تلك الجماعات لتغنى هذه الأناشيد التى تحمل إلى القلب السلوان والسرور. والتى تغنت بها الملائكة من قبل لدى قبر جليل[1] فى جنيح ليل بهيم. فكانت إيذانا بعهد جديد.

نشيد النساء

نحن كفناه فى هذا الحرير
وغسلناه بمسك وعبير
وأنمناه على هذا السرير !
ثم بتنا لا نراه بيننا !   أنت يا رب قوى وقدير !

نشيد الملائكة

بعث المسيح من الثرى
فلينعم القلب الحزين !
طوبى لمن عانى البلاء
وقرحت منه الجفون
حتى انجلت عنه الكروب،
وأى خطب لا يهون.

(١) يقصد بالقبر قبر المسيح عليه السلام، وعيد الفصح كما هو معلوم عيد للنصارى يحتفلون فيه بذكرى قيام السيد المسيح من قبره - بعد استشهاده - ثم صعوده إلى السماء. وفى بعض الكنائس كانت تنشد الأناشيد على لسان الملائكة والنساء والحواريين. ويجب أن نتصور أن فاوست كان يسمع ترتيل هذه الأغانى فى كنيسة غير بعيدة.

فاوست

ماذا تبغين أيتها النغمات السماوية، التى جمعت بين الرقة والبأس، ماذا تبغين منى أنا حليف التراب؟ أولى لك أن يسمعك أناس لهم قلوب ترق وأفئدة تلين. أما أنا فقد طالما سمعت الرسالة ووعتها أذناى، ولكن يعوزنى التصديق. إن تلك المعجزات الرائعة هى وليدة الإيمان الراسخ[1]. وهى أعز بناته عليه.

أرانى الآن قد هدأ ثائرى ولم أعد قادرا على التطلع إلى تلك الأقطار العلوية التى يرن فيها صدى تلك الأنباء السارة. إن هذه الأناشيد التى ألفتها منذ الصبى قد ردتنى إلى الحياة ودفعت بى إلى هذا العالم.

إنى لأذكر أيامى الخالية حين كنت أجلس ليالى الآحاد فى هدوء وخشوع كأنما كانت تنصب على من السماء قبلات الحب العلوى. وكنت أجد فى دقات النواقيس نغمات ذات معنى دقيق، وفى تلاوة الصلوات لذة تفوق كل لذة.

وكثيرا ما كان يجيش بالنفس شوق لا أعرف له كنها يدفع بى إلى المروج والغابات، وهنالك كنت أصعد الزفرات وأسكب العبرات. حاسبا نفسى فى عالم جليلى ليس لغيرى به عهد. والآن أصغى إلى هذه الأناشيد العذبة فتثور فى نفسى ذكرى الشباب وكيف كنا نقضى عيد الربيع[2] فى لعب ومرح وصفاء لا يشوبه تكدير.

وهذه الذكرى تبعث فى قلبى حنينا إلى عهد الطفولة والصبى. فيحول هذا بينى وبين تلك الخطوة الجدية التى كدت أخطوها.

فأطربى روحى أيتها الأصوات الشجية، واملئى مسامعى بنغماتك العذبة! لقد أخذ الدمع ينهمل. وأرانى قد رجعت إلى هذا العالم.

---

(١) يقول فاوست : إن المعجزة بنت الإيمان، أى أنه متى كان الإيمان راسخا فى قلب سهل عليه تصور المعجزات والتسليم بها. والمعجزة التى يشير إليها هى بالطبع قيام المسيح من قبره. والأصل أن يقال إن الإيمان ابن المعجزة، أى أن المرء يؤمن بعد أن يراها، ولكن فاوست عكس المعنى.

(٢) أى عيد الفصح، لأنه يكون دائما فى أول الربيع.

نشيد الحواريين

قد سما المولى إلى أوج السماء !
وارتقى نحو العلا أى ارتقاء !
وبقينا نحن فى دار الفناء !
من أنصارك نبكى فرحًا لِعُلاه نِلْتهَا أىَ علاءَ

الملائكة

صعد المسيح إلى العلا
من بعد ما سكن الثرى
طوبى لكم قد آن للـ
أغلال أن تتكسرا !
سيروا وجدوا رافعين
لواه فى أعلى الذرا !
ولتنشروا علم الأخوة
والمحبة فى الورى !
يكن الرئيس لكم ظهيرا
منجدا ومؤزرا

(٢)

أمام باب المدينة[١]

الناس من سائر الطبقات يغدون ويروحون

جماعة من العمال

وما يدعونا للذهاب إلى هناك؟

جماعة أخرى

لنذهب كلنا إلى حانة «الصياد» !

الجماعة الأولى

أما نحن فميممون حانة «الطاحون»

عامل

وما رأيكم إن ذهبنا إلى حانة «النهر»

عامل ثان

أرى أن الطريق إليها لا يلائمنا.

عامل ثالث

(١) بعض الأوصاف المذكورة هنا منطبقة تماما على مدينة (فرانكفورت) حيث ولد غوتيه ونشأ.

وأنت ما تصنع الآن !

عامل رابع

سأحذو حذو الجميع.

عامل خامس

إذن أنصح لكم أن تذهبوا بنا إلى تلكم القرية. فهنالك نجد أطيب الصهباء ونغازل أجمل الفتيات. ومن أراد المشاكلة والمنازلة. فهنالك الضراب والقتال من أحسن طراز.

عامل آخر

يا لك من غر أحمق لا يبرح مولعا بالقتال والعراك. أما أنا فلا قرب الله بينى وبين ذلك المكان.

خادمة

كلا ! لابد لى أن أرجع إلى المدينة.

خادمة ثانية

يا بلهاء ! إنا من غير شك سنجده هناك تحت أشجار الحور.

الأولى

وماذا أستفيد من تلاقيكما؟ إنه سيأخذ بذراعك ويسير إلى جنبك ويرقص وإياك. فأى فائدة تعود على من سرورك بصديقك.

الثانية

أنا واثقة أنه اليوم لا يأتى وحده. وسيكون معه بلا ريب زميله ذو الشعر المجعد.

تلميذ (لصاحبه)

انظر ويحك إلى هاتين الفتاتين! كيف تجدان فى السير! أسرع ولنلحق بهما. ولا تذهب هذه الفرصة من يدنا! أحب شىء فى العالم إلى الجعة المرة، والتبغ الحامى، والغادة الحسناء عليها الحلى والحلل.

فتاة من بنات المدينة (لصاحبتها)

انظرى! أين يذهب هذان الفتيان المليحان ! أليس من العار أن يتركا كرائم الفتيات، ويجريا خلف هاتين الخادمتين.

تلميذ ثان (للأول)

ويلك لا تسرع! وانظر وراءك تر هاتين الحوريتين، عليهما أجمل ثياب وزينة. إن إحداهما جارة لنا، وقلبى فى هواها مدلَّه متيم. فهلم بنا إليهما! إنهما تسيران الهوينا فى حشمة وكمال ودلال. لكنهما رغم هذا ستسمحان لنا أن نصاحبهما.

التلميذ الأول

لا يا أخى! أنا لا أحب من يتجنى على ويتدلل. فاترك هاتين، وأسرع بنا قبل أن يفلت الصيد من يدنا. ولا تحتقر الخادمات، فإن اليد التى تمسك المكنسة فى يوم السبت هى أكثر صلاحا للتقبيل فى يوم الأحد.

رجل من أعيان المدينة

لا! لست راضيا عن العمدة الجديد، الذى ما ازداد فى منصبه الحديث إلا عتوا وتكبرا. وماذا جنت المدينة على يديه، وهذه حالها تسوء يوما بعد يوم؟ ناهيكم بكثرة الضرائب والاستبداد بالناس.

سائل (مغنيا)

حـيـيـتـم من سـادة أكـابـر

وسـيـدات ذات حـسـن باهر !

عـلـيـكـم أبـهـى الحـلـى والحـلـل
وفى مــحــيــاكم أرى نور الأمل !
هلا نظرتم لى بعــين الشــفــقــة
فــهــزكم فــقــرى لبــذل صــدقــه
لا تتــركــونى عــبــثــا أغنى !
يــا حـــبـــذا الغنى حـــين يغنى !
من يبــذل المــال يعش ســعــيــدا
ممتــعــا مـــســودا مــجــيــدا
وافاكم العيد السعيد ! فانعموا،
وأنعـمـوا كى يسـتـفـيـد المعـدم

رجل ثان من الأعيان

أحب شيء إلى فى أيام الآحاد والأعياد أن أتحدث عن الحرب الدائرة فى بلاد الترك، بعيدا عن ديارنا وأوطاننا. هناك تزهق النفوس وتتطاير الرؤوس، وهنا أجلس مطلا من نافذة الحانة، فأحتسى قدحا من الصهباء، وأرى الزوارق تغدو فى النهر وتروح. ثم أعود إلى دارى فى المساء، فأرى السلم ضاربا أطنابه والسكون يشمل كل شيء. فأحمد الله على أن متعنا بالسلام ، ووقانا غائلة الحروب.

ثالث من أهل المدينة

صدقت أيها الجار، وهذا هو رأيى الذى أراه. دع العالم يناطح ويكافح، ويتضارب ويتحارب، وينقلب رأسا على عقب، ما دامت أحوالنا المنزلية تجرى فى مجراها القديم.

عجوز ساحرة

ياما أُحيلى هاتين الغزالتين، وعليها أحسن الحلى والحلل! أى قلب لا يتقيد فى سلاسل هذا الحسن. رويدا كل هذا الكبر والخيلاء. فأنا أعلم ما تريدان وما تنشدان، وسوف أبلغكما قصدكما وأهديكما السبيل.

الفتاة الأولى (لصاحبتها)

يا أغاثا! تعالى أسرعى بنا فإنى أخشى أن يرانا الناس ومعنا هذه العجوز، وإن كانت بسحرها العجيب قد أرتنى وجه محبوبى فى ليلة القديس أندريا[1] فكان كأنه ماثل أمامى.

الفتاة الثانية

أما أنا فأرتنيه فى قطعة من البلور، جنديًا مليحًا وسط جمع من رفقائه، وقد بحثت عنه فى كل مكان فلم أهتد إليه.

جنود (يغنون)

أسد الشرى لا نفزع! منا الحمام يروع
فلنا الرماح الشرع ولنا الأسنة تلمع

* * *

كم قد هزمنا عسكرا فارتد منحل العرى
من كل ما فوق الثرى يدنو لنا المتمنع،

* * *

(١) هى ليلة ٢٩ نوفمبر. ومن مزاعم العامة فى بعض ممالك أوربا أنه يتاح فى تلك الليلة لكل فتاة أن ترى وجه الرجل الذى سيكون حبيبها.

أى المعاقل لم تدن   أى الشدائد لم تلن
ولنا عزائم لم تهن   منها الجبال تصدع

* * *

ولنحن فى يوم الغزل   هدف لطعنات المقل
وعزيزنا للحب ذل   لسواه لسنا نخضع

* * *

(يدخل فاوست وواغنر)

فاوست

أقبل الربيع ببهائه وصفائه، وانجاب الجليد عن الجداول والأنهار، وأعشب الوادى، وأخصب المرعى. والشتاء قد أدركه الضعف والهرم فتراجع إلى قمم الجبال حيث يرسل لنا من آن لآن شؤبوبا من البرد فينثره فوق الحقول.

لكن سرعان ما تزول آثاره، لأن الشمس لا تترك جليدا إلا أذابته.

وقد سرت الحياة إلى كل جسم. فحيث سرت لا ترى إلا نباتا ينمو، وشجرا يخضر، وغصنا يورق. وإذا كانت الزهور لم تظهر بعد للعيون، فقد استعاضت عنها الطبيعة بهذه الجماهير من الناس عليهم أحاسن الثياب وغرائب الألوان.

قف فوق هذا المكان المرتفع ! وانظر وراءك إلى المدينة، تر الناس خارجين من بابها المظلم الضخم زمرا شتى وأفواجا إثر أفواج. وكلهم مفعم قلبه بالسرور، يحتفلون باليوم الذى بعث فيه المسيح من مثواه. وهم لعمرى كذلك ينشرون اليوم من قبورهم، من غرفهم الرطبة ومنازلهم الضئيلة. ومن القيود والأغلال التى تقيدهم بها أعمالهم وحرفهم. ومن تلك الأزقة الضيقة ذات الجدران العالية والسقوف المرفوعة التى تنقبض

لمرآها الصدور. ومن بين تلك الكنائس القاتمة الحالكة. من وسط هذا كله قد خرجوا اليوم لينعموا بالنور والضياء والشمس والهواء. فلا يكادون يخرجون من الباب حتى يتدفقوا إلى الحقول وينتشروا فى البساتين.

انظر كيف تشق الزوارق عباب النهر طولا وعرضا! وهذا الزورق الأخير يكاد أن يغرق لكثرة من فيه. وإن تلك الجبال القاصية قد لبست كذلك حللا ذات رونق وبهجة.

والآن أسمع صيحات الطرب التى يرددها أهل تلك القرية برغم بعدها عنا. فاليوم يوم نعيم مقيم لأبناء الشعب جميعا. فكبيرهم وصغيرهم فى طرب دائم وصفو لا يخالطه كدر. هنا أحسب نفسى من بنى الإنسان. وهنا يجمل بى أكون من بنى الإنسان.

واغنر

إن كل خطوة أخطوها وإياك أيها الأستاذ وكل لحظة أقضيها فى صحبتك شرف وفوز ومغنم. على أنى ما كنت لأخرج وحدى فى مثل هذا اليوم. لأنى أنفى من كل ما يفعله أولئك الغوغاء. وأكره غناءهم وصياحهم، ولهوهم ولعبهم. وما أراهم فى رقصهم الكريه إلا كمن يتخبطه الشيطان من المس. وهم يسمون كل هذا سرورا وطربا.

* * *

(فلاحون تحت شجرة يرقصون وينشدون)

أسرع الراعى إلى المرقص فى أحسن حلة،
وهناك الجمع يلهو، تحت دوح قد أظله
بين رقص وغناء، وصياح وطرب.
ترلالا ، ترليلا!
ترلالا ، ترلا !
يصدح القيثار والناى، وقد زاد اللجب

* * *

أقبل الراعي إليهم، فرأى إحدى الغواني.
دفع الغادة بالمرفق من غير تواني.
فانثنت نحو فتانا، في دلال وغضب.
ترلالا ، ترليلا !
ترلالا ، ترلا !
«يا فتى ويك ! أما فيك حياء أو أدب؟»

* * *

ثم مالت نحوه ميلاً ، وقد زال الجفاء.
وسط جمع كلهم حلف سرور وصفاء.
ملكتهم نشوة اللهو، وقد زال الوقار.
ترلالا ، ترليلا !
ترلالا ، ترلا !
قد حلا اللهو، ولذ الرقص، وانحل العذار.

* * *

وفتانا سار بالغادة في ركن أمين.
وأحاط الخصر بالساعد، في رفق ولين.
لم يزل حتى أجابت، ما تمنى وأثابت.
ترلالا ، ترليلا !
ترلالا ، ترلا !
ما أحيلى ساعة الحب إذا طالت وطابت!

فلاح مسن (مخاطبا فاوست)

والله إنه لكرم منك أيها الأستاذ، أن تتنازل فتخرج فى مثل هذا اليوم وتسير وسط هذا المزدحم من الناس، يحف بك الجلال، ويتلألأ على ناصيتك تاج العلم. فهل تتناول مرة أخرى، فتقبل منا هذه الكأس التى ملأناها بأحسن الصهباء. ولتكن هذه الراح راوية للظمأ باعثة للفرح، تطيل فى عمرك من السنين بقدر ما فيها من القطرات.

فاوست

أخذ الكأس مسرورا وأشربها شاكرا. (يلتف حوله الناس)

الفلاح المسن

لعمرى إنه لجميل أن نراك وسطنا فى هذا اليوم السعيد. ولقد والله كنت معنا كذلك فى أيام المحنة. وكم من رجل فى هذا المجتمع قد انتشله والدك من مخالب المنون. ودفع عنه عادية الوباء. حين نزل الطاعون بالأرض وأخذ يفتك بنا الفتك الذريع. وأنت إذ ذاك فتى يافع. فكنت تعود المرضى وتأسو داءهم وتخفف بلاءهم. ولقد قضى الكثير نحبه فى تلك الأيام العصيبة. لكنك خرجت والحمد لله من وسط المهالك لم يمسسك سوء. لأن الله معين ومنقذ لمن ينصر الضعفاء العاجزين.

الجميع

متعك الله بالصحة أيها السيد. وأبقاك للضعفاء نصيراً ومعيناً.

فاوست

أحنوا رؤوسكم خضوعا وخشية بين يدى المولى القدير الذى يلهمنا كيف نتعاون والذى نستمد منه المعونة (يتمشى هو وواغنر)

واغنر

ليت شعرى أى سرور تحسه أيها الرجل الخطير حين ترى إجلال الناس لك وتكريمهم إياك. وسعيد لعمرى من أناله علمه ومواهبه تلك المنزلة السامية. ألم تر كيف كانوا يشيرون

إليك بالبنان. وقد أحدقوا بك إحداق السوار. وكيف رغب اللاعب عن اللعب، والراقص عن الرقص. وانقطع الغناء وهدأت الضوضاء ووقف الناس صفا صفا مطأطئى رءوسهم، يكادون أن يخروا أمامك راكعين، كأنما أبصروا الخبز المقدس[1].

فاوست

سر بنا نحو هذا الحجر، حتى نأخذ قسطنا من الراحة.

كثيرا ما كنت أجلس فى هذا المكان، بعيدا عن العالم، أمعن فى التأمل والتفكير، وأرهق النفس بالدعاء والصلاة والصيام. ولى إذ ذاك أمل وطيد وإيمان راسخ أنى بهذا الابتهال والتضرع، والبكاء والخشوع، أستطيع أن أستعطف إله السموات وأحمله على أن يرفع عن الناس ذلك الوباء. والآن أسمع هتاف هذه الجماهير فيرن فى مسمعى كأوجع اللوم والتأنيب. وليتك تستطيع أن تقرأ ما فى أعماق نفسى. إذن لرأيت أن الوالد والولد لا يستحقان من هذا الثناء شيئا.

كان أبى رجلا شريف النفس، كثير الإطراق، لا ينفك دائبا فى التفكير فى الطبيعة وفى حظائرها القدسية. بجد لا يعرف الونى وإخلاص لا تشوبه شائبة. فكان ينزوى فى معمله الأسود المظلم. ومعه زمرة من خيرة تابعيه وطلبته. فيصبون العقاقير المتنافرة بعضها فوق بعض، بمقتضى تعاليم وقوانين يخطئها العد. يتناولون الأسد الأحمر[2] – ذلك العاشق الملتهب – فيزوجونه عصير الزنبقة البيضاء[2] الفاترة الطبع. ولا يزالون ينقلونهما معا من دار عرس إلى دار عـرس ومن لهيب مستعر إلى لهيب أشد منه، حتى إذا رأوا فى الأنبوبة بعد كل هذا النصب والعناء ما يسمونه بالملكة الصغيرة[2]

---

(١) الخبز المقدس الذى يمثــل جسد السيد المسيح فى عرف النصارى يحمـل فى المواكـب الدينية الكبرى فى البلاد الكاثوليكية ، فإذا رآه المتدينون ركعوا.

(٢) الأسد الأحمر فى لغة الكيميا القديمة هو مادة الذهب. والزنبقة البيضاء مادة الفضة. وتزويجهما أى مزجهما فى الأنبوبة التى تكون بمثابة دار العرس. فإذا نجحت العملية وحدث التفاعل المطلوب نشأ من اتحاد المادتين ما يسمونه بالملكة الصغيرة، التى كانت تعد شفاء من كل داء ووسيلة لتحويل المعادن الحقيرة إلى معدن الذهب.

ذات الألوان البديعة كان ذاك هو البلسم الشافى والعلاج الناجع. فإذا الناس تزهق أرواحهم. ولا يسأل سائل إن كان الدواء يشفى أم يقتل!

فكنا بأدويتنا الجهنمية أشد فتكا بسكان هذه البلاد من الوباء والطاعون. ولكم ناولت بيمينى الدواء للعليلين فكنت أرى أجسامهم تنحل وتذبل حتى توارى فى جوف الثرى. والآن قدر لى أن أعيش. حتى أسمع الناس يصبون على القتلة الفجار أطيب المدح والثناء

واغنر

إنى لأعجب كيف يحزنك هذا الأمر! أما كفى الرجل الشهم أن يمارس علم الأوائل بإخلاص قلب، محافظا على قوانين العلم حريصا عليها؟

ولئن كان مثلك فى أيام صباه يجل والده أى إجلال، فيتلقى منه سور العلم والحكمة، حتى إذا كبرت رفعت لواء العلم وأعليت صرحه، فلا جرم إذا جاء ابنك من بعدك فبلغ فيه الغاية التى ليس وراءها غاية.

فاوست

سعيد لعمرى من يكون ذا أمل فى النجاة، وهو غارق فى بحر من الضلال، يغشاه موج من فوقه موج. إن المرء ليجهل تلك الأمور التى هو فى أشد الحاجة إليها. أما الذى يعلمه حق العلم فهو مالا حاجة به إليه. على أنى لا أريد أن أكدر صفاء هذه الساعة الجميلة بالتفكير فى مثل هذه الأمور الأليمة.

انظر إلى الشمس الآن ساعة الشفق وقد كست أشعتها المروج والدور! إنها تؤذن بالرواح. وقد تصرم عمر النهار. وهى تجرى إلى الغرب مجدة فى السير كى تضئ عالما آخر. وتشرق على ربوع غير هذه الربوع. فمن لى بجناحى طائر ذى بأس وقوة! فأرقى فى الجو وأسرع العدو وراء الغزالة. ثم أنظر تحت قدمى فأرى العالم ساكتا صامتا. ينيره الشفق الأبدى. وأرى أعالى الجبال تلمع وتتوهج والأودية هادئة مطمئنة. وأشاهد الجداول تسيل كأنها اللجين مسكويا فوقه النضار. هنالك تعجز الأطواد

الشامخة عن أن تعوق مسراى الذى يشبه مسرى الآلهة. ولقد يبدو لعينى البحر الزخار المترامى الأطراف وقد لمعت فوقه أشعة الشمس الغاربة ثم أبصر ربة السماء وقد أوشكت أن تغيب عن عينى، فأنتهب وراءها الخطى وأجد خلفها المسير لأروى ظمأ نفسى من نورها الأبدى. وما أجل ذلك الموقف وما أبهاه : النهار قدامى، والليل خلفى، ومن تحتى الماء، ومن فوقى السماء.

حلم ما أعذبه وما أبهاه، وما أبعده منى وما أقصاه! فواحزنى أن ليس للجسم كما للروح أجنحة يحلق بها فى جو السماء. على أن فى طبع المرء طموحا دائما يدفعه إلى العلياء وإلى الأمام. وكيف لا وهذه العنادل من فوقنا ترتل أناشيدها الشجية، وهذى النسور تسبح فوق أطواد يكسوها دوح الصنوبر. وتلك الكراكى ما برحت تحلق فوق السهول وتخترق البحار باحثة عن وكرها وموطنها.

واغنر

لقد تعبث بفكرى الأحلام حينا بعد حين. لكن مثل هذا الحلم لم يخطر لى الدهر ببال. فإنى سرعان ما يعترينى الملل حين أدمن النظر إلى الغياض والمروج. وما أرانى حسدت طير السماء يوما. أو تمنيت أن يكون لى أجنحتها وطيرانها. وشتان بين مثل هذا السرور وبين النشوة التى يحسها المرء حين يطالع مختلف الأسفار مقلبا الصفحة أثر الصفحة. مثل هذا يجعل ليالى الشتاء حلوة جميلة. ويبعث الروح والحياة فى كل جارحة من الجوارح. وناهيك إذا حللت فى العلم معضلة أو اهتديت إلى سر جديد. فهنالك تنزل إليك السموات السبع وتصبح كلها بين يديك.

فاوست

انصرفت نفسك إلى لذة واحدة فليهنئك أنك لا تعرف الأخرى! أما أنا فيسكن جسدى روحان، مشاربهما متباينة. وتحاول كل واحدة أن تبين عن الأخرى: الأولى دنيوية دنيَّة، تلتصق بأديم هذا الثرى وتتعلق بأهداب هذا العالم. والأخرى طماحة طامعة، تندفع محلقة فى السماء صاعدة إلى مسرى النجوم.

فياليت الأرواح السابحة فى الهواء بين الأرض والسماء تهبط إلى فتنتشلنى من وهدتى؛ وترقى بى إلى أقطار جديدة ذات ألوان بديعة. وياليت لى الآن «بساط سليمان» فأطير به فى السماء وأسمو به إلى الكواكب. إذن لحرصت عليه أى حرص ولا عدلت به ملء الأرض ذهبا.

واغنر

أستحلفك! لا تستصرخ تلك الأرواح الشيطانية التى تملأ الجو وتسد الفضاء. أليست هى التى تبعث لنا من الشمال البرد القارس كاشرا لنا عن أنيابه الحادة وألسنته المندامة؟ ومن الشرق ترسل لنا رياحا جافة تمتص دماءنا وتضيق أنفاسنا؟ ومن الجنوب تسوق نحونا ريح الصحراء التى تشيب منا النواصى وتقرب منا الآجال. ومن الغرب تبعث لنا السيول الجارفة لكى تهلك لنا الحرث والنسل.

تلك الأرواح الخبيثة لا تنصت لقولنا إلا لتغرنا وتخدعنا. إن أطاعتنا فلكى تعد لنا النكبات وتكيد لنا فى الخفاء. وربما بدت لنا فى شكل ملائكة السماء، باسمة ضاحكة؛ وقلبها ملؤه الحقد والضغينة.

على أن وقت الرواح قد حان. وخيم الظلام وبرد لهواء، وأخذ الضباب ينتشر. وإنما يعرف المرء قيمة منزله ومأواه حين يدركه الظلام ويؤلمه البرد. ولكنى أراك قد أخذت منك الدهشة، واستولى عليك القلق، فأى شئ عراك؟ وما الذى أبصرت فى الشفق فسبب لك هذه الحيرة؟

فاوست

أترى ذلك الكلب الأسود الذى يثب ما بين الأشجار؟

واغنر

أجل أراه، وقد رأيته من قبل فلم ألاحظ ما يدعو للاهتمام بأمره.

فاوست

تأمله جيدا، أما تبصر فيه أمرا عجبا؟

واغنر

ما أرى إلا كلبا يقفو أثر صاحبه شأن الكلاب.

فاوست

انظر كيف يدور حولنا كالحلزون مقتربا فى كل دورة؛ وفى كل لحظة يدنو منا قليلا قليلا، وإن لم يخطئ ظنى فإنى أبصر على أثر هذا الكلب شعلات من النار تلهب.

واغنر

أنا لا أشاهد إلا كلبا أسود ولعلك خدعتك عيناك.

فاوست

يخيل لى أنه ينصب لنا الحبائل لكى يقتنصنا عاجلا.

واغنر

وأنا أراه يثب من حولنا خائفا مترددا كأنما أزعجه أن يرى غريبين وهو يبحث عن صاحبه.

فاوست

لقد ضاقت الحلقة، وهاهو قد دنا منا.

واغنر

أرأيت أنه كلب وليس بعفريت؟ ها هو يبصبص بذنبه ويقعى على رجليه وهذه كلها عادة الكلاب.

فاوست

تعال اقترب منا.

واغنر

انظر إليه تجده حيوانا أعجم كسائر الكلاب، إن سكت ولم تخاطبه وقف ساكتا ينظر إليك، وإن خاطبته نهض قائما على رجليه. وإن ألقيت له شيئا عدا فأتاك به، وإن رميت عصاك فى الماء سبح وراءها.

فاوست

صدق ظنك، إنى لا أجد فيه ما يدل على أنه عفريت، إن هو إلا كلب مدرب.

واغنر

الكلب إن أحسن تدريبه وتهذيبه صار للمرء رفيقا صالحا، فهو أهل لكل ما تبذله نحوه من العطف والعناية، لأنه تلميذ ذكى.

(يذهبان والكلب نحو المدينة)

(٣)

حجرة الدراسة

(يدخل فاوست ومعه الكلب)

فاوست

غادرت الحقول والوديان، وقد أرخى عليها الليل سدوله، وكستها الظلماء جلبابا حالكا.

إن الليل البهيم، بما له من جمال ساحر وبما فيه من أسرار غامضة، ليوقظ فينا روحا أرقى وإحساسا أشرف. فتهدأ فى القلب كل عاطفة ثائرة ويرقد كل شعور هائج مضطرب. وتتحرك فى القلب عاطفتان: حب المرء لبنى جنسه وحبه لخالقه.

الزم السكون أيها الكلب، ولا تكثر الجلبة والحركة، وماذا يجدينى أن تقف على العتبة تجمجم وتهمهم! تعال ارقد خلف هذا الوجاق. وسأحبوك خير وسادة لدى، فتنزل ضيفا مكرما رغم أنك صامت لا تحير كلاما. وسأبذل لك الرعاية التى تستحقها، جزاء لك على ما سليتنا اليوم بوثبك وعدوك ونحن بظاهر المدينة.

* * *

أرانى كلما عدت إلى غرفتى الضيقة وجلست مستنيرا بهذا المصباح امتلأ صدرى نورا وقلبى راحة وسرورا، ورجع إلى العقل والتدبر، وعادت زهرة الأمل فأينعت، وأخذت أدمن التفكير فى عجائب الحياة وأسرار السكون.

ويحك لا تزعجنى بصوتك. وهل يتلاءم صوت الدواب وتلك الخواطر المقدسة التى تجيش بها نفسى الآن؟ إنا ألفنا أن نرى الناس يعادون ما لا يفقهون، ويهزءون بكل طيب وجميل إذا قصرت أفهامهم عن إدراكه. فهل أنت أيها الكلب مثلهم؟

لكنى رغم كل مجهود أبذله ورغم ما فى نفسى من نية خالصة مخلصة. لا أرى صدرى يفيض بما يروى الظمأ ويشفى الغليل.

فواعجبى كيف غاض الينبوع بهذه السرعة دون أن يبل أوامى!

تلك كانت تجربتى فى الحياة المرة بعد المرة.

على أن هذا النقص قد يدفع بنا إلى التفكير فى سداده، فنطرق باب الأمور السماوية، ونطمح بأعيننا إلى الإلهامات العلوية. ثم نرى أن ليس فى العالم إلهام أو وحى أسمى وأجل مما فى الإنجيل.

وإنى لأشعر بشوق يدفعنى لأن أتناوله فأترجمه بدقة وإخلاص. فأنقله من لغته الأصلية إلى لغتنا الألمانية المحبوبة.

"يتناول الإنجيل ويفتحه"

أول مسطور فى هذا السفر هو ما يلى : «فى البدء كانت الكلمة» ، لأقف هنا فلا خير فى المضى قبل أن أستوعب هذه الجملة فهما! يستحيل أن تفى لفظة «الكلمة» بالمعنى المقصود، فلأ ترجمها بعبارة أحسن:

"فى البدء كان الفكر"

لأتدبر هذه الترجمة مرة ثانية خشية أن تزل بى القدم؛ هل الفكر هو الذى يخلق كل شىء ويدبر كل شىء؟ الأولى أن تكون الترجمة:

"فى البدء كانت القوة"

لكنى قبل أن يجف المداد عن هذه الجملة يخيل لى أنها قاصرة عن المعنى. الآن أرى الرأى الصواب، فقد جاء الروح لنجدتى:

"فى البدء كان الفعل[1]"

(مخاطبا الكلب)

إن كنا سنتقاسم هذه الغرفة أيها الكلب فدع الهرير!

أجل، كف عن العواء، فإنى لا أطيق جوار رفيق مثلك

يكثر من إزعاجي، ولابد لأحدنا أن يغادر هذه الغرفة،

وأمامك الباب مفتوح لتذهب أنى شئت،

وإن عز على أن أنتهك حرمة الضيافة،

لكن يا للعجب! أى مشهد هذا الذى أراه!

أفى الإمكان أن يحدث هذا! وهل حقيقة ما أبصره؟ أم خيال؟

إن الكلب قد نما جسمه وازداد فى الطول وفى العرض!

وأراه يعلو وينتفخ بقوة. وليس هذا بجثمان كلب.

فأى عفريت هذا الذى جئت به إلى دارى؟

لقد بات يحاكى فرس البحر ضخامة ودمامة، وصار يكشر عن أنيابه ويقلب عينين يتطاير منهما الشرار.

الآن عرفتك جد المعرفة. وإن خير سلاح لمحاربتكم ياسلالة جهنم هو خاتم سليمان.
عفاريت (فى الخارج) تنشد:

---

(١) يحاول فاوست ترجمة إنجيل يوحنا. والترجمة العربية المتداولة أولها: فى البدء كان الكلمة. ويرى بعض المترجمين أن اللفظ اليونانى الأصلى Logos غير قابل للترجمة ولهذا فهم يذكرونه كما هو.

رئيسنا محبوس مـعـذب منكوس
مرتبط مقيد في سجنه مصفد
لكنه سيخرج وسوف يأتي الفرج
لأنه كالثعلب يبصر ألف مهرب
فليقترب بعيدنا لعله يريدنا
قفوا بهذى الدائرة ولننتظر أوامره!

فاوست

أول ما يجب عمله تلقاء هذا الحيوان أن أتلو عزيمة العفاريت الأربعة[1]:

ليحترق ساكن النار: سمندر!

لينهزم عفريت الماء: أندينه!

ليختف عفريت الهواء: سيلفا!

وليحل الفناء بعفريت التراب: كوبولد!

أجل لعمرى! من جهل العناصر والقوى المخبوءة فيها، عجز عن مقاومة الجان، ولم يكن له عليهم من سلطان.

يا ساكن النار! التهب التهابا.

يا عفريت الماء! فلتنصب انصبابا.

يا عفريت الهواء! المع كالشهاب الساطع.

(١) أى التى تقابل العناصر الأربعة المعروفة: النار والماء والهواء والتراب.

ويا عفريت التراب! منك المعونة أبداً.

اقصر الآن.. وتقدم إلى الأمام!

لكن يا للعجب! ليس فى هذا الوحش أحد هؤلاء الأربعة.

وما زال مقعياً على رجليه فاغرا فى وجهى فاه! كأنى ما فعلت به شيئاً ولا أحدثت له ألما. فلأقرأن عليك عزائم أشد وقعا وأسرع فعلا.

لعلك أيها الرجيم. قد هربت من الجحيم؟

فانظر إلى هذه الإشارة[1]

التى يخر أمامها الشياطين: تلك الزمر السوداء: هيبة ووجلا.

ها قد انتفخ ووقف الشعر فى جسده

أيها اللعين! هل تبصر هذا وهل تفقه كنهه؟

هذا القديم الذى لم يخلق،

الذى لا يتفوه باسمه،

ملء السموات كلها،

الذى طعنوه وصلبوه[2].

أراه تراجع إلى وراء الموقد وانتفخ حتى بات يحاكى الفيل. وقد ملأ الفضاء كله، وكأنما يريد أن يستحيل سحابة أو بخارا فيتطاير ويتلاشى!

احذر ويلك أن تخرج من السقف، قع راكعًا عند قدمى مولاك.

(١) هنا يرسم فاوست إشارة الصليب.

(٢) هذا كله يراد به السيد المسيح.

أنا لا أهدد عبثاً. لقد أصابك شواظ من تلك النار المقدسة. وأسهل على أن أحرقك بها إحراقا. فلا تدعنى أبرز أسلحتى الهائلة!

(يخرج إبليس من بين الضباب فى زى طالب علم متجول[1] فيتلاشى الضباب).

إبليس

فيم هذه الضجة؟ هل فى قدرتى أن أخدمك أيها السيد؟

فاوست

أأنت يا طالب العلم كنت تسكن فى جوف ذلك الكلب؟

إن القصة لمطربة مضحكة.

إبليس

أحييك أيها الأستاذ العلامة، وإن كنت قد أتعبتنى بعزائمك حتى جعل العرق يتصبب من جسدى.

فاوست

خبرنى أولا عن اسمك.

إبليس

هذا لعمرك سؤال تافه؛ خصوصا من رجل يحتقر الألفاظ أى احتقار. ولا يأبه بالعرض؛ ويأبى إلا التعمق فى البحث وراء الجوهر[2].

---

(١) فى القرون الوسطى كان هنالك فريق من الطلبة يتنقلون من جامعة إلى أخرى ويرتزقون أثناء تجوالهم هذا.

(٢) هنا يتهكم إبليس ويسخر من فاوست لمحاولته ترجمة الجمل الأولى من إنجيل يوحنا بما لايؤديه اللفظ كما رأينا.

فاوست

لكنكم أيها السادة كثيرا ما تنم أسماؤكم عن حقيقة أمركم، فيظهر لنا جليا من أنتم حين يدعى الواحد منكم بإله الذباب؛ أو المخرب المدمر؛ أو الكذاب الأشر: أسماء تدل بوضوح على المسميات.

وعلى كل حال فقل لى من أنت.

إبليس

أنا جزء من تلك القوة، التى نيتها أبدا نية السوء وصنعها أبدا صنع الخير.

فاوست

ماذا عساك تقصد بهذه الألفاظ: أفصح ولا تلغز.

إبليس

أنا ذلك الروح الذى دأبه الإنكار والذى يعشق العدم والفناء. ويحق له هذا؛ لأن كل ما ينشأ فى العالم وينمو جدير به أن يفنى ويمحى. وكان أولى له لو لم يوجد ولم يشأ.

وما تسمونه أنتم الغى والضلال والمعصية والباطل. هذا كله هو عنصرى الخاص الذى أنتمى إليه.

فاوست

وكيف تزعم أنك جزء وأنا أراك أمامى كلا؟

إبليس

ما قلت لك إلا الحقيقة؛ أملاها على تواضعى.

إن الإنسان – ذلك العالم الصغير: عالم السخف والغرور – كثيرا ما يزعم أنه الكل فى الكل؛ أما أنا فلست غير جزء من ذلك الجزء الذى كان فى البدء هو كل شىء. أنا جزء من الظلماء التى تولد منها النور.

والنور هو ذلك الابن العاق الذى جاء يزاحم أمه فى العالم، وينازعها ملكها القديم.

ولكن هيهات أن يبلغ مأربه، مادام دأبه أن يتعلق بالأجسام فينيرها. ومادام وجوده مرتبطا بوجودها. ولا تراه العين إلا إذا انعكس على جسم من الأجسام. وسيجئ اليوم الذى تمحى فيه الأجسام وتنعدم الصور والأشكال؛ وهنالك تدول دولة النور، وتسود دولة الظلام.

فاوست

الآن فهمت الأعمال المجيدة التى أنت قائم بها. وإذ عجزت عن محو الكائنات «بالجملة» تريد أن تجعل باكورة أعمالك محو الأجزاء الصغيرة.

إبليس

وأصدقك الحديث أن ليس فى هذا ما يطفئ الغلة.

إن هذا العالم الضخم يقاوم الفناء بقدم ثابتة وعزم وطيد. وقد تقهقرت أمامه - بعد اللأى والعناء - منهزما لم أفز منه بطائل. ولقد سلطنا عليه العواصف والأمواج والزلازل والنيران، ومع هذا لم يزل البر والبحر فى أمن وسلام لم يمسسهما سوء.

أما تلك المخلوقات الحقيرة: سلالة الحيوان والإنسان، فقد نفدت فيها الحيل. ولكم أهلكت من نسلها وقبرت. فقام على أثرهم نسل جديد وسلالة تملأ السهل والجبل، حتى كدت أجن حزنا ويأسا. فى الهواء وفى الماء، فى البر وفى البحر، تتزايد الكائنات وتتكاثر، لا يعوقها حر ولا برد ولا رطوبة ولا جفاف. ولولا أنى حفظت لى النار مسكنا لما وجدت مكانا آوى إليه.

فاوست

أأنت تريد أن تحارب القوة الخالقة الأبدية؟ أأنت تريد أن تسلط على العالم أسلحتك الجهنمية لتمحو الوجود وتنشر العدم؟ الخيبة والفشل نصيبك، وأولى بك يا ابن الخراب أن تقلع عن هذا وتنشد أمرا سواه.

إبليس

حقيقة قد آن لنا أن نفكر فى شىء جديد. وسأباحثك فى هذا مرة أخرى. أما الآن فأذن لى فى الذهاب.

فاوست

عجيب منك أن تسألنى هذا السؤال وأنا ما رأيتك قبل الساعة. أليس لك الحق أن تذهب متى شئت وتعود متى أردت العودة؟ وأمامك الباب مفتوح والنافذة، وإن حلا لك الخروج من المدخنة فأنت المخير.

إبليس

أعترف لك أنى أريد الخروج لولا أنى يمنعنى ذاك الشكل الخماسى المرسوم[١] على عتبتك.

فاوست

ويلك يا ابن الأبالسة! هل أزعجك هذا المخمس؟ فكيف إذن تسنى لك الدخول وكيف انخدعت هذه الخديعة؟

إبليس

لو تأملت المخمس لرأيت جانبه القريب من الباب مفتوحا - إهمالا من الراسم - فمن تلك الناحية تيسر لى الدخول، والآن استحال على الخروج حتى يمحى هذا الرسم.

فاوست

غرائب الصدف - لعمرى - صيرتك سجينا فى يدى.

---

(١) هو شكل مما يستعمل فى السحر والشعوذة كشكل نجم ذى خمسة أركان، وكان يرسم على الأعتاب لكى يمنع الشياطين من دخول الحجرات.

إبليس

لم يستطع الكلب حين وثب إلى هذه الغرفة أن ينعم النظر فيما حوله. والآن بات الشيطان من جراء تلك الهفوة سجينا لا يستطيع الخلاص.

فاوست

لكن لم لا تخرج من النافذة؟

إبليس

قانون الجن والشياطين يقضى عليهم ألا يخرجوا إلا من حيث دخلوا؛ فنحن عند الدخول مخيرون وعند الخروج مسيرون مكرهون.

فاوست

إذن فللجحيم أيضا نظم وقوانين. وهذا لعمرى حسن. ولقد يتيسر إذن أن يعقد المرء وإياكم أيها السادة الأبالسة اتفاقا ومعاهدة.

إبليس

نحن قوم نفى بكل ما نعد لا ننقص ولا ننقض منه شيئا؛ ولكن الأمر يطول شرحه، وسنتخاطب فى هذا مرة أخرى. أما الآن فأسترحمك أن تفك أسرى.

فاوست

ابق لحظة لتقص على قصة صغيرة.

إبليس

دعنى الآن وسأعود إليك قريبا فتسألنى ما شئت.

فاوست

ما أرغمتك على المجىء إلى هذه الغرفة؛ بل أنت الذى وضعت رجلك فى الحبالة وأولى بمن احتبس الشيطان أن يحرص عليه فإنه قل أن يقع فى الشرك مرة ثانية.

إبليس

إن كان يحلو لك بقائى فلأبق فى صحبتك. على شرط أن أقضى الوقت فى إبداء ما لدى من الفنون.

فاوست

أنت حر فى هذا، ويلذ لى أن أرى ما لديك من الفنون على شرط أن يكون فيه تسلية وفكاهة.

إبليس

فى هذه الساعة القصيرة يا صديقى ستغنم حواسك من اللذة ما لم تبلغه طوال هذه السنين. وإن ما ستطربك به الأرواح اللطيفة من الأناشيد الشجية وتبديه لعينيك من الصور البديعة ليس بمجرد سحر تافه. وسترى أن لذته ليست قاصرة على ما تسمعه الأذن وتبصره العين، بل إن الأنف سيجد فيها متعته والفم لذته وشهوته واللمس نعيمه وسعادته.

وسترتجل الأرواح كل هذا ارتجالا من غير سابق استعداد.

ابتدئوا الآن

(الأرواح تنشد)(١):

(١) لابد من كلمة نفسر بها هذا النشيد ومغزاه! يعلم إبليس عن فاوست - ما لا يعلم فاوست عن نفسه - أنه فى حاجة لأن يترك غرفته المظمة ويخرج إلى العالم الفسيح فيرى السماء والماء والمروج والكروم والخمر والعشاق والغيد، وكل ما فى العالم من بواعث السرور. ولكى يثير فى نفسه رغبة شديدة ومبهمة لكل هذه الأشياء أخذ يسمعه هذا النشيد. وفيه يعرض لعينيه صورا متباعدة مفككة قليلة الارتباط بعضها ببعض، أشبه شيء بما يراه النائم فى الحلم. وقد أخذت فاوست فعلا سنة من النوم أثناء إصغائه للأنشودة التى سماها غوتيه المرقد. Einschläferungslied. هذا ما يحسن أن يذكره القارئ لكى يدرك السر فى أن الأبيات الآتية مبهمة المعنى والرابطة. والترجمة فى هذا ليست إلا صدى للأصل.

لتنجل الغياهب — ولتُرفَع السُّقوفُ
ولتنمح السحائب — فوجهها مخيفُ!
ولتظهر الزرقاء — ولتشرق الشموس
فملؤها بهاء — تصبو له النفوس!
أيا غيوم انقشعى — لا تبقَ منك باقية!
ويا كواكب المعى — وسط الليالى الداجيه
انظر لسكان السَّما — أبْدِعْ بذاك مَنْظَرا!
فى كفهم جميع ما — تشتاق أنفس الورى
يا ما أحَيْلاهم إذا — مَرُّوا على وجه الثرى
غُصَّ الفضاء من شذا — عبيرهم منتشرا.
كم أبصروا من عاشق — منهمكٍ فى حبه؛
فى الروض والحدائق — ينعم وسط صحبه.
أنظر إلى الأنهار، — أنظر إلى الأزهار
أنظر إلى الأشجار — أبْدع بذى الثمار!
عَناقِد تَدلت — من أفْرُعِ الكروم؛
بدائعٌ تجلت — تصْبى نُهى الحليم
انظر إلى الأعْناب — تسيل خمراً صافيه!
تسيل فى الهضاب — أنهار راح جارية.

حصباؤها من الدُّرَرْ وخالص الزبرجد
يميل فوقها الشجرْ بكل غصن أملد.
أبْدِع بذاك نَهْرا يسيل في المروج
ثم يصير بحراْ ذا منظر بهيج!
وسط جبال عَالِيَةْ يكسو رباها السُّنْدُس
فيها العيون الجارِيَةْ من الصفا تنْبجسُ
يا طير! هاكِ فاشربى من راحها وغردى!
ولتمرحى ولتطربى وسط جنان الخُلد!
وفى السماء حلِّقى نحو النجوم الزُّهر.
للغرب أو للمشرق: للشمس أو للقمر.
حتى توافى جُزُرا وسط البحار قائمة؛
يَا حُسْنَ هذا منظراً يَشْفِى النفوس الحائمة!
فيها الرياضُ الزاهرة فيها المروج الناضرة
فيها العيون الساحرة ذات الجفون الفاتره.
الحور فيها تمرَحُ ترقص أو تغرِّدُ
أو فى البحار تَسْبح أو فى السماء تَصْعدُ

* * *

إبليس

ها قد أخذته سنة من النوم. فمرحى مرحى يا زهرة شباب الشياطين. لقد أجدتم النشيد وأحسنتم الغناء حتى غشيه النعاس. وأنا مدين لكم من أجل هذه الأنشودة. أنت أعجز يا صديقى من أن تمسك الشيطان فلا يفلت منك. فلتبق غريقا فى سباتك، ولتعبث بفكرك الأحلام الحلوة وتتلاعب بك الأوهام.

لكن كيف أخرج من هنا وهذا الطلسم منقوش على عتبة الغرفة. لابد لى من فأرة تقرضه بأسنانها.

ولست بحاجة لأن أقرأ عزيمة طويلة فها أنا أسمع صوت فأرة وإخالها تسمع صوتى.

«إن زعيم الفئران وإمام الجرذان وعميد بنات عرس الذى يدين له الذباب والبق والقمل، يأمرك أن تحملى على هذه العتبة فتقرضى ذلك الطلسم وتمحيه.

ها أنت قد أتيت فأسرعى: لا تتركى من هذا الرسم أثرا. لم يبق إلا القليل. ها أنت قد انتهيت من عملك. وقضى الأمر.

وأنت يا فاوست طابت لك الأحلام حتى ألقاك بعد قليل.

(يخرج إبليس)

فاوست (مستيقظا)

هل أرانى خدعت مرة أخرى؟ أهكذا تختفى الأرواح بعد ظهورها. ولا يبقى سوى حلم كاذب خدعنى به الشيطان وذكرى كلب قد هرب منى.

(٤)

حجرة الدراسة

(يطرق الباب)

فاوست

ادخل!

من جاء يزيد فى كربى وتعذيبى ؟

إبليس

أنا

فاوست

ادخل!

إبليس

حتى تقولها مرة ثالثة.

فاوست

ادخل إذن

إبليس

يعجبنى منك هذا اللطف. وإخال أنى سأكون وإياك على وفاق ووئام. أردت أن أشرح صدرك وأطرد عنك الهموم، فجئتك فى زى السادة الأشراف، مرتديا حلة حمراء مزينة بالقصب، ذات أكمام من خالص الدمقس، وعلى قلنسوتى هذه الريشة، وفى خاصرتى هذا الخنجر الماضى الغرارين؛ والآن أسألك أن تتزين بهذا الزى وتتحلى بهذا الحلى، حتى تفك عنك هذه الأغلال وتنقشع عن سماء محياك هذه الغيوم، فتدرك حقيقة الحياة.

فاوست

إن مثل هذا الثوب ليزيدنى شعورا بآلام هذه الحياة الأرضية الضيقة المحدودة. ما أنا بالشاب الفتى فألهو وألعب؛ ولا بالشيخ الهرم فأقطع من الحياة كل رجاء. وكلما سألت الدهر منحة ومددت كفى أبتغى نوالا، كان الجواب الأبدى على سؤالى أن «يجب أن نحرم. يجب أن تحرم!». مثل هذا الرد الخشن الجاف هو كل ما طرق آذانى طوال هذه السنين.

وإنى لأستيقظ كل يوم فأكاد أتميز من الغيظ وأذرف الدمع كمدا وحسرة على أيام تذهب سراعا، دون أن تبلغنى من الدنيا قصدا أو تنيلنى أمنية واحدة.

ولو صور لى الوهم أن نجم سعدى قد بدا فما يلبث حتى تداهمه سحب الأحزان فتحجبه وأعود كما كنت فى ظلمات بعضها فوق بعض.

وترانى إذا جن الليل وذهب كل إلى فراشه يبتغى لنفسه الراحة، أويت إلى مضجعى فإذا هو كأنه من شوك القتاد. وإذا أنا أتلوى عليه كالملسوع وأتقلب كأنى راقد على الجمر. فإذا تجاسرت وأغمضت عينى لحظة أتتنى الأحلام المروعة التى يهلع لها الفؤاد، ويفزع منها القلب الجليد.

إن الإله الذى يسكن فى أعماق صدرى هو أقدر ما يكون على إثارة مشاعرى. مسيطر على قواى يسيرها كيف شاء. لكنه أعجز ما يكون عن التحكم فى العالم الخارجى لا حول له أمامه ولا قوة[1].

لا غرو - إذن - إن باتت الحياة عبئا على كاهلى وحرجا فى صدرى. وأمسيت والحمام ضالتى المنشودة، وشفاه قلبى الكليم.

إبليس

برغم هذا كله، فما الموت بمرغوب فيه ولا محبوب.

فاوست

أجل لعمرى! وسعيد جدا ذلك المحارب الذى يتجرع كأس المنون وسط أعلام النصر فيعقد الموت على جبينه إكليلا من الغار مخضبا بالدماء. وسعيد ذلك الفتى الذى قتل الليل ونفسه رقصا، ثم خر بين ذراعى غادته صريعا. ويا ليتنى ليلة أن رأيت ذاك الروح وتمثل جلاله أمام عينى داهمتنى المنية وفاضت نفسى بين يديه.

إبليس

على أنه فى تلك الليلة نفسها أراد أحد الناس الانتحار بالسم، ثم أبى أن يتجرع الكأس.

فاوست

أراك ولوعا بالتجسس.

---

(١) أى أن روحه قادرة على تعذيبه وتنغيص عيشه، بقدر عجزها عن تسخير العالم الخارجى لراحته وسعادته.

إبليس

أنا محيط بكثير من الأمور علما؛ وإن لم أكن عليما بكل شيء.

فاوست

لئن كانت تلك النغمات العذبة التى ألفتها من الصبى قد انتشلتنى من وهدة اليأس القاتل، بأن أعادت إلى خاطرى ذكرى أيام أسعد وعيش أرغد، فأيقظت كامن أشجانى، وحالت بينى وبين الموت الذى كنت أتمناه.

فالآن أصب اللعنة على كل شىء من شأنه أن يخدع الروح ويغرها بالزخارف والأباطيل لكى يلقى بها فى بؤرة هذه الحياة الملأى بالأحزان والهموم.

ألا لعنت تلك المثل العليا التى تقيد بها الروح نفسها.

وتبا لتلك الظواهر الخلابة الجذابة التى تملك منا الحواس.

وبعدا للأحلام المغررة التى تطمعنا فى الشهرة وفى خلود الذكر.

ألا لعن المال؛ تصبو لإحرازه النفس.

وبعداً للزوجة والأهل، وللبنين والبنات، وللخدم والحشم.

ألا لعن مامون – إله النضار – إذ يدفع بنا لاقتحام المهالك من أجل كنوزه؛ ثم يسلمنا إلى نعيم الكسل والبطالة، ويوسدنا الراحة والدعة.

ألا تبا للخندريس وإن كان فيها الشفاء.

وبعداً للعشق ووصال العاشقين.

ألا لعنت الآمال والأمانى. ولعن الإيمان الثابت.

واللعنة كل اللعنة على الصبر الجميل.

أرواح (غير ظاهرة)

ويك قد شوهت وجه الـــعالم الغض الجميل.
وغدا طرفك أعمى لا يرى قصد السبيل.
تزدرى ويلك هذا الـــكون ذا الشأن الجليل.
هاك أنهار عذاب فى نواحيه تسيل؛
فلماذا - ويك - لا يشفى لك اليوم غليل.

إبليس

هؤلاء هم الأحداث الصغار من قومى وعشيرتى، لهم من أصالة الرأى والحكمة ما للشيوخ المحنكين. وأراهم يريدون أن يجتذبوك إلى محاسن هذا العالم الفسيح. ويخرجوك من هذه البؤرة التى تقضى فيها أيامك فى وحدة تضجر النفس وتخمد جمرة الحوا.

والآن لا تدع هذه الكآبة تذهب بك كل مذهب فإنها كالأفعوان فاغرة فاها لتلتهمك وأنت على قيد الحياة.

إنك لو خرجت إلى العالم وجالست حتى الأسافل من الناس لاستشعرت لذة جديدة؛ ولأدركت أنك آدمى تعيش وسط الآمديين أمثالك. على أنى لا أريد أن ألقى بك بين سوقة الناس وعامتهم.

أنا لست من العظماء ذوى القوة والجبروت؛ لكنك إن أردت أن أصاحبك مصاحبة الظل وأسلك وإياك سبل الحياة، فإنى مستعد لأن أنصرف إلى خدمتك منذ الآن، فأكون لك فى الحياة رفيقًا رفيقًا، وإن شئت أكن لك خادما وعبداً رقيقًا.

فاوست

ويحك فما تطلب منى لقاء هذا كله؟

إبليس

أمامنا من الوقت متسع، فلنترك هذا إلى ما بعد.

فاوست

لا وأبيك فأنا أعلم أن الأبالسة أهل طمع وجشع، ولا يعملون عملا لوجه الله إن كان للناس فيه فائدة. فقل لى أى جزاء تريد منى تلقاء خدماتك تلك. فإن خادما مثلك خطر على الدار وصاحبها أى خطر.

إبليس

هاك ما أبتغيه منك:

مادمت فى هذا العالم فأنا أطوع لك من العصا، وأسرع إلى إجابة أمرك من البرق. وأعدى خلف ما تشتهيه من السهم، وأشد إخلاصا لك من يمينك. حتى إذا حان الحين وانتقلت إلى العالم الآخر، فهناك فلتطعنى كما كنت هنا أطيعك.

فاوست

لست أعبأ كثيرا بالعالم الآخر. فى هذه الأرض رى من ظمئى، وشبع من سغبى وشفاء لعلتى وغذاء لروحى. وهذه الشمس هى سراج حياتى، وهدايتى وسط الغياهب. فإن غاب هاتان عنى وحيل بينهما وبينى، فليحدث لى ما عساه أن يحدث، فإنى لا أبالى بعدهما بشىء. وما يهمنى أن أعلم إن كان فى العالم الثانى شقاء أو نعيم، وحب أم بغض، ورفعة أم ضعة.

إبليس

إن كان هذا رأيك فأبرم أمرك، وليتم بيننا التحالف. وعما قريب ترى من سحرى العجائب وتنعم بما لم تره العيون، وما لم يخطر لإنسان ببال.

فاوست

أأنت أيها الشيطان الحقير تمطر الهبات وتجزل العطايا؟ وأنى لمثلك أن يدرك ما يخطر للنفس البشرية حين تحلق فى السماء وترقى؟ وهل عندك إلا شراب لا يطفئ الظمأ وطعام لا يشبع من جوع؛ ومال كالزئبق لا تكاد تمسكه الكف حتى يزول ويختفى؛ أو لهو ولعب ليس وراءهما إلا الخسار والدمار؛ أو فتاة حبها رياء ووصلها نفاق، تضع رأسها على صدرى وعينها تنظر إلى جارى؛ أو شهرة ومجد هما كالشهاب الساقط يضئ لحظة ثم يخبو إلى الأبد؟

أتريد أن تخدعنى بتلك الثمار التى أدركها العطب قبل أن تمد الأيدى لاقتطافها. أم بتلك الأغصان التى ما أورقت حتى ذوت ولا أينعت حتى صوحت؟

إبليس

هيهات أن تزعجنى بمثل هذا الكلام.

حقيقة إنى قد أقدم لك مثل تلك الكنوز، لكن سيأتى وقت أيها الصديق فتنعم بطعام أشهى وألذ فى صفاء وراحة.

فاوست

لئن جاء اليوم الذى أرقد فيه على فراش الكسل والراحة، ولئن أصبحت بفضل مكرك وخداعك، وبحيلك وألاعيبك، أتوهم أنى فى رغد من العيش، أو خيل لى أنى غدوت من السعداء، فليكن ذلك اليوم آخر أيام عمرى.

وهذى مراهنة بينى وبينك.

إبليس

إذن اتفقنا.

فاوست

وأزيدك فوق ما قلته: إني لو مرت بي لحظة من الزمن وكانت من الحسن بحيث قلت لهما: إن «لا تبرحي فما أحلاك!»، فهنالك فلتهئ لي سلاسلك وأغلالك. هنالك أرحب بالموت؛ هنالك فلتندبني النوادب، وهنالك تنتهي خدماتك لي. وعندها فلتقف ساعة عمري وليخب سراج حياتي.

إبليس

تبصر فيما تقول فإني لن أنساه.

فاوست

ويحق لك ذلك. فإني لم أفه بكلمة عبثا. ومتى كان بيني وبين امرئ عهد فكلمتي تقيدني ووعدي يسترقني. سواء أكان العهد معك أم مع سواك.

إبليس

حسن. وسأشرع من هذه الساعة في القيام بما يجب علي من فروض الخدمة والطاعة.

على أني أسألك أن تخط لي سطرين يتضمنان ما تعاهدنا عليه.

فاوست

ويلك! أتريد أن يكون العهد الذي بيننا مكتوبا؟ أما سمعت في عمرك بوعد الرجل الحر، ووفاء المرء بالعهد؟ أما يكفي أن كلمة فهت بها ستقيدني أمامك ما حييت، وسأبقى في ربقتها مدى الدهر؟ فبينما الناس أحرار طليقون أكون أبدا أسير الوعد الذي وعدته.

على أنها قيود محبوبة إلى النفس وأسر يستعذبه الحر. سعيد من حمل الوفاء في صدره نقيا من كل شائبة، وضحى بكل ثمين في سبيل المحافظة على عهده.

أما العهود المسطورة على الأوراق فشبح مخيف تنفر منه النفس الصادقة، لأن الكتابة تسلب الكلمة روحها وسرها، فلا يبقى منها سوى الورق والمداد.

وماذا تبتغى منى أن أكتب لك أيها الشيطان الرجيم؟ وهل تريد أن أكتبه لك على الطروس أو أنقشه على الرق أو أحفره على الصخر؟

اختر ما يحلو لك.

إبليس

عجبى منك كيف غلوت فى الأمر وأخذت منك الحدة مأخذها. والمسألة هينة. أكتب على أى وريقة شئت. ومتى وصلت إلى النهاية فأمض العهد بقطرة من الدم.

فاوست

مادام هذا ما تشتهيه، فسأفعله على ما به من سخافة.

إبليس

الدم عصير عجيب لا يعدل عنه إلى غيره.

فاوست

لا يخطر ببالك أنى أنقض العهد الذى أبرمته وإياك، فإن كل ما لدى من حول ومن قوة موقوف على إنفاذ ما عاهدتك عليه.

ولقد مضى علىّ زمان كنت فيه كثير الطموح، لا أتطلع لما دون مرتبة الأرواح، حتى بدا لى ذلك الروح الجليل منذ ليال، فازدرانى وأرانى حقارة قدرى. ونظرت فإذا الطبيعة قد أوصدت أبوابها فى وجهى، وإذا خيط التفكير قد تقطع. ومن قبل كرمت نفسى العلم ونفرت منه.

والآن فلنخمد عواطفنا الثائرة المضطربة فى أعماق بحر من الشهوات، ولنكشف قناع السحر عن كل آية وأعجوبة لم تقع على مثلها العيون، ولنثب بقوة وسط أمواج

الدهر المتلاطمة، وتيار الحوادث المتدفق. وسيان عندى أن تعاقبت على الراحة والألم، والصحة والسقم، والنجاح والفشل، على شرط ألا يستقر لنا قرار، ولا نخلد إلى السكون.

إبليس

أطلق لنفسك العنان كما تشاء. فإن أردت أن تشرب من سائر اللذات حتى تروى، أو أردت أن تتذوقها على عجل، فلك الخيار. وعلى أن أنيلك ما تريد. فتمسك بأذيالى! وأخلع عنك برقع الحياء.

فاوست

ليس التمتع والتنعم هما بغيتى وضالتى. أريد أن ألقى بنفسى فى مرجل الدهر الهائج المضطرب. أريد أن أمارس النعيم المؤلم، والغيظ المنعش، والبغض الذى ملؤه الحب. والآن وقد بات صدرى حرا من ممارسة العلوم، فلن أحول بينه وبين الآلام مهما جلت. أريد أن أشرب بالكأس التى يشرب بها سائر الناس، وأن أرقى إلى أسمى غاية ثم أهبط إلى أعمق هوة. حتى يمتلئ صدرى بما يعانيه الناس من سعادة وشقاء، فلا تزال نفسى تكبر وتعظم حتى تحتوى نفوس الناس جميعا، ثم أرد الحوض التى قدر لهم أن يردوها.

إبليس

صدقنى، أنا الذى قضيت آلاف السنين أطعم من ذلك الصاب، إنه لا يوجد فى العالم رجل استطاع أن يسيغ الحزن غذاء والهموم شرابا. ولو قضى فى محاولة هذا العمر كله من المهد إلى اللحد. وثق بقولى إن هذا العالم البديع إنما هو ملك لإله واحد. فهو وحده يعيش وسط النور الأبدى. أما نحن - الشياطين - فقد ألقى بنا فى حنادس الظلماء. وأما أنت فيتعاقب عليك النور والظلام والسعادة والشقاء.

فاوست

ولكنى أريد.

إبليس

يا حبذا ما تريده لولا أننى أرى أمامنا عقبة هائلة: ذلك أن العمر قصير والقصد بعيد.

وقد يحسن بك أن تتلقى بضعة دروس. فالتمس لك شاعرا من الشعراء ولازمه ملازمة الظل، ودعه يسبح بك فى سماء الخيال[1]، فيحشو رأسك المبجل بسائر الصفات الكريمة والأخلاق النبيلة، ببسالة الأسد وخفة الظباء، ونخوة الإيطالى وثبات الجرمانى. دعه يعلمك كيف تجمع بين خبث النفس وكرم الطباع. وكيف تستطيع - ودم الشباب يغلى فى عروقك؛ وشهوات الصبا تجيش فى صدرك - أن تعشق عشقا هادئا مطابقا لقوانين ونظم موضوعة.

وأنا نفسى أود أن لو رأيت مثل هذا المعلم؛ إذن لأطلقت عليه اسم العالم الصغير.

فاوست

ومن أنا حتى أعجز عن إحراز ذلك التاج الجليل الذى تطمع إليه النفس وتشتاقه كل جارحة من جوارحى؟

إبليس

أنت كما أنت! حاول ما شئت أن تطول وتسمو. ضع على ناصيتك من الشعر المستعار آلاف الخصلات. وضع فى رجليك أحذية عالية، فلا وأبيك ما أنت بعد هذا كله إلا حيث كنت من قبل.

فاوست

إنى أحسن صدق ما تقول. وعبثا أحرزت سائر الكنوز التى أنتجها الفكر البشرى على مر السنين. ثم جلست بعد لأى أتأمل حالتى، فإذا أنا لا تفيض من نفسى قوة جديدة، ولا أرانى اقتربت قيد شعرة من الذات اللانهائية.

---

(١) هذه العبارة وما بعدها يقولها إبليس على سبيل التهكم.

إبليس

يا سيدى الطيب القلب إنك ترى الأشياء كما يراها سائر الناس. والواجب يقضى علينا أن نسلك مسلكا جديدا . قبل أن تتصرم لذات العمر ويفوت الأوان.

أليست لك يداك ورجلاك، ورأسك وبطنك. فلماذا لا تستخدمها جميعا فى التنعم والتمتع؟ وهل هذا ضائرك بشىء، ألا ترى أنه لو كان لى ستة من جياد الخيل لأصبحت قادرا على التصرف فى قواها كيف أشاء فأعدو بها حيث أريد كأن لى أربعا وعشرين ساقًا .

فلتنهض الآن ولتسارع إلى العالم! ودع كل هذا التفكير الذى لا يجدى. فلعمرك ما الرجل الذى يقضى عمره يفكر ويحسب إلا كالحيوان الأعجم، يدور فى دائرة ضيقة لا زرع فيها ولا عشب؛ ولو خرج عنها لحظة لرأى حوله الزروع الناضرة والمراعى الخصيبة.

فاوست

إذن فبماذا نبدأ؟

إبليس

أول شىء نعمله أن نغادر هذا المكان. يا عجبا لك كيف استطعت البقاء فى دار العذاب هذه؟ أى عيش هذا الذى تعيشه أنت وتلاميذك؛ وأى بلاء تعانونه فى هذه البؤرة؟ وكان الأخلق بك أن تترك هذه الأعمال العقيمة لرجل بليد غليظ القلب ممن يستطيعون لها احتمالا. وماذا يجديك أن تقضى عمرك تذرو الهشيم المرة بعد المرة. ومع هذا فإنك لا تقدر أن تبوح لتلاميذك بأجل وأسمى ماتعلم.

كأنى الآن أسمع صوت أحدهم قادما إلينا.

فاوست

أنا لا أطيق رؤية أحد.

إبليس

وما يصنع المسكين وقد طال به الانتظار؟ أولى بنا ألا نتركه يرجع بخفى حنين. أعطنى رداءك وقلنسوتك. إن التنكر بهذا الزى يلائمنى الملاءمة كلها.

(يلبس ثياب فاوست)

ولن يخوننى ذكائى فى مثل هذا الموقف. وحسبى أن أتكلم وإياه هنيهة ريثما تتأهب لرحلتنا الميمونة.

يخرج فاوست

إبليس (فى ثياب فاوست الطويلة)

احتقر العلم والعقل ما شئت؛ وهما أجل وأغلى ما يملكه البشر. ثم تعال فألق بنفسك بين مخالب الشيطان المضل ليخدعك بسحره وحيله! الآن قد أصبحت لى، بلا قيد ولا شرط.

إن القضاء قد منح هذا الرجل روحا طموحة: تسعى أبدا إلى الأمام وتشرئب أبدا إلى العلياء؛ ولشدة تسرعه وتطلعه إلى السماء قد عميت عينه عن رؤية ما على الأرض من لذات وخيرات.

والآن سأجره جرًا فى مسالك الحياة الوعرة، وأرضيه عن مطامعه الجسيمة بالحقير التافه. ولسوف يقتله الجوع وينهك قواه الظمأ؛ ثم يلتمس الطعام والشراب فيراهما على كثب منه، ويمد يديه فلا يستطيع لهما طلبا.

ولا نجاة لمثل هذا من الدمار. فلو لم يسلم نفسه إلى الشيطان لرأيناه بعد حين يسير إلى حتفه من تلقاء نفسه.

(يدخل تلميذ)

التلميذ

قصدت هذه البلدة منذ زمن قصير. وجئت وقلبى ملؤه الهيبة، لكى أتشرف برؤية ذلك الرجل العظيم الذى سارت بذكره الركبان، والذى يعظمه الجميع ويبجلونه.

إبليس

سرنى أدبك؛ على أنك لا ترى أمامك إلا رجلا مثله فى العالم كثير.

هل سبق لك أن ذهبت إلى معهد آخر؟

التلميذ

إنى ألتمس منك أن تعنى بأمر تعليمى. وقد أتيت ولى رغبة شديدة فى العلم ونشاط جم. ولدى من المال ما يكفى حاجتى. وقد غادرت أهلى ووطنى رغم معارضة أمى الشديدة، لعلى أحرز من المعارف ما يعلى قدر المرء ويرفع منزلته.

إبليس

إذن لقد وفقت إلى خير مكان.

التلميذ

أقول لك الحق. لقد حدثتنى نفسى بالرجوع؛ ولم يرق فى عينى منظر هذه الجدران، وتلك الحجرات القاتمة؛ والمكان كله محدود محصور؛ لا ترى فيه ماء ولا خضرة ولا نبتا ولا شجرا. وفى مثل هذه الغرف وبين تلك المقاعد يخمد الفكر ويعيا السمع والبصر.

إبليس

ستعتاد نفسك كل هذا. والطفل ينفر بادئ بدء من ثدى أمه، ثم متى ألفه وعرفه أكب عليه برغبة وشهوة. وأنت كذلك ستقبل على لبان الحكمة والعلم فترتضع منها ما فيه رى لظمئك وغذاء لروحك.

التلميذ

سأتمسك بأذيال العلم، وأقبل عليه فرحا مسرورًا. فقل لى كيف أصل إلى غايتى.

إبليس

قبل أن نتعمق فى الحديث أريد أن أسألك. هل اخترت الكلية التى تريد أن تلتحق بها؟

التلميذ

أريد أن أصبح فى مصاف رجال العلم، وأود أن أحيط بما فى الأرض وما فى السماء، وأن أدرك أسرار العلوم ومكنونات الطبيعة.

إبليس

إنك سائر فى أقوم طريق، فحذار أن تضيع وقتك سدى!

التلميذ

سأنهمك فى الدرس روحا وجسداً. بيد أنى لا أكتمك أنى لا أستطيع أن أستغنى عن قليل من اللهو والتسلية من آن لآن. ناهيك بأيام الصيف الجميلة.

إبليس

أحسن الانتفاع بالوقت فإنه سريع الذهاب. ونظم عملك حتى تتوفر لديك فسحة من الزمن. وإنى أنصحك أن تبدأ أولا بدراسة المنطق، حتى يمرن ذهنك وترتاض روحك وتحصر فكرك فى دائرة ضيقة وتقيده بسلاسل من الفولاذ؛ كى لا يكون طليقا حرا يسرح ويمرح حيث شاء.

وسيعلمك المنطق أن كثيراً من الحركات والأعمال البسيطة الهينة - التى نعملها فى كل حين ونظنها أمراً واحداً مثل الأكل والشرب - هى فى الحقيقة حركات معقدة لها أوائل وأواسط وأواخر؛ وأن الفكر عند اشتغاله يشبه آلة النسيج، تضرب بيمينك فى موضع منها فتتحرك آلاف الخيوط؛ ثم تضرب بيسارك فى موضع آخر فتتشبك الخيوط بعضها ببعض، وترتبط اللحمة بالسدى.

ويجىء الفيلسوف بعد هذا فيريك بالدليل القاطع أن سير المنسج يجب أن يكون على هذا النمط؛ وأنه لو لم يكن الأمر الثالث لما كان الرابع؛ وأن الثانى سبب وجود الثالث؛ وأنه لولا الأول لما كان الجميع.

مثل هذه المعلومات قد شغفت التلاميذ حبا، ولو أنها لم تزدهم بالنساجة علما.

وطريقة العلماء إذا أرادوا وصف جسم حى، أن ينتزعوا منه الروح، ثم يمسكوا أوصاله بأيديهم ويحدقوا فيها بأبصارهم؛ وقد ذهبت قيمتها بعد أن غادرتها تلك الجوهرة الغالية. وهم يسمون هذا «خصائص الطبيعة». وما يسخرون إلا بأنفسهم وهم لا يشعرون.

التلميذ

لم أستطع فهم عبارتك الأخيرة.

إبليس

لا بأس. فستعتاد فهم هذه الأمور، متى علمت كيف تفرق بين الأشياء ثم تعود فتجمعها بعضها إلى بعض.

التلميذ

لكن ما بال رأسى قد تشوش واضطرب كأنما تدور فى طاحون.

إبليس

أنصت إلى! أول ما يجب عليك عمله هو أن تدرس ما وراء الطبيعة؛ فبذلك تحصل من المعلومات العميقة ما يستحيل على الفكر البشرى إدراكه وفهمه. وسواء أفهمت الأمور أم لم تفهم؛ فتصبح لديك مجموعة قيمة من الألفاظ والأسماء.

ونصيحتى لك أن تواظب على درسك فى الأشهر الأولى. فاذكر أن ساعات الدراسة خمس. وبكر إلى الدرس ما استطعت التبكير. واحرص على قراءة درسك قبل أن تدخل حجرة التعليم، لترى أن الأستاذ لن يلقى إليك كلمة واحدة فير ما فى كتابك. وبرغم هذا يجب أن تكتب كل ما يلقى عليك حرفا بحرف، كأنك تتلقى درسك من الروح القدس.

التلميذ

سأحفظ نصيحتك هذه فى أعماق صدرى. وأنا أعلم أن كل ما يسطره المرء بالمداد الأسود على الصحائف البيضاء خير ذخر يقتنى.

إبليس

إذن فاختر لنفسك إحدى الكليات.

التلميذ

دراسة الحقوق لا تلائمنى.

إبليس

أمر لا تؤاخذ عليه. وأنا أعرف حالة ذلك العلم معرفة تامة. فما الشرائع والقوانين سوى أمراض مزمنة متوارثة تركها لنا آباؤنا وأجدادنا، وأسلمها السلف للخلف، فتنتقل عدواها من جيل إلى جيل ومن بلد إلى بلد؛ وبمضى الزمن تصبح حكمتها خرافة وصالحها خبيثا. والويل لنا ما دمنا أحفادا لأولئك الأجداد الذين أورثونا حقوقهم وقوانينهم، أما الحقوق التى تولد معنا حين نأتى إلى هذا العالم فضائعة لا يطالب بها أحد.

التلميذ

أرانى ازددت لها كرها بعد الذى سمعته منك؛ فيا سعادة من تكون له مرشدا وهاديا. فما قولك فى دراسة الفقه وعلوم الدين؟

إبليس

أريد ألا تضل السبيل. فهذا العلم صعب المسلك، وسرعان ما يضل فيه الطالب. وقد امتزج فيه الشهد والسم الزعاف امتزاجا يتعذر معه أن يميز المرء بين الدواء الشافى والسم القاتل.

وخير سبيل تسلكه فى هذا العلم هو أن تصغى بانتباه لكل ما يقوله الأستاذ ثم تردده لنفسك وتكرره أمام الناس؛ وفى كل المسائل: عويصها وسهلها، تمسك بالألفاظ، وتعلق بأهداب العبارات - فإنها أسلم منهاج يوصلك إلى كعبة الحق واليقين.

التلميذ

لكن لابد للكلام من معنى يؤديه.

إبليس

لا بأس. وإنما يجب على الإنسان ألا يفقد ثقته بنفسه. فكثيرا ما يعوز المعنى فتجد لديك من الألفاظ الحسان ما فيه الغناء. والألفاظ هى المحور الذى تدور عليه المحاورات؛ والسلاح الذى تفوز به فى مواقف الجدال. وباللفظ تبنى القواعد والمذاهب. فثق بأهمية الألفاظ، واحرص عليها الحرص كله.

التلميذ

سامحنى، إن ضايقتك بكثرة الأسئلة. هل تتكرم بأن تقول لى كلمة عن علم الطب! لقد سمعت أن مدة الدراسة ثلاث سنوات، ثم ذكرت أن بحر هذا العلم فسيح شاسع. فأخذتنى الدهشة. وحبذا لو بينت لى السبيل، وأوضحت لى أقوم طريق أتبعه.

إبليس (لنفسه)

حسبى. تكلمت حتى الآن بتلك اللهجة العقيمة. ولأرجع لأصلى وأتكلم كما يتكلم الأبالسة.

(بصوت عال) سهل عليك أن تفهم روح علم الطب وسره. بعد أن تدرس علوم الأوائل والأواخر وتفهم حقائق العالمين الأصغر والأكبر تترك الأمور على غاربها وتسلم كل شىء للقضاء والقدر. وعبثا تحاول أن تسبح فى بحار العلوم والفنون، فما يمكن للمرء أن يعلم إلا ما يستطيع أن يتعلم - وإنما رجل الدنيا من عرف كيف ينتهز الفرصة. وأنا أراك قوى البنية، كثير الجرأة، فإن قدرت أن تكون كثير الثقة والاعتداد بنفسك فستكسب كذلك ثقة الناس أجمع.

تعلم بنوع خاص كيف تسوس النساء، فإن عللهن وأوجاعهن - على كثرتها وتنوعها - تعالج كلها بطريقة واحدة. وحسبك أن تتصف بالشرف وكتمان الأسرار فيصبحن جميعا فى قبضة يدك.

لكن لابد لك من إحراز لقب فى العلم حتى يكون لهن من هذا دليل قاطع على تفوقك، ثم تصبح وقد أحرزت منهن ما عجز الآخرون عن إدراكه طوال السنين.

تعلم كيف تجس نبضهن الصغير؛ ملقيا عليهن نظرات يشتعل فيها لهيب الخبث والمكر؛ مطوقا خصرهن النحيل بذراعك لتعلم إن كان النطاق مشدودا ومجهدا لأجسامهن.

التلميذ

هذا لعمرى أحب إلى نفسى. وهنا أرى الغاية واضحة والطريق المؤدية إليها.

إبليس

إن النظريات كلها عتيقة بالية وأما شجرة الحياة فيانعة خضراء.

التلميذ

أقسم لك أنى من شدة السرور فى حلم.

فهل تسمح لى مرة أخرى أن أرجوك لتتفضل على بحكمة من حكمك الغالية ودرة من كنوزك؟

إبليس

لك منى ما أقدر عليه.

التلميذ

لا أستطيع أن أرجع أدراجى دون أن أقدم لك كناشتى هذه لتتفضل على بسطر تكتبه.

إبليس

عن طيب خاطر. (يكتب ويرد الكراسة).

التلميذ

(يقرأ بإعجاب)

Eritis sicut Deus, Scientes bonum et malum

ستبلغون مرتبة الآلهة وتميزون الطيب من الخبيث[١]

(يطوى الكراسة بإجلال وأدب ويخرج)

إبليس

تمسك بهذه النصيحة واتبع ما أشارت به خالتى الحية. وبرغم ما تزعم من اقترابك من مرتبة الآلهة؛ فلسوف ترتعد فرقا حين تسير فى تلك الطريق الوعرة.

(يدخل فاوست)

فاوست

أين نذهب الآن!

إبليس

حيث يحلو لك. نشاهد أولا العالم الأصغر ثم العالم الأكبر[٢] ولا تسل عما ستحسه من السرور وما تجنى من الفائدة.

(١) هذه العبارة التى أوصى إبليس بها التلميذ هى كذلك العبارة التى قالتها الحية لكى تغرى حواء على الأكل من الشجرة - راجع سفر التكوين - الإصحاح الثالث.

(٢) ذكر العالم الأصغر (ميكرو كوزموس) والأكبر (ماكرو كوزموس) كثيراً فى هذا الكتاب. والعالم الأصغر هو الإنسان فى مختلف أحواله وأطواره. ففى الجزء الأول من كتاب فاوست يقود إبليس فريسته؛ حيث يريه الناس وطباعهم ولذاتهم ونزعاتهم، وبهذا يريه العالم الأصغر: أما فى الجزء الثانى فيريه شيئًا من العالم الأكبر وهو الكون العظيم اللانهائى الذى لا يحده زمان ولا مكان.

فاوست

لكن ألا ترى أن لحيتى الطويلة لا يلائمها اللهو واللعب. وأكبر ظنى أنى لن ألاقى فى هذا السبيل أى توفيق. وأنا أجهل أساليب العالم الجهل كله. ولا أكاد أرانى بين أناس آخرين حتى تملكنى الحيرة والاضطراب، وتصغر نفسى فى عينى.

إبليس

يا صديقى كن ذا وثوق بنفسك تهن عليك كل هذه الشدائد.

فاوست

وكيف نخرج الآن من هنا؟ هل أعددت المركبة والجياد؟

إبليس

لا حاجة بنا إلى هذا. فأنا أبسط عباءتى ثم نمتطى صهوتها فتشق بنا الجو وتسبح بنا فى الهواء. والأفضل ألا تحمل معك أمتعة ثقيلة فتعوق طيراننا؛ وسأهيئ نسيما ناريا ليحملنا. فإن كنا خفافًا كان هذا أدعى إلى السرعة.

ولتهنأ وتنعم بحياتك الجديدة.

(٥)

حانة أورباخ فى لايبزغ[١]

جماعة من الشاربين

ضفدعة

ويلكم! ما لكم لا تشربون ولا تضحكون. وما لوجوهكم عابسة وجباهكم مقطبة! لقد خمدت نار حميتكم وصرتم كالحطب الرطب لا ترجى منكم فائدة.

براندر

أنت المقصر: لماذا لا تأتينا بنكتة من نكاتك السخيفة أو فصل من فصولك الباردة؟

ضفدعة

(يصب على رأسه خمرا) دونك ما تريد.

براندر

حقيقة إنك بارد جدا.

---

(١) هذه الحانة القديمة التى لم تزل موجودة إلى يومنا اكتسبت شهرة غير قليلة.

أولا : لأن فاوست كان يتردد عليها فى زعم كتاب القرون الوسطى الذين نقلوا إلينا قصته.

ثانيا : لأن غوتيه نفسه كان يكثر من ارتيادها وهو طالب فى جامعة لايبزغ وجماعة الشاربين المذكورين فى هذا الفصل هم كذلك من الطلبة.

ضفدعة

أنت الذى طلبت الفصل البارد.

سيبل

الطرد جـزاء من يعكـر صـفـو مـجلسنا بالمشـاحنة والمشـاكلة. هلمـوا فلنغن ولنشرب ولنصح بملء أفواهنا. آه يا ليل!

التماير

أسعفونى بقطعة قطن : فقد كاد الملعون يخرق طبلة أذنى بصياحه.

سيبل

ويحك إنى متى رن صـوتى فى أركان هذا المكان وملأ بصداه الآذان فهنالك تحس لذة الطرب وتذوق حلاوة الغناء.

ضفدعة

بلا ريب! ومن لم يعجبه هذا فليولنا ظهره. هيه يا ليل!

ألتماير

(صائحًا) هيه يا ليل!

ضفدعة

ما شاء الله! إن الحناجر منتظمة الأوتار.

(يغنى) يا لقومى عجبا ما لى أرى دولة (روما)

لم تزل فى يومنا هذا كما كانت قديما،

براندر

قبحا لك ولأنشودتك! أتعكر علينا سرورنا بأغنية سياسية كريهة! وما لك أنت وللسياسة؟ لو كنت تعقل لحمدت الله كل يوم على أن ليس لك فى دولة روما لا ناقة ولا جمل. أما أنا فأرى أن أكبر مغنم لى هو أنى لست بقيصر ولا وزير. وإن كان لابد لنا من رئيس فلننتخب من بيننا رجلا نسميه «شيخنا البابا». وأنتم تعلمون الصفات التى تؤهل الإنسان وترفعه لمثل هذا المنصب الجليل[1].

ضفدعة

(مغنيًا)

انطلق نحو الحمى يا عندليب

حاملا ألف سلامٍ للحبيب

سيبل

لا ترسل للمحبوبة أية تحية. فإنى لا أريد أن أسمع بمثل هذا.

ضفدعة

بل أرسل لها التحيات والقبل بالرغم منك!

(يغنى)

افتحى الخدر لصب مستهام

جاء كى يلقاك والقوم نيام

ثم يمضى حين ينجاب الظلام

(١) من عادة طلبة ألمانيا - أو كان من عاداتهم - الاجتماع للشرب فى نهاية السنة أو نصف السنة المكتبية؛ ومن شرب أكثر من غيره انتخبوه «بابا».

سيبل

تغن بها ما شئت وامدحها ما استطعت! وسيأتى وقت فأضحك منك وأسخر؛ ولا وأبيك لتخدعنك وتتلاعب بك كما خدعتنى من قبل. ولو كنت تعقل لأتحفتها بعفريت كالتيس الهرم، يقابلها عند ملتقى الطرق[1] أثناء عودته من نادى العفاريت فى بلوكسبرغ[2] فيلعب وإياها ألاعيبه الجهنمية ويصرخ فى وجهها ويثب من حولها؛ وهو يحييها تحية المساء.

أما من كان آدميا من لحم ودم، فأطيب من أن تكون له بها علاقة. والطرد من بيتى هو أحسن تحية تنتظرها منى.

براندر

(ضاربًا بيده على الخوان)

انتبهوا إلى جميعا! وارعونى أسماعكم؛ واعترفوا لى جميعا بالحذق والدراية. وفى وسطنا هنا أناس عشاق ويجب علينا قبل انصرافهم أن نحييهم تحية جميلة كما هى العادة والعرف، فاصغوا إلى وسأغنيكم أنشودة من أحسن طراز وأحدثه. ولتكرروا المصراع الأخير من بعدى.

(يغنى) سكنت فى مخزن المأكول فاره،

ذات مكر واحتيال وشطاره،

أكثرت فى البيت نهبا وإغاره.

لم تدع فيه من السمن آثاره

يا ذكى الفهم تكفيك الإشارة!

الكل (منشدين) يا ذكى الفهم تكفيك الإشارة!

---

(١) من الخرافات الشائعة أن العفاريت تقابل الناس عند تقاطع الطرق.

(٢) بلسكسبرغ هو أعلى جبال الهارتس Harz بألمانيا وهو ملتقى الشياطين فى عرف المعتقدين بالخرافات.

براندر مـرة - عـفـوا - رأتهـا الطاهيـه

وهـى فى لحس الأوانـى لاهيـــــه

قـالت : الآن اصبـرى يا جـانيـه

ســوف تصلين بنارى الحـامـيـه

حينما تأتيك من جـمـرى شـراره

يا ذكى الفـهم تكفـيك الإشـارة !

دست السم لهـــا وسط الدسم

وأتـت فـــــارتـنـا تجـــــرى ولـم

تـدر مـــا فى الغـــيب من هم وغم

إن حلـو العـــــيش تتلوه المراره

يا ذكى الفـهم تكفـيك الإشـاره

يا ذكى الفـهم تكفـيك الإشـاره

الكل براندر

خـــــست مـــــا فى الأوانى بنهم

وانثنت تصـــرخ من فـــرط الألم

أى حـــزن ؛ أى كـــرب ؛ أى هم !

باتت الفـــارة فى طى العـــدم

كل ربح ســـوف تتلوه الخـــساره

يا ذكى الفـهم تكفـيك الإشـاره

الكل يا ذكى الفـهم تكفـيك الإشـاره

سيبل

ما لهؤلاء الطغام يفرحون ويطربون كأن تسميم الفيران المساكين فن من أدق الفنون. وصناعة من أشرف الصناعات.

براندر

يظهر أن بينك وبين الفيران صداقة متينة.

ألتماير

ويك يا سمين البطن يا أصلع الرأس. كأن مصيبة الفيران قد أدخلت الرقة والحنان إلى قلبك. أتراك تنتصر للفيران لأنها تحاكيك فى الغلظة والثقل.

(يدخل فاوست وإبليس)

إبليس

أو ما يجب على أن آتى بك إلى مواضع اللهو، لترى كيف سهل على القوم أن يمرحوا ويفرحوا، كأن أيام دهرهم كلها أعياد وكأن السرور عليهم سرمد.

فقليل الفكاهة يسبب لهم الفرح الكثير. ومثلهم كمثل الهريرة التى تدور وتجرى وراء ذنبها لاهية لاعبة؛ وعلى شدة سرورها لا تعدو تلك الدائرة الضيقة التى تدور حولها. وكذلك هؤلاء القوم. فمادام الشراب لا يسبب لهم صداعا، وصاحب الحانة يسقيهم والدفع نسيئة، فهم فى سرور دائم وانبساط لا يشوبه انقباض!

براندر

أظنهما قادمين الساعة من السفر، لما يبدو عليهما من الدهشة والاستغراب.

ضفدعة

لعلك صادق فيما تقول. وإخالهما جاءا لرؤية (لايبزغ) تلك المدينة الجميلة التى تحاكى باريس حسنا وبهجة.

سيبل

ولكن من عساهما أن يكونا؟

ضفدعة

دعونى وإياهما! فبكأس واحدة أستدرجهما وأستخرج سرهما من صدرهما كما تستخرج ثنايا الأطفال. وأكبر ظنى أنهما من أسرة شريفة لما يبدو عليهما من الكبرياء والتبرم بالعالم.

براند

وأنا أظنهما مناديين فى الأسواق وأراهنكم!

ألتماير

ربما.

ضفدعة

انظروا الآن كيف أعبث بهما

إبليس

(لفاوست) ما رأى الناس يحسون وجود الشيطان ولو كان أقرب إليهم من حبل الوريد.

فاوست

حييتم أيها السادة.

سيبل

شكرًا لك على تحيتك.

(ثم يهمس مشيرا إلى إبليس): ما بال زميله الآخر يمشى مشية الأعرج[1]!

إبليس

أتسمحون لنا أن نجالسكم؟ إن فى مصاحبتكم عوضا للمرء عن كؤوس الصهباء الجيدة التى يستحيل أن نجدها الآن.

ألتماير

كأنك لترفك لا تجد لذة فى خمرتنا هذه.

ضفدعة

أخالك قد غادرت ريباخ[2] فى ساعة متأخرة، إذ اضطررت للتخلف قليلا لتتناول الطعام مع (يوحنا) المغفل.

إبليس

لقد مررنا به أثناء سفرنا اليوم، وتحادثنا معه مليا فما كان أشد شوقه إلى أقربائه وبنى عمه، وقد سألنا أن نبلغهم تحياته وأشواقه.

(ثم ينحنى أمام ضفدعة).

ألتماير

(همسًا) أرأيت أنه فهم؟

سيبل

الرجل ذو مكر وخبث.

---

(١) أصيب إبليس بالعرج فى زعمهم حينما سقط من السماء.

(٢) ريباخ بلدة بقرب لايبزغ؛ وهى آخر مرحلة فى طريق القادم على لايبزغ.

ضفدعة

انتظروا قليلا وسأتغلب عليه.

إبليس

إن لم أكن مخطئا فقد سمعناكم تنشدون أغانى جميلة. وهذه الدار يلائمها الغناء لأن الصدى يرن فيها من جانب لجانب.

ضفدعة

لعلك من النابغين فى الغناء.

إبليس

كلا! إن بضاعتى فيه قليلة لكن حبى له كثير.

ألتماير

أنشدنا بعض ما عندك.

إبليس

إن شئت كل ما عندى.

سيبل

لتكن أنشودتك جديدة ما دخلت أذنا قط.

إبليس

نحن قادمون الساعة من الأندلس بلاد الخمر والغناء.

(يغنى)

كان فيما مر سلطان خطير،

وله فى القصر برغوث كبير

ضفدعة

اسمعوا! برغوث! هل انتبهتم جميعا لقوله؟ مرحبا بالبرغوث من ضيف كريم.

إبليس

كان فيما مر سلطان خطير،
وله في القصر برغوث كبير.
كان يعلي في الورى من شأنه
ويراعي قدره مثل ابنه.
فدعا خياطه يوما لقصره
فأتى مستعجلاً طوعًا لأمره
قال: هيئ لي ثياب السندس
واكس برغوثي أبهى ملبس!

براندر

لا تنس أن تشدد على الخياط كي يحسن قياس الثياب على قامة البرغوث. والويل له إن كانت السراويل ضيقة أو كانت أزرار القميص مخالفة لأحدث طراز.

إبليس

(مغنيًا)

أصبح البرغوث في أحسن حال
ينثني عجبا ويمشي باختيال.
في ثياب من حرير وقصب

يلمع الدر عليـهـا والذهب.
في بلاط الملك أمسى كالأمير
مستجاب الأمر ذا شأن خطير.
بعد أن أحرز ما يرجو لنفسه
أرسل استدعى له أبناء جنسه
فأتى يجرى أبوه إثر أمه
وأخوه وحموه وابن عمه
ملأوا القصر على من كان فيه
وغدا منهم نبيل ووجيه؟
وأذاقوا أهله مر العذاب.
نغصوا الأكل عليهم والشراب.
أكثروا في جسمهم قرصا ولسعا
ورجال القصر خافوا الآن إن هم
قاوموهم غضب السلطان منهم
أيهم يقدر أن يفتح فاه
والبراغيث جميعا فى حماه؟

الكل: (منشدين)

أيهم يقدر أن يفتح فاه،
والبراغيث جميعا فى حماه؟

ضفدعة

مرحى! مرحى! لعمرى لقد أحسنت!

سيبل

هكذا فليكن حظ كل برغوث فى العالم

براندر

مدوا أصابعكم وأمسكوهم.

ألتماير

لتحى الحرية! ولتحى الخمر.

إبليس

وددت لو أنى أستطيع أن أشرب وإياكم كأسا تكريما للحرية، لولا أن خمرتكم ليست على ما يرام.

سيبل

لا نريد أن نسمع هذه العبارة مرة ثانية.

إبليس

لولا خشيتى أن يتألم صاحب الحانة لأتحفت هؤلاء الضيوف الكرام بهدية من الخمر المعتقة.

سيبل

ائت بها وأنا المسئول.

ضفدعة

أتحفنا بكأس مترعة تنل منا الشكر والثناء. ولا تأتنى وبالشيء القليل، لأنى إذا أريد منى أن أكون حكما فلابد لى أن أملأ فمى وبلعومى.

ألتماير

(همسا) صدق ظنى فهما تاجرا خمر من إقليم الرين.

إبليس

ائتونى بمثقب!

براندر

وما تصنع بالمثقب؟ هل تركت الدنان عند الباب؟

ألتماير

وراءك مخلاة لصاحب الحانة فيها كثير من الآلات.

إبليس

(لضفدعة) قل لى أى نوع من الخمر تريد.

ضفدعة

وهل لديك من كل نوع؟

إبليس

أترك لكم الخيار؛ وليطلب كل ما يشاء.

ألتماير

ويك يا ضفدعة لقد بدأت تلعق شفتيك!

ضفدعة

ما دمت تركت لى الخيار؛ فإنى أريد كأسا من نبيذ (الرين)، إذ أحب شىء إلىَّ هو ما ينبته الوطن المحبوب.

إبليس

(يقترب من ضفدعة ويثقب أمامه فى جانب المائدة ثقبا)

احضروا لى قليلا من الشمع لأصنع منه سدادات.

ألتماير

هذه هى الشعوذة بعينها.

إبليس

(مخاطبًا براندر) وأنت ماذا تشتهى؟

براندر

أنا أشتهى نبيذ (شامبانيا) بشرط أن يكون من خير ما عصر العاصرون.

(يثقب إبليس أمامه ثقبا ويسده بالشمع)

لا يمكن للإنسان أن يتباعد عن كل شىء أجنبى. فكثيرا ما تكون مشتهيات النفس فى بلاد بعيدة. والألمانى الصميم يستثقل كل رجل فرنسى. أما الخمرة الفرنسية فيشربها بشهوة.

سيبل

أما أنا فلا أحب الخمر المرة. ويجب أن تعطينى أطيب الخمرة وأحلاها.

إبليس

(يثقب فى المائدة ثقبا أمام سيبل) ستملأ كأسك بما تهواه نفسك.

ألتماير

مهلا أيها السيدان! حسبما لا تسخرا منا.

إبليس

ما يجرؤ أحد أن يسخر من سادة أمثالكم. والآن أسرع وأجبني، أى صنف من الخمر أقدم لك؟

ألتماير

أريد من كل صنف؛ فلا تكثر الأسئلة.

(يثقب إبليس أمامه ثقبا ويسده)

إبليس

(مشيرا بيده إشارات غريبة)

تنمو الأعناب على الكروم. والقرون على رأس التيس. وما الكرمة إلا خشب وهذه المائدة الخشبية ستخرج لنا خمرا.

تأملوا فى عجائب الطبيعة. وآمنوا بهذه المعجزات.

الآن أخرجوا السدادات واشربوا أطيب الخمر.

الكل

(يخرجون السدادات ويملأون أقداحهم بما طلبوه من الخمور)

يا حسنه ينبوعا يفيض علينا ومايغيض.

إبليس

لكن احذروا كى لا يسقط على الأرض من الخمر شىء.

الكل

(يشربون مرارا ويغنون)

نحن فى لعْب ولهــو   وســـــــــرور لا يـريم،
نحتسى الخمـر كـأنا   ألف خنزير عظيم.

إبليس

(لفاوست) أترى هؤلاء القوم الأحرار! كيف ينعمون ويطربون؟

فاوست

وددت لو نغادر هذا المكان.

إبليس

انتظر حتى تراهم بعد قليل وقد ملكتهم نشوة الخمر ولعب السكر بألبابهم.

سيبل

(يشربون من غير اكتراث، فيقع بعض الخمر على الأرض ويخرج منها لهيب)

المعونة! النار! سعير جهنم!

إبليس

(مخاطبا اللهيب) اهدأ أيها العنصر الحبيب!

(مخاطبا الجماعة) لم تكن هذه غير شعلة صغيرة من النار المطهرة[1].

سيبل

ويلك أى شىء فعلت؟ انتظر حتى أريك عاقبة فعلك هذا!

أجهلت من نحن؟

ضفدعة

الهلاك لك إن عدت لمثل هذا الأمر.

---

(١) أى النار التى تطهر من الذنوب فى عرف النصارى.

ألتماير

أرى أنه يجب أن ينسحب من هنا بسكون.

سيبل

ما هذا؟ أهنا تتجاسر على أن تسلط علينا ألاعيبك الشيطانية!

إبليس

أسكت يا خابية النبيذ.

سيبل

اخسأ يا عصا المكنسة! اتجرؤ أن تجابهنا بهذه البذاءة؟

براندر

انتظر وستهمى شآبيب الصفع والضرب.

ألتماير

(ينزع السدادة من ثقب الخمر فيخرج منه لهيب)

النار! النار! إنى أحترق.

سيبل

ويل للساحر الفاجر! اهجموا فقد أصبح دمه هدرًا.

إبليس

(بشكل جدى).

سـحـرى وشـدة مكرى   تـضـل كـل جـنـان!
كـونوا بغـيـر توان   فى غـيـر هذا المكان

(يقفون كلهم حائرين ينظر بعضهم إلى بعض)

ألتماير

أين أنا ؟ ما هذه الأرض الجميلة ؟

ضفدعة

أحقول كرم هذه التى أراها ؟

سيبل

أهذى عناقيد العنب على مقربة من يدى ؟

براندر

وانظر تحت هذه العريشة تر أغصان الكرم عليها أحسن العناقيد.

(ثم يمسك بأنف سيبل والآخرون يمسك كل واحد منهم بأنف صاحبه).

إبليس

الآن فلينكشف الغطاء عن أبصارهم ولينظروا كيف يداعبهم الشيطان.

(يختفى هو وفاوست فيستفيق الآخرون).

سيبل

ماذا جرى ؟

ألتماير

ما هذا ؟

ضفدعة

أهذا أنفك الذى أمسكته؟

براندر

وهذا أنفك ما زال بيدى.

ألتماير

إنها لضربة شديدة أصابت سائر أعضائى. ناولنى كرسيا فقد خارت قواى.

ضفدعة

لكن قل لى كيف حدث هذا الأمر؟

سيبل

وأين هرب الملعون؟ لو لقيته الآن لطيرت روحه من جسده.

ألتماير

بعينى رأيته خارجا من الباب وهو راكب على باطية النبيذ.

أشعر بثقل شديد فى رجلى.. (يقترب من المائدة) ترى لم يزل فى المائدة خمر؟

سيبل

وهل كان الأمر كله إلا خداعًا وغشًا وسحرًا باطلاً؟

ضفدعة

ومع هذا فقد خيل لى أنى أشرب نبيذا.

براندر

ثم ما خطب تلك العناقيد.

ألتماير

بالله قل لى! أبعد هذا لا يؤمن المرء بالمعجزات؟

(٦)

مطبخ الساحرة[١]

في جانب من الغرفة قدر على وجاق تغلي؛ ويتصاعد منها بخار تبدو فيه صور وأشكال شتى ويجانب النار قردة تجمع الرغوة من القدر وتراقبها كي لا تطفح. وعلى مقربة منها القرد. وحوله صغاره تتدفأ. وعلى الجدران وفي أركان الغرفة أدوات سحر غريبة متنوعة.

إبليس وفاوست

فاوست

إن نفسي تمج هذه السخافات وهذا السحر! وعجيب أنك تزعم أني سأجد شفائي وسط هذه الشعوذة وفي هذا المكان الكريه!

أألتمس الدواء لدى عجوز شوهاء وأسألها أن تساعدني بعقاقيرها القذرة كي ترجع إلى شبابي وأعود أصغر مما أنا اليوم بثلاثين عاما؟

فيا ويلي إن لم يكن لديك وسيلة غير هذي أنال بها مقصدي! لقد عاد اليأس فاستولى علي. وعجيب أن ليس في العالم ذلك البلسم المنشود. وأن قوة الذكاء البشري ما برحت عاجزة عن الوصول إليه.

---

(١) لم يستطع إبليس أن يؤثر في فاوست وفي نفسيته باقتياده إلى تلك الحانة. فرأى أن لابد من إحداث تغيير كبير في حالة فاوست الجثمانية. فأتى به إلى إحدى الساحرات لكي يحصل له منها على شراب يعيد إليه شبابه؛ ويجعله أصغر مما هو بثلاثين عاماً.

إبليس

أراك رجعت إلى التكلم بعقل وحكمة؛ فاعلم أن هناك واسطة أخرى تصير بها شابا فتيا. ولكنها بعيدة عما نحن بصدده الآن. ومكتوبة فى سفر غير هذا السفر وقصتها قصة غريبة.

فاوست

أريد أن ألم بها.

إبليس

الواسطة المذكورة تنيلك بغيتك من غير مال ولا سحر ولا علاج. تنطلق الآن إلى الحقول وتحمل فأسك على كاهلك. ثم تنهمك فى الحفر والحرث. وتحصر ذهنك وفكرك فى دائرة ضيقة. وتتغذى بأخشن الأطعمة وأبسطها. تعيش وسط البهائم كأنك بهيمة. وتعمل فى حقلك وتشقى؛ حتى تحصد ما زرعت. مثل هذه الحياة تعيد إليك شبابك ولو كنت شيخا هرما مشتعلاً رأسك شيبا.

فاوست

ما تعودت مثل هذا الأمر. ويدى لا تستطيع حمل الفأس. وأما أن أحصر فكرى فى دائرة ضيقة فهو ما لا أطيقه.

إبليس

إذن لابد لنا من الاستعانة بالساحرة.

فاوست

لكن ما الذى يدعونا للالتجاء إلى العجوز؟ أما تقدر أنت أن تهيئ هذا العلاج؟

إبليس

ما أحسنها تسلية لو كانت من السهولة بحيث تتصور! أهون على أن أبنى ألف جسر ضخم من أن أصنع هذا العلاج. إنه عمل لا تكفى فيه المعارف والعلوم. بل لابد للمرء من الصبر والجلد. ويجب أن تظل بجانبه العام بعد العام وتنتظر حتى يختمر على مر الدهور. والزمن وحده هو المساعد على تكوين هذا العلاج فأنى للشيطان هذا الصبر الطويل وتلك المقدرة على الانتظار.

أما جميع ما يلزم لهذا العلاج من المواد الغريبة والعقاقير النادرة فالشيطان يهدى الساحرة إليها. ولكنه أعجز الناس عن صنع الدواء.

(يلتفت إلى الحيوانات)

انظر إلى هذه المخلوقات الجميلة! هذا هو العبد وتلك هى الجارية.

إن سيدتكم ليست فى الدار؛ فأين ذهبت؟

الحيوانات

خرجت من المدخنة؛ وذهبت إلى الوليمة!

إبليس

وهل تغيب طويلاً؟

الحيوانات

بقدر ما نصطلى ونتدفأ.

إبليس

(لفاوست) أما أعجبتك هذه الحيوانات اللطيفة؟

فاوست

هى أبشع وأقبح ما وقعت عليه عينى.

إبليس

أحب شىء إلى هو التحدث إلى أمثالها.

(للحيوانات) ويحكم أجيبونى! ماذا تطبخون فى هذه القدر؟

الحيوانات

نطبخ مرقا للفقراء والمساكين!

إبليس

حقا أرى المحتاجين قد تزاحموا على بابكم.

القرد

(يتقدم نحو إبليس متملقا إياه).

أنعم علىَّ بمال | فالفقر هدَّ حيالى
لو صرت يوماً غنياً | لحزت أقصى المعالى
إن لم يكن لى عقل | فالمال يستر حالى

إبليس

لو كانت الحظوظ تصيب القردة كما تصيب غيرهم؛ لكان لهذا القرد مطامع وآمال.

(فى هذه الآونة تأتى القردة الصغار بكرة كبيرة ويلعبون بها ويدحرجونها)

القـــرد

هـذه الـدنيـــــا تـراهـا في هبــوط وصــعــود
مـــا لهـــا قـط ثبـــات مـا لهـا الدهر ركـود
تعد الناس وما صحت لهـــا الدهر وعـــود
للبلى هذى البـــرايا للفنا هذا الوجـــود
سل قبور الأرض كم من أم فـــيــهـــا رقـــود
قـد ثوى الأحفـاد والآ باء فـيـهـا والجـدود
ومتى كنت من الترب فللتـــــرب تعـــود
فـسـواء حظك اليـوم نحـوس أم سـعـود

إبليس

ولكن ما هذا الغربال؟

القرد

(يتناول الغربال بيده) لو كنت لصا لعرفت خفايا أمرك الساعة.

(ثم يجري إلى القردة ويجعلها تنظر من وراء الغربال).

انظرى من هذا الغربال! وقولى هل ترين اللص وهل تعرفين اسمه؟

إبليس

(مقتربا من النار) وما هذه القدر؟

القرد والقردة معًا:

يا لك من أبله؟ ألا تعرف هذه القدر؟ أما تعرف هذا الوعاء؟

إبليس

تبا لك من حيوان سيئ الأدب.

القرد

خذ هذه الخرقة واجلس على هذا الكرسى.

ثم يضطر إبليس للجلوس

فاوست

(وكان فى هذه الأثناء واقفا أمام مرآة يقترب منها حينا ويبتعد عنها حينا ويرى فيها صورة جميلة)

ويحى ما هذا الذى أراه؟ أى صورة سماوية تبدو لعينى فى هذه المرآة المسحورة؟ أيها الحب! أعرنى أقوى ما لديك من الأجنحة فأطير بهما إلى هذه الفاتنة فأنعم بلقائها وألذ بقربها!

أرانى كلما انتقلت من المكان الذى أقف فيه الآن واقتربت من المرآة محاولا الدنو من هذه الصورة الماثلة أمامى احتجبت عن ناظرى كأنما تتوارى خلف الغمام.

وما أحلاها صورة وأبهاها! أيمكن لامرأة أن تحوز كل هذا الجمال؟ أم ترى أن ما فى السموات من الحسن قد تجمع كله فسكن فى هذا الجسم الماثل بين يدى؟ وإلا فأنى لهذا الثرى أن ينبت مثل هذا الحسن الرائع؟

إبليس

ولم لا؟ ألم يشتغل ربك ستة أيام فى صنع هذا العالم؛ حتى أنه هو قد أعجب به أى إعجاب[(١)]؟ وإذا كان الرب أجاد صنع شىء فهل يكون إلا بالغا الغاية التى ليس وراءها غاية؟

---

(١) إشارة إلى ما جاء فى سفر التكوين (الإصحاح الأول) «ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا».

والآن أنعم النظر فى هذه الصورة المليحة، حتى تطفئ غليل قلبك الحائم؛ وأنا أعلم أين آتيك بمثل هذا الكنز الثمين. وسعيد لعمرى من ساعده الجد فحظى بعروس كهذه العروس وأحرز مثل هذه اللؤلؤة المكنونة.

(فاوست يديم النظر إلى المرآة متأثرا: وإبليس يلعب بالخرقة التى فى يده).

أنا هنا جالس على هذا الكرسى كالملك فوق عرشه؛ وهذه الخرقة صولجانى. وما يعوزنى الآن إلا التاج.

(هنا تتناول الحيوانات الصغار تاجا وتأتى به إلى إبليس).

يا أيها المولى الذى ... له المقام الأرفع
جئناك بالتاج الذى ... فيه اللآلى تلمع

ثم يعدون ويثبون والتاج بيدهم فيسقط وينكسر.

الحيوانات

يا ويحه قد انكسر ... قضى بذلك القدر
لم يغن من ذاك الحذر

فاوست

(محدقا بالمرآة) ويلى لقد كدت أن أجن جنونا.

إبليس

وأنا كذلك قد بدأ رأسى يدور.

الحيوانات

أما علمت أننا ... أشعر من فوق الثرى
لنا قواف عذبة ... كأن فيها سكرا
إن لم تجد معنى لها ... فذاك دأب الشعرا

إبليس

هذا اعتراف بالحقيقة ولئن لم تكونوا أشعر القردة. فأنتم بلا ريب أصدق الشعراء.

فاوست

أحس صدرى كأنما أخذت تتأجج فيه النار. فأسرع بنا من هذا المكان.

(هنا تطفح القدر التى أهمل القردة مراقبتها؛ فيفيض ما فيهـا من النار؛ ويخرج منها لهيب هائل يرتفع إلى المدخنة. فعندها تنزل الساحرة من المدخنة وتخرج من وسط اللهيب وهى تصرخ صراخا مزعجا).

الساحرة

أواه! أواه! بعدا لك أيها الحيوان الملعون وسحقا! ويلك أما تعلم أنك بإهمالك القدر كدت تحرق بدنى! يا لك من لعين.

(ملتفتة إلى فاوست وإبليس).

وأنتما ما شأنكما؟ وما الذى تريدان؟ ومأنى بكما إلى هنا؟

لأحرقن عظامكما بنيرانى.

(تملأ المغرفة من القدر وتنثر بها اللهيب على فاوست وإبليس والحيوانات؛ فتئن هذه متألمة)

إبليس

(يضرب بالخرقة التى بيده بعض الزجاجات والأواني فيكسرها)

تحطمى! تهشمى! انكسرى نصفين!

هذا جزاؤك أيها العجوز الشمطاء!

(هنا تتراجع الساحرة مذعورة مندهشة)

ويلك هل عرفتينى الآن أيتها الهيكل العظمى؟ أعلمت من أنا أيتها الرمة البالية؟

أرأيت أنى أنا سيدك ومولاك. وأسهل على بأن أمحوك من الوجود أنت وعصبتك وقردتك؟ أما عدت تعظمين هذا الكساء الأحمر؛ ولا هذه الريشة السوداء التى فوق قلنسوتى؟ وهل أخفيت وجهى عن الأبصار فلم تبصرينى؟ أم تحسبين أنه لابد لى أن أعرفك بنفسى؟

الساحرة

مولاى اغفر لى إن لم أحسن استقبالك! فما عرفتك لأول وهلة لأنى لم أبصر لك حوافر الخيل المعهودة؛ ولا الغرابين الذين ألفنا أن نراهما معك.

إبليس

عفوت عنك هذه المرة. لأننا والحق يقال لم نجتمع منذ زمن بعيد. فاعلمى ويلك أن الحضارة التى تلوث بها العالم كله قد امتد نفوذها حتى إلى الشيطان؛ فلم يعد أحد يرانى فى تلك الصورة الشمالية[1] وقد أصبحت وما لى قرون ولا ذنب ولا مخالب. أما أقدامى فلا غنى لى عنها. ولكنى خشيت أن ينالنى بعض الأذى من جرائها فاضطررت لإخفائها ولبست أرجلا مستعارة كما يفعل الكثير من أبناء هذا الزمان.

الساحرة (وهى ترقص فرحا)

إن أكن قد فقدت حسى ورشدى   فلأن النبيل إبليس عندى

إبليس

ويلك لا تسمينى بهذا الاسم.

الساحرة

لماذا ؟ هل ساءك هذا الاسم بشىء؟

---

(١) الصورة الشمالية هى صورة إبليس ومعه الغرابان؛ وذلك أن سكان شمال أوربا كانوا يزعمون أن لإبليس غرابين لا يرى إلا وهما معه.

إبليس

هذا اسم قد طرح فى زوايا النسيان؛ وأصبح الناس يعتقدون أن ليس أمر الشيطان إلا حديث خرافة. على أن إنكارهم هذا لم يصلح من شانهم، ولم يهدهم سبيل الرشاد. بل هم، على العكس، أنكروا وجود شيطان واحد فنبغ من بينهم من الشياطين ما لا يدركه العد.

أما أنا فسمينى البارون؛ فأنا اليوم رجل من كبار الفرسان عريق فى الحسب والنسب ويجرى فى جسدى دم الأشراف النبلاء؛ أما إن سألت عن شعار أسرتى فهأنذا أريك إياه.

(ثم يأتى بحركة قبيحة).

الساحرة

(تقهقه ضاحكة) ها! ها! لعمرى إنك لكما عهدتك ماجن فاجر حلو الفكاهة.

إبليس

(لفاوست) يا صديقى تعلم هذه الأمور، فهذه هى الخطة التى ترضى بها الساحرات.

الساحرة

والآن قولا أيها السيدان ما خطبكما؟

إبليس

جئنا نطلب منك كأسا من العصير المعهود. لكنى أسألك أن تعطينا أقدم ما عندك؛ فإن مر السنين يضاعف من قوته.

الساحرة

عن طيب خاطر. هنا زجاجة أعتز بها وأحرص عليها؛ وأنا نفسى أتناول منها جرعة بين آن وآن ولم يعد بها أدنى رائحة كريهة. وسأملأ لكما منها قدحًا.

(همسا لإبليس) لكنك تعلم أن هذا الرجل إن تناول الشراب ولم يكن لديه الاستعداد الكامل فلن تمض ساعة حتى يصبح جثة هامدة.

إبليس

إنه من خيار أصدقائنا؛ وسيستفيد من الشراب أجل فائدة. ويجب ألا نبخل عليه بأجود ما عندنا. فهلمى الآن ارسمى دائرتك المعهودة، واقرئى من العزائم ما تريدين قراءته ثم ناوليه كأسا مترعة.

الساحرة

(ترسم دائرة كبرى؛ وتضم فى داخلها أشياء شتى وأوانى مختلفة؛ فعند ذلك تبدأ الزجاجات والأوانى ترن وتحدث أصواتا موسيقية؛ بعد هذا تجئ الساحرة بكتاب ضخم وتدخل القردة فى الدائرة وتضع الكتاب فوق أحدها. ويمسك الآخرون المشاعل بأيديهم؛ ثم تشير إلى فاوست أن يدخل الدائرة).

فاوست

(لإبليس) أجبنى ويحك: ما فائدة هذا كله؟ هذه الأعمال الكريهة والإشارات الجنونية والشعوذة المقوتة أعرفها جد المعرفة وأبغضها أشد البغض.

إبليس

هذه فكاهة لا يقصد منها سوى التسلية والضحك؛ فتساهل فى هذا الأمر. إن العجوز تريد بتلك الهمهمة والتمتمة أن تريك أنها من نطس الأطباء. وأن الدواء سيكون سائغا والشفاء عاجلا.

(ثم يدخل فاوست إلى الدائرة كرها).

الساحرة

(تشرع فى قراءة ما فى الكتاب بصوت عال ولهجة متكلفة).

إفهم حديث السحره — من واحد لعشره
دع اثنتين تذهبا — وخذ ثلاثًا نجبا

وإن أخـــذت الأربعـــا تمسى غنيـــا أروعـــا

من ســـتـــة لخـــمـس قـالت عـجـوز النحس

وســـبـعـــة ثمـــانيـــه تدنى الأمور القاصيـه

مـا التـسع إلا واحـده والعـشـر إلا جـاحـده

وإن هـذا ســـــائـره جدول ضرب الساحره

فاوست

ما أراها إلا تهذى هذيان المحموم.

إبليس

وهل أسمعتك إلا النذر اليسير من بضاعتها؟ وأنا أعرف كتابها هذا جد المعرفة فهو ممتلئ مفعم بهذه الترهات؛ ولكم أضعت ساعات من وقتى الثمين أحاول عبثا أن أتفهم بعض ما فيه.

إن هذه المتناقضات المتقنة ليست سوى ألغاز ومعميات خاوية، يستوى فى فهمها الذكى والبليد. والإتيان بمثلها من الفنون التى مارسها الأوائل والأواخر وحيلة تذرعوا بها فى كل زمن وفى كل مصر، فزعموا أن الثلاثة واحد وأن الواحد ثلاثة[1] فضللوا بالناس؛ وانتشر الباطل وطويت الحقيقة. وتسنى لهم بهذه الوسيلة أن يتقوا فضول السائلين والباحثين إذ ليس فى العالم من يرغب فى مجادلة المجانين ومناقشتهم.

ومن عادة الناس إذا سمعوا كلاما أن يتوهموا أنه لابد أن يكون ذا مغزى ومعنى وإن لم تدركه أفهامهم.

---

(١) هنا يشير إبليس إلى عقيدة الثالوث. ولم يكن غوتيه من المؤمنين بها. راجع شرح كالفن توماس على فاوست (ص ٢٠٧).

الساحرة

إنما العلم خـــفِيٌّ عن عقول الناس جدًا
ناله قـوم كـسـالى لم يعانوا فيه جَهْدا
وكثير العقل محروم وإن كـد وجــدًّا

فاوست

تبا لها ولما تأتى به من السخافات. لقد أوشك أن يتصدع وبب كأنى أسمع عصبة من المجانين يصرخون كلهم مرة واحدة ويهذون بأسخف الأقوال.

إبليس

حسبك أيتها الساحرة الهائلة! أسرعى فاملئى له الكأس حتى الحافة وأيقنى أنه لن يمسه منها أقل أذى. فلقد طالما اضطر لأن يسيغ ويبلع كل شىء غريب لكما يحصل على شهاداته ودرجاته الكثيرة.

الساحرة

(تملأ القدح بالشراب فيتناوله منها فاوست. وحين يدنى الكأس من فمه يبدو بأعلاها لهيب صغير فيتردد فى الشراب).

إبليس

تشجع ولا تحجم! وعما قليل يمتلئ صدرك فرحا وطربا. أتخشى لهيبا صغيرا بعد أن بث الشيطان صاحبا وخدينًا؟

(يشرب فاوست الكأس فتفك الساحرة الدائرة التى رسمتها ويخرج منها).

إبليس

والآن لنبرح هذا المكان إذ يجب ألا تستريح بعد شرب هذا الدواء.

الساحرة

هنيئا لك الجرعة التى شربت!

إبليس

إن كانت لك حاجة تريدين قضاءها فحدثينى عنها حين نلتقى فى ليلة والبورغ.

الساحرة

(لفاوست) وهذى أنشودة جميلة لو تغنيت بها من آن لآن لأحدثت فى صدرك انشراحا؛ وتركت فى نفسك أحسن أثر.

إبليس

أسرع بنا الآن ودعنى أريك السبيل. لابد أن يسيل العرق على جسدك حتى تسرى القوة إلى جسمك ظاهره وباطنه ويعود إليك شبابك الناضر. وأمامك فيما بعد متسع من الوقت للراحة والكسل. وسترى نفسك فى لمحة الطرف وقد اتقدت فى جسدك جمرة الشباب وجرى فى عروقك دم الصبى.

فاوست

دعنى لحظة ريثما أنظر مرة فى تلك المرآة! إن مغنطيس حسن تلك المرأة يجذبنى بقوة لا تقاوم.

إبليس

لا داعى لهذا! وبعد قليل سأريك أجمل نساء العالمين فتراها وجها لوجه.

(همسًا).

لعمرى بعد أن سرت حميا ذلك الشراب فى جسدك. فكل امرأة تراها حورية فتانة.

(٧)

طـــريق

فـاوسـت - ومـرغـريت مـارة

فـاوسـت

أيتها الحسناء الشريفة الحسب! أتأذنين لى أن أرافقك إلى منزلك؟

مـرغـريت

ما أنا حسناء ولا شريفة الحسب. وفى قدرتى أن أذهب وحدى إلى البيت.

(ثم تتخلص منه وتمضى).

فـاوسـت

تبـاركت اللهم! أى حسن هذا الحسن وأى مـلاحة قـد صبت على هذه الطفـلة! وهل وقعت عين على مثل هذا الجمال؟

يا عـيـون المهـا وطهـر العـذارى ... قد أسرت النهى ففكى الأسـارا
يا خـدودا تنيـر وسط الدياجى ... وتـرد الليـل البـهـيم نهـارا
يا شـفـاه المرجـان هلا تبـسـمت ... لصب فى سحـر حسنك حـارا
يا شـفـاء الصـدر الكـليم أنيـلى ... مـغـرمـا لا يطيق عنك اصطبـارا

أنفـــورا مني ولله مــا أحـــلاك   لــمــا أكـــثـــرت مني النفـــارا
افـعلى مــا أردت لابد لى منك   فـــأقـــضى من حـــبك الأوطارا

يدخـل إبليـس

فاوست

اسمع! لابد أن تأتيني بهذه البنت!

إبليس

أى بنت تعنى؟

فاوست

التى مرت من هنا منذ قليل.

إبليس

تلك الفتاة؟ لقد كانت آتية من الكنيسة حيث قال لها القسيس إنها بريئة من كل ذنب وإن خطاياها قد غفرت. لله أبوها! لقد مررت بها وهى راكعة أمام القسيس؛ فألفيتها طفلة نقية طاهرة؛ ذهبت للاعتراف وما جنت فى عمرها ذنبا؛ ولا خطرت لها المعصية ببال.

مثل هذا الملك ليس له عليه سلطان.

فاوست

ولم لا ؟ أليست قد بلغت الحلم؟

إبليس

إنك تتكلم كأنك من كبار الفاسقين؛ الذين يقدمون على اقتطاف كل زهرة وجنى كل ثمرة. وهتك كل ستر وانتهاك كل حرمة؛ لا يبالون بعفاف أو عصمة ولا يرعون في شيء إلا ولا ذمة. لكن لكل شيء حد؛ ومثل هذه الأمور لا تجوز في كل حين.

فاوست

يا سيدي ومولاي الشريف العفيف؛ دعني من عواطفك ونصائحك؛ وأقول لك باختصار؛ إن هذه الفتاة المليحة إن لم تبت بين ذراعي الليلة فهذا فراق بيني وبينك. ولن أرى وجهك بعد اليوم أبدا.

إبليس

فكر ويحك فيما يعترض مثل هذا الأمر من العقبات أقل ما يلزمني من الزمن أربعة عشر يوما حتى أستنبط الحيلة التي أجمع بها بينكما.

فاوست

لو أني أستطيع أن أهدأ سبع ساعات، لما احتجت إلى شيطان مثلك كي يساعدني على إغواء مثل تلك الفتاة الساذجة.

إبليس

ما شاء الله! أراك تتكلم كأحد أبناء فرنسا. لكني لا أرى داعية لانفعالك هذا. تدبر الأمر مليا! أي فائدة تجنيها وأي سرور تشعر به حين تنال لذتك لقمة باردة من غير عناء ولا مشقة؛ شتان بين مثل هذا السرور وبين ذلك الفرح الذي يملأ صدرك حين ترى الصيد بعيد المنال صعب المرام فتنصب له الشراك ثم ترصد وتترقب؛ حتى إذا حان الوقت وعلق الظبي بالحبالة؛ وثبت وثبة المنتصر واقتطفت الثمرة الحلوة وهصرت إليك الغصن الرطيب.

فاوست

لى من قوة الشهية ما يغنى عن كل هذا.

إبليس

أقول لك قولا لا مزح فيه ولا جدل؛ إنه يستحيل علينا أن نبلغ من تلك الحسناء مرامنا بالسرعة التى تتوهمها؛ الشدة والعنف لا يجديان نفعًا؛ وإنما يوصلنا المكر والاحتيال إلى بغيتنا المنشودة.

فاوست

ائتنى بشىء نفيس مما يليق إهداؤه للملائكة. ثم سر بى إلى كناس ذلك الظبى. وأرنى مستقر تلك الفاتنة. وهناك فلتختلس لى من بين أثوابها وأمتعتها منديلا أو رباط جورب أو أثرا أدخره وأحرص عليه.

إبليس

لكى أبرهن لك على شدة إخلاصى وأنى لا آلو جهدا فى إرضائك سأذهب بك اليوم إلى منزلها وأدلك على غرفتها.

فاوست

وهل أراها وألتقى بها؟

إبليس

لا! إنها ستكون فى بيت جارتها؛ وفى أثناء غيابها يمكنك أن تخلو بنفسك فى حجرتها فتنشق من هوائها وتتنسم عبيرها، وصدرك ملؤه الأمل بما ستنعم به فى المستقبل.

فاوست

وهل نذهب الآن ؟

إبليس

لم يحن الوقت بعد.

فاوست

يجب أن تأتينى بهدية نفيسة. (يخرج)

إبليس

أهدية الآن ولم نكد نخطو الخطوة الأولى؟ حييت من بطل مقدام! إن مساعى فيك ستكلل بالنجاح.

إنى أعــرف أمكنة شـتى كنت قــد خبـأت فيـها منــذ زمن بعيد كنـــوزا نادرة، والآن فلأستجمع خاطرى ولأفكر قليلا.

(يخرج)

(٨)

فـى المسـاء

حجرة صغيرة نظيفة

(مرغريت تضفر شعرها ثم تعقصه)

مرغريت

لن أتردد فى بذل الشىء الكثير لكى أعرف من ذلك السيد الذى قابلنى اليوم فى الطريق. لقد كانت تلوح عليه سيما النجابة والنبل. وقد طالعت فى جبينه أنه من بيت شريف المحتد كريم العنصر. وإلا لما كان جريئاً بهذا القدر.

(تخرج)

(يدخل إبليس وفاوست)

إبليس

ادخل بسكون وامش بتؤدة.

فاوست

(بعد قليل) أرجو أن تغادرنى وحدى.

إبليس

(متأملاً فيما حوله) لعمرى ليس لكل فتاة ما لها من حب النظافة والإتقان.

(يخرج)

فاوست

(ناظرا حوله) مرحبا بك يا ضياء الشفق! وأهلا بك إذ تسكب نورك على هذا المسكن الأمين بل هذا الهيكل المقدس.

وأنت أيها الهوى المبرِّح! أيها العذاب العذب! لقد شغفت منى قلبا كاد يقتله حر الظمأ لولا قطرات من ندى الأمل.

أى سكون وأى صفاء قد خيما على هذه الدار! وأى تنسيق بديع وأى قناعة ورضى! وإن أعجب فعجبى لهذا الرخاء وسط الفاقة والسعادة التى تملأ هذا السجن.

(يرتمى على كرسى كبير من الجلد بجوار السرير)

أجلس الآن على هذا الكرسى الذى طالما كان متكأ للآباء والأجداد! يفتح لهم ذراعيه مرحبا بهم فى أيام سرورهم أو محنتهم. وكم من مرة تبوأ رب الدار هذا العرش. وأقبل أبناؤه وأحفاده فأحدقوا به من كل جانب. ورب ليلة جاءت حبيبتى إلى هذا الكرسى وجثت بين يدى جدها ولثمت كفه الذابلة وقلبها يطفح إجلالا وشكرا على هدية أهداها لها فى يوم عيد أو تحفة حباها بها.

حييت أيتها الفتاة! إنى لأشعر بروحك، روح القناعة والتدبير وكأنه يهمس من حولى، ذلك الروح الذى يلهمك كل يوم كيف تقومين بتنسيق هذا المنزل وتجميله. ويعلمك كيف تبسطين الغطاء على المنضدة بهذا الإتقان، وتنقشين فى الرمل الذى تحت قدميك رسومًا وأشكالاً[١].

بوركت أيتها اليد العزيزة، التى تحاكى يد الآلهة، لقد صيرت هذا الكوخ الحقير قصرًا من قصور السماء. (يزيح سترا من أستار السرير)

(١) إشارة إلى عادة نثر الرمل فى الغرفة (حين لا توجد أبسطة) وكان يعد من زيادة الإتقان ألا ينثر الرمل بغير نظام بل بحيث يكون أشكالاً ورسومًا.

هذا المنظر يثير فى نفسى مزيجًا من الرهبة والفرح. هنا يحلو لى البقاء ساعات طوالاً!

على هذا السرير تسنّى لك أيتها الطبيعة أن تتعهدى هذا الملك الكريم وسط الأحلام الهادئة والخواطر البريئة.

هنا مضجع تلك الطفلة! وفوق هذا الفراش امتلأ صدرها الرقيق بحرارة الحياة. هنا تعهدتها العناية وكلأتها حتى نمت وترعرعت، فإذا هى زهرة ملؤها الحسن والطهارة.

وأنت يا فاوست! أى ريح قذفت بك إلى هذا المكان الطيب؟ أى خطب خطبك. وأى غرض جئت تنشده هنا، ألعلك الآن قد بدأت تحزن وتندم. فيا ويحك يا مسكين! لقد تبدلت وتغيرت حتى استحال علىّ أن أعرفك.

أفى هذه الغرفة هواء سحرى قد أثر فى أبلغ تأثير؟ لقد جئت هنا ولا هم لى إلا أن أتلذذ وأتمتع، والآن لا أشعر إلا بمهجة تذوب وجدا. وفكر تطير به الأحلام كل مطار. فهل نحن من الضعف بحيث نتغير ونتحول كلما تغير الهواء وتبدل؟

ويلى لو دخلت الساعة وداهمتنى وأنا فى حالتى هذه فما يكون خطبى وكيف أكفّر عن ذنبى! اللهم لا أرى إلا أن أركع أمامها وأكب على قدميها وأذوب بين يديها خجلا ووجدا.

(يدخل إبليس)

إبليس

اسرع بنا فإنى أراها آتية.

فاوست

هلم بنا ولن أعود بعد اليوم أبداً.

إبليس

أتيتك بصندوق لا بأس به. فلنضعه بتؤدة حيث تحفظ ثيابها، وإنى أقسم لك أنها سيطير عقلها سروراً حين ترى ما فى هذا الصندوق. فإن فيه من التحف مايكفى بعضه لاستلاب فكر الكثيرات من النساء.

فاوست

لست أدرى هل أقدم على هذا الأمر!

إبليس

أتردد؟ ألعلك تريد أن تستبقى الحلى لنفسك، فلئن كانت هذه نيتك فما كان أحراك أن تنتظر إلى الصباح وتوفر على كل هذا العناء الذى قاسيته والوقت الذى ضيعته. على أنى لا أظن البخل قد بلغ بك هذا الحد. أما ترى ما أكابد وأعانى فى سبيل خدمتك.

(يضع الصندوق داخل الخزانة ويغلقها).

والآن أسرع بنا، ولن يمضى زمن طويل حتى تحرز تلك اللؤلؤة وتنعم بها كما تشتهى. لكن ما بالك عابسا مقطب الجبين كأنك داخل إلى غرفة الدراسة وقد تمثلت أمامك الطبيعة وما وراء الطبيعة! (يخرجان)

(تدخل مرغريت وبيدها مصباح).

مرغريت

ما بال هواء الغرفة حاراً ممتلئا بالبخار!

(تفتح النافذة)

على أن الهواء فى الخارج ليس حاراً، أشعر بشىء من الضيق لا أعرف له سبباً. عسى أن تعود الآن أمى، فإن قلبى قد استحوذ عليه الرعب وما أنا إلا فتاة ضعيفة القلب.

(تغنى وهى تخلع ثيابها)

كان فى أرض (طلا)[1] ملك همام

طــــاهر القلب وفى بالذمـــام

زوجـــه أهدت إليـــه قـــدحـــا إذ رأت أن قد دنا منهـا الحـمام

أخـــذ الكوب بصـــمت وسكون

ورآهــا وهـــى فـــى أيـــدى المنـــون

منظر تدمى لمرآه العــيــــون «رب عدل منك! ما تقضى يكون»

كـلـمـا أدركـــه وقت الشـــراب

مـــلأ الكوب بحـــزن واكـتـئـاب

هاجت الذكرى جواه فجـرى دمعه بين انسجام وانسكاب

ثم حـــال الدهر والدهر يحـــول

ورأى أيامـــــه كـــــادت تزول

وأتتـــــه رسل الموت، وهـل دولة فى الناس إلا ستـدول ؟

فــــدعــــا أبنـــاءه يومـــا وآله

وحـــبــــاهم ملكه طرا ومـــاله

قـال : مُلكى كله اليـوم لكم إننى قد حان حينى لا محالة.

(١) اسم أطلقه القدماء على جزيرة أو جزر فى شمال غربى أوربا. ولعلها جزيرة أيسلندة وكانت فى عرفهم هى نهاية العالم فى تلك الناحية. (Ultima Thule).

واتركـوا لي ذلك الكوب، فـقـد
طالمـا أذهب عن قلبي الكمـــد
لا يلامس بعــد مــوتي شــفــة   لا ينله بعــد أن أقــضي أحــد،

ورمى في اليم ذاك القـــدحـــا
وانقـضى عـهـد صـباه وانمحى
لم يذق قطرة خـــمـــر بعـــدها   وصـحـا عنهـا ولأيًا مـا صـحـا

وغـــدا الموت أشــهى مـــا يروم
فـهـو يشفي قلبـه الدامي الكلوم
والردى أقـــصى أمـــاني تعس   عـيـشـهُ الدهر عـذاب وهمـوم.

(تفتح خزانة الثياب لتضع ثوبها فتجد صندوق الحلي).

يا للعجب! من أين أتى هذا الصندوق، وقد أحكمت إغلاق الخزانة، إنه لأمر عجاب! ليت شعري ماذا بداخله؟ أظن أحد الناس استعار من أمي نقودا وتركه لدينا رهنًا! وأرى مفتاحًا صغيرًا معلقًا به فلأفتح لأرى ما فيه.

رباه! ما هذا الذي أراه ؟ إني طول عمري ما شاهدت شيئًا كهذا! هذه الحلي يليق أن تلبسها أشرف النساء في يوم عرسهن. ما أشد شوقي لمعرفة صاحبة هذا الكنز الثمين! عجبًا! لو تقلدت هذا العقد هل يلائمني؟

(تتزين بما في الصندوق من الحلي وتقف أمام المرآة).

آه لو كان هذا القرط البديع لى. إذن لكان لى مظهر غير هذا المظهر. وماذا ينفع الشباب والجمال حين يكون الجيد عاطلاً. والجسد عارياً من كل زينة. مسكينة من لم يكن لها مثل هذه الحلى! إن مدحها أحد أو أثنى على جمالها فهو إنما يتحسر عليها، ولا عجب فما يجذب القلوب، ولا يسحر الأبصار إلا الذهب اللامع والجوهر البراق. والويل لنا معشر الفقيرات المعوزات.

(٩)

متنزه

فاوست يتمشى وهو يفكر - ثم يدخل إبليس

إبليس

أقسم بالعشق المدنَّس! وبالعناصر الجهنمية المخربة! ويا ليتى أعرف ما هو أنكى وأنكر من هذه الأشياء حتى أسب وألعن كما أشتهى!

فاوست

ماذا جرى؟ لقد انقلب كيانك ومسخت سحنتك؛ وما رأيت طول عمرى صورة أقبح من صورتك الآن.

إبليس

كنت أود أن يخطفنى الشيطان من هذا العالم لولا أنى أنا الشيطان!

فاوست

إنك تهذى هذيان المجانين الكبار؛ كأنما اختل دماغك وطار صوابك!

إبليس

تَّصور الكارثة التى نزلت!

الكنز الثمين الغالى الذى أهديناه لمرغريت بات الآن فى حوزة قسيس! فإن الأم لما تناولته بيدها ونظرت إليه داخلها الرعب، وملأ قلبها الشك. وهى امرأة حاسة الشم لديها قوية؛ وأنفها ملصق أبدًا بكتاب الصلاة. وهى تشم بأنفها كل ما تقع عليه عينها. لتعلم أطاهر هو أم نجس. فحين رأت الصَّنيديق، أدنت منه أنفها لتشمه؛ فعلمت عند ذلك علم اليقين أنه ليس من الطهارة بمكان عظيم. فقالت لفتاتها: «يا ابنتى! المال الحرام عذاب للروح وتدنيس للجسم؛ ورأيى أن نقّرب هذا الكنز للعذراء الطاهرة فنربح من ورائه المنَّ والسلوى».

فلما سمعت مرغريت هذه العبارة قطَّبت قليلا؛ كأنما أرادت أن تذكر أمها بأن الشىء، إن كان هدية، فهو مقبول على علاّته؛ وأن من يهدى مثل هذا الذخر لا يكون إلا ممن امتلأ قلبه بالتقوى والإيمان.

لم تبال الأم بنظرات البنت. وأرسلت فاستدعت القسيس. فلما حضر وسمع القصة أعجبته؛ وظهر على وجهه السرور وقال: يا ابنتى هكذا يكون التدين والصلاح. ومن قاوم الشهوة وحارب المعصية نال الفوز والنجاح.

أما الكنيسة فلن يضيرها هذا. لأن لها معدة قوية. وكم ابتلعت ديارًا وأقطارًا وأكلت الممالك بعد الممالك؛ فما اشتكت من التُّخمة يومًا ولا من عسر الهضم.

الكنيسة وحدها يا ابنتى العزيزتين تستطيع أن تهضم المال الحرام.

فاوست

هذا أمر شائع، وكثير من اليهود والحكام قد استطاعوا هضم المال الحرام.

إبليس

بعد هذا تناول القسيس تلك العقود والخواتيم ورمى بها فى جيبه بسكون كأنها أشياء تافهة حقيرة. ولم يبد على وجهه من الاهتمام أكثر مما لو كان الصندوق مملوءًا نقلا. ثم وعدهما الأجر من عند الله فتلقتا هذا الوعد بكل خشوع وتقوى!

فاوست

ومرغريت؟

إبليس

استحوذ عليها الإضطراب فما تدرى أى شىء تصنع؛ فهى تقضى الليل والنهار وهى تفكر حيناً فى تلك الحلى النفيسة وأحيانا فيمن أتى بتلك الحلى.

فاوست

إن حزنها يؤلمنى جدا. فالتمس لها حلياً أخرى أحسن من الأولى. لأنك فى المرة الأولى لم تأت بالشىء الكثير.

إبليس

أنت تحسب هذا الأمر ألعوبة هينة.

فاوست

لا تطل الجدال. وافعل ما قلته لك! فلتهد لها حليًا جديدة ثم تذهب بعد ذلك إلى جارتها! ولتكن شيطانًا ماهرًا.

إبليس

ليكن ما تريد وسأفعل هذا كله عن طيب خاطر.

(يخرج فاوست)

إبليس

يا عجبا لهذا العاشق الأبله! يود أن ينسف الشمس والقمر والنجوم جميعًا لو كان فى هذا بعض تسلية لمعشوقته.

(١٠)

بيت الجارة «مارتا»

مارتا (وحدها)

مارتـــا

سامح الله زوجي على ما ارتكبه من السيئات نحوى! أيجمل به وأنا زوجته الخلصة الوفـيـة، أن يغادرنى فى هذه الدار وحدى؛ أقـضى السنين الطوال فى وحشـة وعذاب فريسة الهموم والشجون، وهو ما برح يسيح فى مناكب الأرض ويتنقل من بلد إلى بلد، دون أن أخطر بباله لحظة. وماذا أجرمت وقد كنت مشغوفة حبًا به وما أذكر أنى أسأت إليه يوما ما. (تبكى)

ويلى! ألعله قد مات! فمن لى بشهادة تثبت وفاته.

(تدخل مرغريت)

مرغريت

سيدتى مارتا.

مارتا

مرغريت! ماذا جرى؟

مرغريت

لا تكاد رجلاى أن تحملانى. قواى خـائرة وقلبى مضطرب. إنى وجدت صندوقاً آخر من خشب الآبنـوس مملوءاً بالهدايا السـنية والتحـف البديعة ويفـوق الأول ألف مرة.

مارتا

حذار أن تخبرى أمك هذه المرة لئلا تحمله إلى القسيس فيصنع به ما صنع بالصندوق الأول.

مرغريت

آه! انظرى ما أحلاها!

مارتا

(وهى تقلد مرغريت بعض الحلى) لله ما أسعدك من فتاة!

مرغريت

لكنى ويا للأسف لا أقدر أن أظهرها للناس لا فى الطريق ولا فى الكنيسة.

مارتا

تعالى إلى كلما سنحت لك الفرص ! وهنا - فى هذا المكان الأمين - تتحلين بهذه الزينة الجميلة؛ وتسيرين متبخترة أمام المرآة؛ وفى هذا ما يسر قلوبنا ويشرح صدورنا؛ ثم إن حانت لنا فرصة فى يوم عيد فأظهرى للناس تلك الحلى قليلا قليلا. أولا تقلدين جيدك هذا العقد الصغير. ثم تحلين أذنيك بهذا القرط الدرى. ولن تعوزنا حجة نقنع بها أمك كى لا تدخل الريبة قلبها.

مرغريت

وهل تعلمين من أهدى لنا هذين الصندوقين؟ إن قلبى مملوء قلقًا وإضطرابا لهذا الأمر الخارج عن المـألوف.

(يطرق الباب)

مرغريت

رباه! أهذه أمى؟

مارتا

(ناظرة من وراء الستر) لا . إنه رجل أجنبى! دخل.

(يدخل إبليس)

إبليس

ألتمس منكما الصفح عن جرأتى إن كان فى وجودى ما يعكر صفاء اجتماعكما.

(يتراجع أمام مرغريت مظهرا كل تعظيم وإجلال).

أردت السؤال عن سيدة مارتا شوردلين.

مارتا

أنا هى! فهل لديك ما تقوله لى؟

إبليس

(همسًا لمـارتا) أما وقد عرفتك فلأكتف بهذا اليوم، لأنى أرى عندك زائرة ذات حسب رفيع. فسامحينى على هذه الهفوة، وسأعود إليك بعد الظهر.

مارتا (بصوت عال)

أعلمت يا مرغريت أن هذا السيد يحسبك من بنات الأشراف.

مرغريت

هذا كرم منه وحسن ظن. وما أنا إلا فتاة فقيرة، وهذه الحلى ليست لى.

إبليس

وأين تذهب الحلى بجانب هذا اللحظ الفاتك والحسن الفاتن؟ ما أسعدنى الآن بوجودى هنا!

مارتا

لكنك لم تخبرنى أى شىء أتى بك؟

إبليس

ليتنى كنت قادراً أن أحمل إليك نبأ خيراً من الذى جئت به. لكن ما الذنب لو تعلمين ذنبى. إن زوجك المرحوم توفاه الله وهو يقرئك السلام.

مارتا

مات؟ هل ماتت تلك النفس الزكية؟ ويلى قد مات زوجى فيا لتعسى!

مرغريت

لا تحزنى أيتها العزيزة ولا تجزعى !

إبليس

وها كما القصة المحزنة.

مرغريت

إني أبغض الحياة من أجل هذه الأحزان؛ ومن مثل هذا الرزء يقضى عليَّ غمًا.

إبليس

كل صفاء يعقبه كدر. ورب عسر بعده اليسر.

مارتا

قص على حكاية موته.

إبليس

لقد دفن في بلدة بادوا. وهنالك استراحت عظامه راحة أبدية. في بقعة مباركة مطهرة في جوار القديس أنطونيوس.

مارتا

ألم تحضر معك شيئًا آخر منه؟

إبليس

أجل! أحمل إليك رسالة جليلة كلفنى إبلاغها إياك. فهو يستحلفك أن تسعى لدى القسيس لكي يقرأ له ثلثمائة صلاة. وعدا هذا فإن المسكين لم يترك شيئًا قط.

مارتا

ماذا تقول؟ أما أعطاك هدية توصلها إليّ؟ ألم يترك لي تذكارًا لو حلية أدخرها من بعده؛ لعمرى ما هذا دأب الرجال. فإن أحقر العمال ليختزن مثل هذا الشيء في حقيبته ويحرص عليه الحرص كله. مفضلا أن يموت جوعًا على أن يفرط في حقوق زوجه.

إبليس

يعز على أيتها السيدة الكريمة أن أرى حزنك وجزعك . لكنه لم يكن – علم الله – من المبذرين. وقد ندم المسكين أشد الندم على هفـواته وزلاته. وتولاه الحـزن الشـديد على جده العاثر وطالعه المنكود.

مرغريت

واحرّ قلبى لبنى الإنسان البائسين! سأصلى ألف مرة على روح ذلك المسكين.

إبليس

أولى لك – وأنت ربة هذا الحسن الفتان – أن تبادرى إلى الزواج.

مرغريت

لا، هذا أمر غير ممكن بعد.

إبليس

ولم لا؟ إن لم يكن حليلا فليكن مؤقتًا خليلا. ولعمرى إنه لمن أكبر النعم أن يضم إنسان مثل هذا الجسم البديع بين ذراعيه.

مرغريت

ليس مثل هذا من عادة هذه البلاد.

إبليس

لكنه رغم هذا أمر كثير الحدوث.

مارتا

أتمم القصة.

إبليس

كنت بجانبه وهو على فراش الموت. وما كان فراشه القض إلا مزيجا من روث البهائم وأضغاث من الحشيش العفن. فرحمه الله. لقد مات كما يموت المسيحى الصميم، موقنًا أن أمامه حسابا عسيرًا.

تذكر المسكين وهو يحتضر أحبابه وأهله فآلمته الذكرى. وصاح بى: «إنى لأمقت نفسى على ما قصرت فى واجبى نحو زوجتى العزيزة. فتعسا لى من شقى بائس! إن تذكر هذا الإهمال يقتلنى ألما وندما. فيا ويلى إن لم تكن زوجتى قد سامحتنى وعفت عنى».

مارتا

(باكية) رباه! إنى سامحته وعفوت عنه منذ زمان.

إبليس

ثم قال . «لكن يعلم الله أن زوجتى قد أذنبت إلى أكثر مما أذنبت إليها».

مارتا

كذب وافتراء! يا ويحه أيكذب وهو على باب القبر؟

إبليس

إن لم يخطئ فقد أصابه وهو فى نزعات الموت شىء من الخرف.

قال لى: «إنى قضيت حياتى فى جد وسعى لكى يتسنى لى أن آتيها بالأطفال ثم بالقوت وتأبى على بعد هذا أن آكل لقمتى فى راحة وسلام».

مارتا

وهل نسى إفراطى فى الحب وإخلاصى البالغ حد النهاية. هل نسى أنه كان يعذبنى ويعنينى فى الليل والنهار؟

إبليس

لا. إن هذا لم يبرح من فكره لحظة.

وقد حدثني قائلا: «إني لما غادرت جزيرة مالطة كنت لا أنفك أدعو لزوجتي ولأبنائي في كل صلاة. وقد أسعدنا الجد. وبسم لنا الدهر. فصادفنا سفينة تركية مشحونة بالذخائر الثمينة والكنوز الغالية فكانت لنا غنيمة باردة فإستولينا عليها وأخذ كل ذي حق حقه. فنالني حظ وافر.

مارتا

أصحيح ما ذكرت؟ أتراه قد خبأ ذلك الكنز في موضع ما؟

إبليس

من يدري ماصنعت به المقادير. كان زوجك يجوب بلدة نابولي فريدا غريبًا فأحب فتاة حسناء كانت تصاحبه وترعى شئونه وأبدت له من المودة والحب ما جعله يذكرها حتى الممات.

مارتا

تبًا للمجرم! سرق مال أبنائه وجر عليهم الفقر والشقاء. وعرضهم للحاجة القاتلة بمسلكه الشائن وعمله الدنيء.

إبليس

حسبه أنه قد مات. ولو كنت مكانك للبست عليه الحداد عاما كاملا: وبحثت في أثناء هذا العام عن عرس آخر.

مارتا

هيهات! لن أجد في العالم زوجًا ثانيًا يحاكي زوجي الأول. فقد كان عذب الروح حسن الطباع؛ وهل كان عيبه غير أنه يحب السياحة في البلاد البعيدة، ويكثر من شرب الخمر ولعب القمار ومغازلة النساء الأجنبيات؟

إبليس

أحبب بهذا الطبع لو كان صاحبه يغض الطرف عنك كما كنت تغضين النظر عنه. ولو كنت ترضين الآن مثل هذا الزوج لكنت أول الخاطبين.

مارتا

بالله أتمزح أم تقول الجد؟

إبليس

(لنفسه) لم يبق إلا أن أغادر هذه الدار. فإنها تريد حتى الشيطان أن يتقيد بكلمة قالها.

«ملتفتاً إلى مرغريت» وأنت يا ابنتى كيف حال قلبك؟

مرغريت

ماذا تعنى أيها السيد؟

إبليس

(لنفسه) ما أطهر هذه النفس وما أطيبها!

(بصوت عال) فى رعاية الله يا سيدتى!

مرغريت

فى رعاية الله.

مارتا

لكن قل لى قبل أن تذهب! أنا لابد لى من الحصول على شهادة مكتوبة تنبئ عن اليوم الذى مات فيه زوجى والمكان الذى دفن فيه. فإنى امرأة تحب النظام والترتيب فى كل شىء وأريد أن ينشر نبأ وفاته فى الصحيفة الأسبوعية.

إبليس

ويحق لك هذا أيتها السيدة. وسأتى برفيق لى شهد معى وفاة زوجك - وسنتقدم بالشهادة أمام القاضى . وفى شهادة اثنين جلاء للشك وإظهار للحقيقة.

مارتا

إذن أحضره هنا .

إبليس

وهل نراك هنا أيتها الحسناء؟ إن صديقى فتى ظريف قد طاف أنحاء العالم؛ وهو يبدى لكل فتاة منتهى الأدب واللطف.

مرغريت

إنى أحمر خجلاً أمامك أيها السيد.

إبليس

مثلك لن تحمر خجلا أمام ملوك الأرض جمعيًا .

مارتا

سوف ننتظرك كلتانا هذا المساء بالحديقة التى خلف منزلى.

(١١)

فـى الـطـريـق

(فـاوسـت وإبـلـيـس)

فـاوسـت

هل قضى الأمر على ما نشتهى؟

إبـلـيـس

حبذا جمرة غرامك المشتعلة! عما قليل تمسى مرغريت فى حوزتك. واليوم ستراها فى بيت جارتها مارتا، تلك المرأة التى ما خلقت إلا لتكون قوادة. لكنها تطالبنا بشىء.

فـاوسـت

ما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

إبـلـيـس

تطلب منا أن نشهد أن زوجها المرحوم قد انتقل من العالم الفانى ونرى فى قبره المقدس ببلدة بادوا.

فـاوسـت

فكرة حسنة! لكن لابد لنا أولا أن نسافر إلى تلك البلدة.

إبليس

يا لهذه السذاجة! الأمر أيسر بكثير من هذا. فما عليك إلا أن تؤدى الشهادة من غير أن تعلم عن حقيقة هذا الأمر شيئا.

فاوست

إن لم يكن لديك رأى أحسن من هذا فقد فسد التدبير.

إبليس

يا لك من قديس ورع! أهذه أول مرة فى عمرك شهدت فيها زوراً وافتراء؟ ألم تكن تتكلم فى سالف عمرك عن الإله الخالق وعن العالم وما انطوى عليه من الأسرار. وعن الإنسان وما يدور بفكره أو يجيش بصدره.

ألم تكن تعرف هذا كله للناس وتصفه بكل جرأة ووقاحة. وأنت لو راجعت ضميرك لحظة لرأيت أنك لا تعلم عن هذه الأمور أكثر مما تعلم عن وفاة صاحبنا زوج مارتا.

فاوست

إنك كنت وما زلت أكذب الكاذبين وأكبر المضللين.

إبليس

أجل أنا وحدى الكذاب! أما أنت حين تلتقى غداً بمرغريت وتنصب لها حبائلك وتجذبها بسحرك وحيلك وتقسم لها أنك مشغوف بها حبًا.

فاوست

وهذا صدق لا مرية فيه.

إبليس

أجل ثم تحلف بعد ذلك أنك لن تحول عن هواها مدى الدهر. وأن وفاءك باق على مر السنين، وحبك أبدى دائم وعاطفتك فوق كل عاطفة. فهذا أيضا كله صدق لا ريب فيه.

فاوست

دع عنك هذا! أما إنى لأشعر بحب يتأجج فى صدرى وأحس عاطفة قد طغت على فكرى ولبى. وقد حرت كيف أُسمّى تلك العاطفة التى ملكت قيادى وسرت فى لحمى ودمى. فلما أعيتنى الحيلة ولم أجد فيما نعلمه من الألفاظ والعبارات كلمة أنعت بها ذلك اللهيب الذى يتقد فى جوانحى وصفته بالأبدى الدائم السرمدى. وهل هذا يشبه أكاذيبك وأباطيلك الشيطانية.

إبليس

إذن أنا مصيب.

فاوست

لا تطل الجدال وأشفق على رئتى! ما على من يريد الانتصار فى جدال غير أن يكون طويل اللسان والنفس. فهلم بنا فقد سئمت المناقشة. وإن أردت أن يكون الحق لك فليكن.

(١٢)

حديقة

مرغريت ممسكة بذراع فاوست - وخلفهما مارتا وإبليس
وكلهم يسيرون جيئة وذهابا

مرغريت

هيهات! إنى أعلم يقينا أن هذا اللطف الذى تبديه نحوى وهذا التواضع والتنازل لمخاطبة مثلى ليس إلا لتناهيك فى الكرم. ومن عادة السائحين أنهم يتلطفون بكل من يلاقونه فى سبيلهم. وهيهات أن يكون لك أدنى تسلية فى فتاة جاهلة مثلى.

فاوست

إنى لأجد من التسلية والطرب فى النظرة الواحدة من طرفك وفى الكلمة الساحرة من ثغرك ما لا أجده فى حكمة العالم أجمع (يقبل يدها).

مرغريت

بالغت فى التلطف. أترضى أن تقبل هذه اليد على ما بها من الخشونة والقبح؟ وما من عمل شاق لم أعمله بيدى هاتين. ناهيك أن أمى شديدة التدقيق والتقتير.

(يمضيان إلى ناحية أخرى)

مارتا

وأنت أيها السيد أما تنفك فى سفر وترحال.

إبليس

مكره أخوك لا بطل. إن حرفتنا الشاقة ومشاغلنا الجمة لا تتركنا لحظة فى راحة وأمان. وكم من بلد طيب يهواه القلب، وترتاح له النفس، أرغمنا جدًّا العاثر على أن نتركه آسفين محزونين.

مارتا

ربما قدرتم أن تعملوا هذا فى أيام الشباب وزمن الطيش. فتسيحون فى العالم وتتنقلون عن بلد إلى بلد. أما إذا حان الحين وجاء الشيب والهرم. ومات المسكين من غير أن يتزوج فهذا هو الشقاء الذى ليس وراءه شقاء.

إبليس

صدقت وأنا كلما أبصرت هذه العقبى استولى على رعب شديد.

مارتا

إذن لماذا لا تحتاط من الآن قبل أن تفوت الفرصة.

(يذهبان إلى الناحية الأخرى)

مرغريت

البعيد عن العين بعيد عن القلب، وإن منعك أدبك الجَّم عن أن تقر بهذا. وعما قليل تلتقى بأقرانك وأصحابك ومن هم أكثر منى ذكاء وعلماً.

فاوست

ثقى أيتها الحبيبة أن ما يسميه الناس ذكاء وعلماً ليس فى الغالب إلا غروراً وحمقًا.

مرغريت

أصحيح ما تقول؟

فاوست

ليت هذه السذاجة الطاهرة تبقى أبداً جاهلة بنفسها وبقدرها الأسنى! اللهم إن صفة الاستكانة والضعة هى أعلى وأغلى ما وهبته الطبيعة الحكيمة لبنى الإنسان.

مرغريت

عساك تذكرنى وتفكر فى من حين إلى حين. أما أنا فلدىَّ للتفكير فيك ساعات طوال.

فاوست

أكثيراً ما تكونين وحيدة من غير رفيق ولا أنيس؟

مرغريت

إن دارنا، على صغرها، تحتاج إلى الكثير من التعهد والعناية. وليست لنا خادم تساعدنى. فتراني لا أنفك أعمل وأدأب وأجرى ههنا وههنا فى الصباح والمساء. وأمى كثيرة التدقيق والتقتير، وطاعتها فرض. ومع هذا فلسنا بحاجة شديدة إلى الاقتصاد والتقشف فى المعيشة. وفى قدرتنا أن نعيش فى سعة أكثر من غيرنا. فإن أبى قد ترك لنا إرثاً حسناً وداراً صغيرة فى ظاهر المدينة تحف بها حديقة جميلة.

على أنى الآن فى راحة أكثر من قبل. فأخى انتظم فى الجندية وشقيقتى الصغرى توفيت. وبرغم ما كانت تسبب لى من النصب والعنــاء أتمنى لو رجعت إلىّ وعــادت إلى تعذيبى من جديد. فلقد كانت قرة عين لى.

فاوست

لئن كانت تشابهك فهى – ولا ريب – ملك من أطهر الملائكة.

مرغريت

لقد توليت أمر تربيتها من يوم ولادتها. فنشأت على حبى والتعلق بى. وكانت ولادتها بعد موت أبى بقليل. وأمى حينذاك سقيمة قد اشتد بها المرض حتى يئسنا من شفائها. إلى أن أنعم الله وزال عنها الضر شيئا فشيئا. فكانت من الضعف بحيث لم تقدر على الإرضاع. فانفردت أنا بتعهد الطفلة ورعايتها؛ فكنت أسقيها اللبن ممزوجا بالماء؟ وكنت ألاعبها وحدى وأداعبها. وأحملها بين ذراعى حينًا وفى حجرى حينًا، حتى نمت وترعرعت.

فاوست

فكانت لك فى هذا السعادة الكبرى.

مرغريت

أجل. وإن لم يخل الأمر من بعض التعب والمشقة. فقد كان مهدها بجانب فراشى.

فإن آنت بأقل حركة انتبهت من نومى وانصرفت إليها لأرى أى شىء تحتاجه. فحينًا كنت أسقيها اللبن وحينًا كنت أرقدها بجانبى. فإن لم تسكت اضطررت للنهوض من مضجعى فأحملها بين ذراعى وأرقص بها فى الغرفة حتى تسكن وتهدأ.

ثم لابد لى بعد هذا من التبكير لغسل الثياب والذهاب بعد ذلك إلى السوق لشراء حاجات البيت. ثم أعود فأنهمك فى تأدية أعمال المنزل. وهكذا تمضى الأيام تباعا. ما أشبه الليلة بالبارحة. وحبذا لو كان للإنسان الجلد دائما على تحمل كل هذا. على أنه بعد التعب والجهد يحلو للمرء طعامه ويدرك لذة الراحة.

(ينصرفان إلى الناحية الأخرى).

مارتا

ما أشقى حظ النساء وما أكثر ما يعانون إذ يحاولون إرشاد الرجل الأعزب إلى السبيل الأقوم والطريق الأرشد.

إبليس

سهل على مثلك إرشادى وهدايتى إلى ما هو خير وأمثل.

مارتا

إذن قل لى ! ألم تهتد بعد إلى شىء ما؟ ألم يرتبط قلبك بعلاقة فى بلد من البلاد؟

إبليس

ما زلت أذكر المثل المشهور؛ الدار الفسيحة والزوجة المليحة هما أثمن من الدر والذهب.

مارتا

لكنى أريد أن أسألك : هل اشتهيت مرّةً فى عمرك؟

إبليس

كنت محبوبا فى كل مكان، مكرمًا حيثما نزلت.

مارتا

ولكنى أردت أن أعرف إن كان قلبك لم يداخله هوى قط؟ هوى حسبته هزلا فصار جدًا.

إبليس

أرى أن الهزل مع السيدات من أكبر السيئات.

مارتا

أف! إنك لم تفهم ما عنيت.

إبليس

يسوءني هذا جدا. لكني فهمت ولاشك أنك من أطيب النساء قلبًا.

(يمضيان إلى الناحية الأخرى).

فاوست

إذن قد عرفتني أيها الملك الصغير بمجرد دخولي هذه الحديقة.

مرغريت

ألم تلاحظ أني أغمضت عينيَّ حياء إذ أبصرتك قادمًا؟

فاوست

وهل تصفحين عن تلك الجرأة والقحة اللتين دفعتاني إلى مخاطبتك والتعرض لك عند خروجك من الكنيسة؟

مرغريت

لقد دهشت وحرت في أمري. ومثل هذا الأمر ما حدث لي من قبل. وما من أحد يقدر أن يتهمني بسوء. فسألت نفسي: ليت شعري كيف تجرأ أحد على مخاطبتي وأنا سائرة في طريقي، اللهم إلا أن يكون في مشيتي ومسلكي خفة وتهتك حتى تجاسر ذلك الغريب وأقدم يريد العبث بي. وأقول لك الحق إني حين خطر لي هذا الخاطر بت حانقة على نفسي وشغلت بتأنيبها وتوبيخها عن لومك أنت وتأنيبك.

فاوست

أيتها العزيزة!

مرغريت

دعني لحظة.

(تنحنى فتقطف أقحوانة ثم تنتزع وريقاتها الواحدة بعد الأخرى)

فاوست

ماذا تصنعين؟ هل تجمعين باقة زهر؟

مرغريت

لا! إن هذا على سبيل اللهو واللعب.

فاوست

وكيف هذا؟

مرغريت

انتظر لئلا تسخر مني.

(تنتزع وريقات الأقحوانة واحدة واحدة وهى تهمس وتهمهم).

فاوست

بماذا تهمسين.

مرغريت

(بصوت مسموع وهى تنزع الوريقات) يحبني! لا يحبني.

فاوست

لله هذا المحيا السماوى البديع!

مرغريت

يحبني! لا يحبني! يحبني! لا يحبني.

(تنزع الورقة الأخيرة وتقف مسرورة).

يحبني!

فاوست

آجل أيتها الحبيبة. فاعتـبري ما أبدته لك وريقات هذه الزهــرة وحيًا سماويًا، وفألا صادقًا! فهل تفهمين معنى هذا: إنه يحبك ويهواك.

(يمسك بكلتا يديها).

مرغريت

أراني أرتعد.

فاوست

وعلام ترتعدين؟ ليكن من نظرى إليك وإمساكى براحتيك ما ينبئك عما يعجز عن ذكره اللسان. لنسلم أنفسنا إلى غرام شديد نحسه وننعم به. غرام يجب أن يبقى نعيمه إلى الأبد. غرام لا حد له ولا نهاية. فإن انتهاءه جزع قاتل وكمد ساحق. يجب ألا تكون له نهاية ولا يكون له آخر.

(تضغط مرغريت على يديه ثم تتركه وتجرى مسرعة. فيقف مفكرًا لحظة ثم يتبعها).

مارتا (داخلة هى وإبليس).

لقد خيم الظلام.

إبليس

صدقت وأن وقت رواحنا.

مارتا

بودى أن تطول إقامتكما فى هذا البلد، لولا أنه مكان ردىء. فالناس هنا من ذلك الصنف الذى لا شغل له إلا التجسس على الجيران ومراقبة حركاتهم وسكناتهم؛ ثم التحدث عنهم بما لم يعلموا. ترى أين ذهب فتانا وفتياتنا؟

إبليس

هما كزوج القطا يمرحان هناك ويسرحان.

مارتا

أراه يحبها كثيراً.

إبليس

وهى تحبه. هكذا يدور الفلك.

(١٣)

كوخ صغير فى موضع آخر من الحديقة

(تدخل مرغريت الكوخ وتختبئ خلف الباب واضعة أصبعها على ثغرها وهى تنظر من الثقب)

مرغريت

هاهو آت!

فاوست

(داخلا) ويلك: أهكذا تعبثين بى؟

(يرى مرغريت) أأنت هنا؟ (يقبلها).

مرغريت

(تعانقه وتقبله ثانية) أحبك من صميم قلبى.

(إبليس يقرع الباب)

فاوست (مغضبا)

من الطارق؟

إبليس

صديق.

فاوست

حيوان أهجم.

إبليس

أذن وقت الرجوع.

مارتا (داخلة)

أجل أيها السيد لقد تأخرتما.

فاوست

هل لى أن أصاحبك إلى منزلك؟

مرغريت

ستجئ أمى لتأخذنى معها. فاذهب أنت فى رعاية الله.

فاوست

إن كان لابد من الذهاب، فابقى فى حماية الله.

مارتا

تصحبك السلامة.

مرغريت

إلى الملتقى القريب.

(يخرج فاوست وإبليس)

مرغريت

تباركت اللهم! أى شىء فى العالم لم يحط به هذا الرجل الخطير علما؟ وأنا أمامه كالحجر الأصم لا أقدر على الكلام وأجيب عن كل سؤال بنعم! ماذا يحببه فىَّ وما أنا إلا فتاة جاهلة ساذجة.

(١٤)

غابة وغار

فاوست[١]

أيها الروح الجليل، الذى غمرنى بالهبات وأنالنى كل ما سألته! ما كان عبثًا أن أريتنى محياك من قبل وسط شواظ من نار، فقد أحدقت بى بعد ذاك نعمك ومنحك. جعلت هذا الكون لى ملكا، ووهبتنى القدرة على التنعم بطيباته والإحاطة بأسراره. وكشفت لى الغطاء عما انطوى فيه من العجائب، وكمن فى أعماق صدره من البدائع الخفية.

وعرضت أمام عينى جماهير المخلوقات فأطلت التحديق فيها، وتعلمت كيف أحبها وأحنو عليها. وكيف أعطف على إخوتى وذوى قرباى. تلك الأرواح العديدة التى تسبح فى الماء وتحلق فى الهواء وتدب على أديم الثرى.

تعاليت أيها الروح! كم جنَّبتنى المهالك! وسلكت بى أسلم المسالك. وكم كشفت عنى من غمة وأنرت لى السُّبل. فإن عصفت العواصف، وأخذت الزوابع تزأر وتزمجر، فاجتثت دوحا من أصولها. وقذفت بها فوق الدوح الآخر فحطمتها ومزقتها.

---

(١) فى هذا المنظر يعود فاوست إلى طلب العزلة، فهو لا يميل إلى الشر قليلا حتى تعود إليه نزعته إلى الخير. وهو فى هذا المنظر يناجى الروح - روح الأرض - مناجاة لا يفسرها ماضى القصة. وربما كان سبب هذا أن المؤلف كان يريد أن يجعل للروح دورا أكبر فى القصة. ثم عدل عن هذه النية. وبقيت قطع صغيرة تدل على ما كان يريده.

وكان لسقوطها دوى وزئير يتردد صداه بين الجبال والوديان. انتشلتنى أنت من بين هذه الأخطار. وأويتنى إلى كهف أمين وركن ركين.

ثم كشفت لى الغطاء عن دخائل نفسى، فبدا لعينى ما كان كامنا فى صدرى من الأسرار والآيات الخفية.

ولقد أنظر إلى البدر المنير إذ يصعد فى السماء مرسلا إلى العالم تلك الأشعة التى تسكن الروع وتشرح الصدر. هنالك تسبح إلىَّ من بين جلاميد الصخر ومن بين الأحراج الرطبة أشباح فضية تمثل الأزمنة الغابرة، فيهدى خيالى الثائر وفكرى الهائج المضطرب.

والآن أحس وأعلم أن ليس شىء كامل متاح لبنى الإنسان. فإنك أيتها الروح تفضلت فغمرتنى بتلك السعادة، ورفعتنى إلى هذه المرتبة التى قربتنى من الآلهة وأدنتنى من مقامهم الأسمى. لكنك ألزمتنى صحبة ذلك الرفيق الممقوت فبت أرانى ويا للأسف وليس لى عنه غنى. ولا أستطيع إبعاده عنى. وإنه ليقف بإزائى ساخرا منى واضعًا من قدرى أمام نفسى. ولقد يفوه بالكلمة الواحدة فيفسد علىَّ كل ما منحتنى وأجزلت لى من الهبات.

أثار فى نفسى الشهوات الخامدة. وأوقد فى قلبى نار عشق متأججة لتلك الصورة المليحة. فأمسيت وما تنفك نفسى تتوق إلى اللذات؛ حتى إذا نالتها ثارت تطلب سواها، وتصيح هل من مزيد؟

(يدخل إبليس)

إبليس

أتراك قد قضيت وطرك من الحياة وبلغت كل ما تشتهيه؟ لكن أما تظن أنك على مر الزمان ستسأم مثل هذه الحياة؟ إنه لا بأس فى أن تجرب هذه الحال مرة، لكن لابد لك بعدها من السعى وراء شىء جديد.

فاوست

وددت لو كان لك من شئون هذه الدنيا ما يشغلك عنى وأنا فى أسعد أوقاتى.

إبليس

لعمرى ليس بشاق على أن أتركك وأمضى إن كنت تجدّ فى الحديث. ولن تكون خسارتى جسيمة بترك رفيق وقح فظ أبله مثلك.

أنسيت أنك تكلفنى من العناء والنصب ما يشغلنى آناء الليل وأطراف النهار. ثم أراك بعد ذلك وقد انقلبت سحنتك، واستحال على المرء أن يعرف أى شىء يرضيك وأى شىء يغضبك؟

فاوست

تلك لهجته الصادقة! يريد منى أن أشكره على تعذيبه ومضايقته لى.

إبليس

ويك يا سليل التراب، أى عيش كنت تعيشه من غيرى؟ ألم أنقذك، ولو إلى حين، من وساوسك وأوهامك؛ ألم أكبح لك جماح خيالك الكثير الشطط؟ ولولاى لكنت فارقت هذه الكرة الأرضية منذ زمان.

ماذا يعجبك من الثواء وسط الكهوف والأحجار، كأنك البومة فى الوحشة والوحدة؟ أتريد أن تعيش كالسلحفاة فتسكن وسط الحشائش وتمتص غذاءك من الطحلب والطين؟ يا لها من تسلية حلوة جميلة ! لعمرى إن روح الدكتور لم يزل بعد فى جسدك!

فاوست

مثلك لا يدرى أى قوة جديدة أكتسب من تجوالى فى هذه الأماكن المقفرة، ولو كنت تدركها لأبت عليك شيطانيتك أن تتركنى أتمتع بها.

إبليس

أما إنها للذة سماوية جليلة: أن ترقد فوق الصخور ملتحفًا سواد الليل، تتساقط عليك قطرات الندى! ثم تمد ذراعيك لتعتنق بهما الأرض والسماء. وتنتفخ وتتعظم حتى تحسب أنك صرت ربا من الأرباب، ثم تنفذ إلى لب الأرض وباطنها. وتحس أن صدرك قد وسع العالم أجمع واحتوى كل ما صنعه الخالق فى ستة أيام. ثم ترتقى بك كبرياؤك فتشعر بلذات لا توجد إلا فى مخيلتك. وسرعان ما تفيض روحك وتسرى فى سائر الكائنات فتحس أنك قد بلغت أقصى مراتب السعادة.

ثم تختم هذا الإلهام السماوى (يعمل بيده إشارة غير حسنة) بالأمر الذى لا يصح أن أفوه به.

فاوست

اخسأ! قبحًا لك.

إبليس

أنت تأنف بالطبع من ذكره هذه الأشياء. ويحق لك أن تستقبحها وتقول لى اخسأ! يجب علينا ألا نذكر لذوى الآذان العفيفة تلك الأمور التى تشتهيها نفوسهم العفيفة!

والخلاصة : أننى لا أريد أن أحرمك لذة هذا الانزواء من آن لآن لكى تخدع نفسك وتغرر بها كما تشاء؛ لكنى إخالك هذه المرة قد بلغت الغاية. ولئن دام لك مثل هذا العيش فإنه سائقك ولاشك إلى الجنون أو إلى الرعب والفزع.

فحسبك وارجع عن هذا. واذكر أن فى المدينة حبيبتك، التى أمست حليفة الكمد والوجد؛ وقد بات ذكرك لا يبرح خاطرها بعد أن تيمها حبك وامتلأ قلبها غرامًا بك.

بالأمس كان قلبك يطفح حبًا وهيامًا. وسيل غرامك قد طما وعلا كما تفيض الجداول إثر ذوب الجليد. ففاض الحب من قلبك إلى قلبها حتى أمسى فؤادها مفعما. وكأس غرامها مترعة؟ وها أنت اليوم قد نضب معين هواك.

فيا ليت شعرى أليس الأجمل بك أيها المولى! - بدلا من هـذا العظم والتعـاظم بين الكهوف والغابات - أن تكافئ تلك الفتاة على حبها بمثـله وتجازى الجميل بالجميل؟

لقد باتت وساعات وحدتها طوال. فهى تقف لدى النافذة ترقب السحب وهى تعدو فى السماء مبتعدة إلى ما وراء أسوار المدينة. ثم تحاول أن تخفف آلامها بأنشودة تغنيها فلا يزداد صدرها إلى حرجًا.

وهكذا تقضى أيامًا طوالاً وليالى أطول مابين سرور قصير المدى وحزن طويل الأمد وبكاء كاد ألا يترك فى مآقيها قطرة. وهدوء وسكون ظاهرين من ورائهما حب مضن وهوىً مبرِّح.

فاوست

ويك أيها الحية الرقطاء!

إبليس

(لنفسه) ها قد بت فى قبضة يدى.

فاوست

اخسأ أيها اللعين! ولا تذكر هذه الحسناء أمامى! احذر أن تثير حواسى المشرفة على الجنون. وتهيج فىَّ الرغبة إلى ذلك الجسد الغض.

إبليس

إذن كيف التدبير؟ إنها باتت تحسبك قد هربت وهجرتها. ويوشك ظنها أن يكون صدقا.

فاوست

أنا منها قريب وإن بعد بيننا المزار. ولن يبرح ذكرها من خاطرى أبداً. ألا إنى لأحسد جسم المولى حين تلمسه شفتاها[1].

إبليس

إى وأبيك! وأنا طالما حسدتك على هاتين الوردتين الناضرتين.

فاوست

اخسأ أيها القواد!

إبليس

حسنا! إنك تسبنى، وأنا لا يسعنى إلا أن أضحك منك. يا سبحان الله! أتسب المهنة الشريفة التى لا تعادلها مهنة؟ ونسيت أن الله قد خلق الذكر والأنثى!

أرى الحزن قد أخذ منك كل مأخذ حتى بت تتوهم أن ذهابك للقاء حبيبتك كذهابك إلى القبر.

فاوست

إنى لأجد بين ذراعيها نعيم السماء وعلى صدرها حرارة الحياة. لكنى برغم هذا أحس ما هى فيه من بلاء وعذاب.

يا ويلى. لقد أصبحت ذلك الشريد الطريد، بل ذلك الوحش البشع الذى لا راحة له فى الأرض ولا مأرب. والذى غدا مثل السيل الجارف يتدفق من صخر إلى صخر مندفعا بقوة إلى هاوية سحيقة!

---

(١) إشارة إلى شعار من شعائر المسيحية وجسم المولى هو الخبز المقدس.

كانت عنى بمعزل . عائشة وسط جدران كوخ صغير قد انحصرت فيه آمالها وآلامها . فكأنما هى فى عالم صغير محدود . فجئت أنا الذى حل به سخط الآلهة ولم يكفنى أن مزقت الجنادل وحطمت الصخور . فلم أرض حتى قذفت بها على تلك البائسة فدمَّرت بناء سعادتها!

فيا أيها الجحيم! ما كان أغناك عن مثل هذا القربان!

أيها الشيطان أعنِّى على تقصير أمد هذا الشقاء وإن كان نزول البلاء ضربة لازب فلينزل سريعا! ولتحل بى أنا أيضــا تلك الكــارثة التى ستــنزل بها حتى يقضــى علينا جميعا .

إبليس

ها قد اشتعلت نارك ثانيا وغلت مراجلك! أليس الأولى بك أيها الأحمق أن تسارع إلى منزلها وتأخذ فى ملاطفتها وتسليتها . يا عجبا لك! أكلما عجز مخيخك هذا عن التدبير ظننت أن الطريق قد انسدت والحيــل قد نفدت؟ وهل العيـــش إلا للجرىء الباسل؟

إنك قد أصبحت نصف شيطان. وأنا لا أجد فى العالم شيئًا أسمج منظرًا من شيطان يدركه اليأس والجزع.

(١٥)

حجرة مرغريت (مرغريت جالسة تغزل)

مرغريت[1]

أنا - صبحي ومسائي
في عذاب وبلاء،
وا عنائي! وا شقائي!
هل لدائي من دواء؟
كيف لا يشتد خطبي
كيف لا يزداد كربي
كيف لا يحزن قلبي
وحبيب القلب ناء؟
بان صفو العيش عني
قرَّح التسهيد جفني؛
لم يسكِّن نار حزني
دمع عيني وبكائي

(١) هذه الأنشودة مترجمة بتصرف.

قــد نبــا عنى الرقــاد
وبرى جـسـمى السـهـاد
آه ! قـد طال البـعـاد
وشـقـائى فى اللقـاء

فـمـتى يسـمح دهرى
ويـرينى وجــه بـدرى
قــد أضلَّ الحبُّ فـكرى
والهوى أعضل داء.

أو مـا يدنو الحـبـيب
فـأرى العـيش يطيب؟
الهـوى أمـر عـجـيب
منه سقمى ودوائى.

مـا أحـيـلاه إذا مـا
ثغـره أبدى ابتـسـامـا !
قـد حكى البـدر التـمـامـا
فى سنـاء وبهـاء

آه لو أشـفى بلثـمـه
منه أو أحظى بضـمَّـه !
ثم يقـضى الدهر حكمـه
بهـلاكى وفنائى.

(١٦)

حديقة مارتا[١]

مرغريت

عدنى يا هنرى!

فاوست

كلّ ما أقدر عليه!

مرغريت

قل لى ما رأيك فى الديانة؟ لست أنكر أنك من أطيب الناس وأحسنهم. لكنى أخشى أن تكون قليل الإيمان.

فاوست

دعى هذا يا حبيبتى! أنت ترينني متيما بك؛ أود أن أبذل من أجل حبك لحمى ودمى. وما أريد لعمرى أن أسلب أحدا دينه ومعتقده.

مرغريت

هذا خطأ! يجب على الإنسان أن يؤمن بالدين!

---

(١) فى هذا المنظر حاول «غوتيه» أن يكشف قليلاً عن معتقده الدينى. ولعل بعض ما جاء فيه هو من تجاربه الشخصية.

فاوست

يجب؟

مرغريت

ليت لى عليك بعض النفوذ؛ إذن لجعلتك تعظم الشعائر الدينية وتبجلها.

فاوست

أنا أبجلها.

مرغريت

لكن من غير حميَّة ولا غيرة؛ وعهدك بالاعتراف والصلاة بعيد.

قل لى : هل تعتقد وتؤمن بالله؟

فاوست

أيتها الحبيبة! من ذا الذى يستطيع أن تبلغ به الجرأة والقحة أن يقول «أنا أعتقد بالله» ولئن سألت القساوسة والحكماء فما يكون جوابهم إلا عبارات مبتورة غامضة كأنها ازدراء بالسائل وسخرية منه.

مرغريت

إذن فأنت لا تؤمن بالله؟

فاوست

لا تسيئى فهم أقوالى أيتها الحبيبة. أى الناس يقدر أن ينطق باسمه؟ وأيهم يستطيع أن يقول : «أنا أؤمن به» وأى الورى يحس ويبصر، ويسمع ويعى، ثم يجرؤ أن يقول: «أنا لا أؤمن به»؟ ذلك القابض على كل شىء والممسك لكل شىء؟ أليس هو الممسك

لى ولك ولنفسه! أما تنظرين إلى السماء كيف رفعت وإلى الأرض كيف سطحت؟ وإلى هذه النجوم الزهر تسبح فى السماء؛ مرسلة ضياءها الأبدى المحبوب؟ ثم إذا أطلت التحديق فى عينيك فأرنو إليك وتنظرين إلى. ثم لو تأملت بما تحسِّينه من مختلف الشعور وما يخامر فكرك من الخواطر والظنون وما يحيط بك من الأسرار الأبدية؛ وهى حينًا تخفى وحينا تظهر؛ وطورًا هى جلية واضحة وطورًا مبهمة غامضة. فمن هذا كله فاملئى قلبك حتى يطفح بتلك السعادة، ويستنير بذلك النور. وعندئذ فلتسمِّيه كما تشائين، ولتدعيه بما يحلو لك من الأسماء: السعادة أو القلب أو الحب أو الرب.

أما أنا فما له اسم عندى، وكل همِّى أن أحسه وأستشعره. فالشعور هو كل شىء. وما الاسم إلا صدى لا طائل تحته. أو غمام يستر عن أبصارنا محيا الشمس البديع.

مرغريت

هذا كله حسن وجميل، ويكاد أن لا يختلف عما يقوله القسيس إلا فى طريقة التعبير.

فاوست

هذا ما يقال فى كل أرض وتحت كل سماء. هذا ما يحسه كل قلب ويخطر بكل فكر. ولكل لغة يؤدى بها مقصده. فلم لا تكون لى لغة أبين بها عن قصدى أسوة بالآخرين؟

مرغريت

حين أسمع كلامك يخيل إلى أن ليس فى كلامك بأس، لكنى ما زلت قلقة لأنى أرى قدمك فى المسيحية غير راسخة.

فاوست

ولم أيتها الطفلة العزيزة؟

مرغريت

إنى لأتألم أشد الألم كلما رأيتك فى صحبة ذلك الرجل!

فاوست

ومن تعنين؟

مرغريت

ذلك المخلوق الذى يصحبك فى غدواتك وروحاتك؛ إنى أرانى أبغضه كل البغض. وما ألمت فى حياتى لشىء ألمى لرؤية وجهه الكريه.

فاوست

أيتها الطفلة العزيزة لا تخافيه.

مرغريت

إنى وإن كنت لا أبغض أحدا من الناس، غير أنى لا أكاد أبصر هذا الرجل حتى يغلى الدم فى عروقى. وعلى شدة اشتياقى لرؤيتك فإنى أنفر منه وتألم عينى لمرآه. لهذا ترانى أعده من السفلة الأشقياء.

ويعفو الله عنى. إن كان أخطأ ظنى.

فاوست

لابد أن يكون فى العالم أناس لا يسرك مرآهم.

مرغريت

إنى لأكره أن أعيش مع مثله: ولو تراه إذ يدخل من الباب وعلى وجهه تارة علائم السخرية والازدراء، وطوراً يعلو وجهه العبوس والتقطيب. فمن الواضح الجلى أنه

لا يأبه لأمر. وكأنما كتب على جبينه أنه ليس أهلا للحب ولا الثقة. وليس ممن تدخل الرحمة فؤادهم. وبقدر سروري وانشراح صدري للقائك وعناقك أحزن ويضيق صدري حين أراه.

فاوست

لله أنت من ملك ثاقب النظر!

مرغريت

لقد بلغ من بغضي له أني لو رأيته قادما علينا لملأ الرعب قلبي حتى ليخيل إليّ أني لم أعد أحبك أنت أيضا.

وكم حاولت أن أصلي وهو موجود فلا أستطيع، فيزداد غيظي منه وحنقي عليه. وأعجب كيف لا تحس أنت مثل الذي أحسه.

فاوست

أنت قد أشرب قلبك بغضه.

مرغريت

والآن لابد لي من العودة.

فاوست

أما أستطيع أن أجتمع وإياك سويعة في هدوء وصفاء. فأسند صدري إلى صدرك وروحي إلى روحك؟

مرغريت

لو كنت أسكن وحدي، لجعلتك تزورني هذا المساء لكن أمي تنام معي؛ وهي إن رقدت فسرعان ما تستيقظ ولو صادفتنا معا لكان في ذلك شقائي وهلاكي.

فاوست

الخطب يسير! دونك هذه الزجاجة فضعى منها قطرتين أو ثلاثًا فى شرابها ترقد بعدها رقادًا هنيئًا.

مرغريت

إنى أفعل من أجلك كل شىء؛ وعسى ألا يصيب أمى من جراء هذا أى ضرر!

فاوست

وهل كنت أرضاه لو كان فيه ما يضرها؟

مرغريت

إنى كلما نظرت إليك لا أعرف أى قوة تجعلنى طوعا لإرادتك؛ وقد ضحيت من أجلك كل شىء حتى لم أعد أجد ما أفعل من أجل حبك.

(تخرج)

(يدخل إبليس)

إبليس

هل ذهبت الثرثارة؟

فاوست

أعدت إلى التجسس؟

إبليس

سمعت كل شىء. ورأيتك أيها الأستاذ وأنت واقف أمامها موقف التلميذ. وهى تحيرك بأسئلتها الدقيقة. ولعل هذا قد أفادك.

البنات يهمُّهن جدا أن يعرفن إن كان الرجل تقيًا ومطيعًا لأوامر الدين. ويقلن فى أنفسهن: إن يطأطئ رأسه للدين يطأطئ رأسه لنا!

فاوست

تبًا لك ولما يخطر بخاطرك الجهنمى! ألا ترى ويلك أن تلك الروح الزكية قد امتلأت بالإيمان وترى فيه وحده أقصى السعادة، فتتألم أشد الألم إذ ترى من تحبه عاريا من التقوى والإيمان؟

إبليس

أنت أيها الرجل الشهوانى الجليل أصبحت تقتادك طفلة من خطام أنفك.

فاوست

إخسأ يا سليل النار والدنس!

إبليس

أرأيت كذلك ما لها من قوة الفراسة؟ فهى فى حضرتى تحس شيئا لا تعرف ما هو، وترى أن من وراء قناعى هذا أمرا خفيًا. وهى تظن رغم هذا أنى عبقرى: بل أنى ربما كنت الشيطان بعينه.

والآن فى هذه الليلة.

فاوست

هذا أمر لا يعنيك.

إبليس

بل لى فيه من السرور نصيب.

(١٧)

لدى البئر

مرغريت وليزا تستقيان وبيد كل منهما جرة

ليزا

هل أتاك حديث (باربارا) وما فعلت؟

مرغريت

لا! لم يبلغ مسمعى عنها شىء. وأنا قلما أختلط بالناس.

ليزا

اليوم أنبأتنى بأمرها (سيبل). لقد قضى الأمر، وسقطت إلى الهاوية بعد أن كانت تشمخ علينا بأنفها تيهاً وغروراً.

مرغريت

ولكن ماذا حدث؟

ليزا

أمست والطعام الذى تأكله يغذى اثنين!

مرغريت

رباه!

ليزا

إنها لقيت جزاء ما كسبت يداها. ألم تكن تكثر الغدو والرواح مع ذلك الفتى: فيغشيان كل مكان، ويرقصان فى كل ناد؛ وكانت سباقة إلى كل ملهى وملعب. أبداً تريد أن تكون الأولى. ولطالما كان يتحبب إليها بأطباق الحلوى وكؤوس الخمر. وهكذا لعب الغرور بقلبها وغدت تحسب نفسها من الغوانى الحسان، وباتت من القحة والضعة بحيث لم تكن تستحى أن تتقبل منه الهدية إثر الهدية. ثم كان تقبيل وتجميش، ثم انثنت وقد غادرتها الزهرة اليانعة.

مرغريت

وآهاً للمسكينة!

ليزا

أو تهزك عليها عاطفة رحمة؟ حين يجن الليل تجلس كل فتاة مثلى ومثلك إلى مغزلها ولا تسمح لنا الأم أن نغادر الدار. أما هى فكانت تقضى الليالى مع خليلها وعزيزها يجلسان على المقاعد فى الطرق المظلمة لا يكترثان لمرِّ الساعات الطوال. والآن فلتنزع عنها ثوب الكبر والغرور! ولتبادر إلى الكنيسة مرتدية لباس الذل والضراعة وهناك فلتكفر عن آثامها!

مرغريت

لكنه لابد سيتخذها حليلة.

ليزا

إذن يكون من السذَّج البله. وجدير بشاب مثله أن يجد فى فسيح الأرض مضطرباً ومجالا. ولقد علمت أنه لاذ بالفرار.

مرغريت

لعمرى لقد أساء صنعًا.

ليزا

وهبى أنه تسنى لها الزواج به! فلن تزداد حالها إلا سوءًا؛ فهؤلاء شباب القرية قد آلوا على أنفسهم ليمزقُنّ الإكليل عن رأسها. ولينثرن التبن على باب دارها[1].

(تخرج ليزا)

مرغريت

(وحدها وهى تتأهب العودة).

يا ويلى! كيف ساغ لى فى سالف عمرى أن أبدى السخط والغيظ من كل فتاة مسكينة زلت بها القدم! وكنت لا أجد من الألفاظ ما به أبين مبلغ حنقى وكرهى لما يرتكبه الناس من الأوزار. كان منظر الإثم يبدو لعينى أسود حالكا كريهًا، وكنت أنزِّه نفسى عن السقوط لمثل هذا الدرك الأسفل.

واليوم أمسيت يا لتعسى. وأنا الرذيلة بعينها والإثم مجسمًا.

ولكن رباه رحماك! ألم يدفعنى إلى كل ذلك دافع جميل؟ دافع عذب لذيذ.

---

(١) هذه عادة قديمة فى بعض جهات ألمانيا على سبيل التشهير بمن لم تحتفظ بعفافها قبل الزواج

(١٨)

عند سور المدينة

(فى إحدى زوايا السور – فى شبه محراب – تمثال للعذراء الحزينة[١] Mater Dolorosa وأمام التمثال أوانى الزهر).

(مرغريت تضع أزهارها فى الآنية وتناجى العذراء)

رُحماكِ عطفًا ! وارثى لحالى !
قد هدَّ ركنى صرفُ الليالى
فألهمى مهجتى عزاء وأنقذينى من الوبال !
قد ذقت قدمًا مُرَّ الخطوب
كم من شقاء ومن كروبِ !
عانيت زرءًا وأى زرء إذ فتكوا بابنك الحبيب.
عرفت ماذا طعم الهمومِ
وكيف تُبْلى جسم السليمِ
هبى لقلبى الكليم نصرًا من قلبك المشفق الرحيمِ !

(١) هو تمثال يمثل العذراء ناظرة إلى المسيح وهو مصلوب. وهو تمثال معروف شائع فى البلاد الكاثوليكية.

يا ويل نفسي   لما رماني
صرف الليالي   وما ابتلاني !
عذراء ! رحماك أنقذيني !   فأنت أدرى بما أعاني.
يا طول حزني   ويا لكربي !
ما بين صدري   وبين جنبي
أحس شيئاً . وأحرّ وجدي   قد ضل عقلي وجُن لبي.
قرَّحت جفني   من النحيب
وليس يطفي   جوى اللهيبِ
وكم سقيت الأزهار هذي   من مدمعي المسبل الصبيب
أقضي الليالي   بلا رقادِ
كأن فرشي   من القتاد
رحماك ! إني أقضي حياتي   حليفة النوح والسهادِ
أنت ملاذي   فأنقذيني
من البلايا   وأدركيني
العار والموت أحْدقا بي   رحماك رحماك خلصيني !

(١٩)

فى ظلام الليل

أمام منزل مرغريت. الجندى فالنتين شقيق مرغريت

فالنتين

ويلى عليك يا مرغريت! لقد كنت لى بالأمس باعث فخار وشرف، وكنت أرفع رأسى تيهًا بك وإعجابًا.

لهفى على العهد الماضى! إذ أجلس وأصحابى حول مائدة الشراب، مصغيا لأحاديثهم وقصصهم، فيملأ كل منهم ماضغيه فخرًا، ممجدًا الفتاة التى يمت إليها بسبب، فيرفع من ذكرها، ويعلى من قدرها. ثم يتناول الكأس مترعة فيشرب نخبها وقلبه مفعم سرورًا وزهوًا.

كنت أنظر إليهم ساكنًا هادئًا، متكئا على ذراعى أعبث بلحيتى متبسما، حتى إذا انتهوا من قصصهم ومن تيههم وفخرهم، تناولت أكبر الأقداح فأترعته رحيقًا وقلت لهم: «أنتم وما جعل لكم، ولكل حظه ونصيبه. لكنى أناشدكم الصدق: هل فى البلاد كلها فتاة تعادل مرغريتتى إخلاصا وطهرًا؟ بل هل فى البلاد من تليق لأن تقدَّم لها قدح الماء؟».

كنت إذا ألقيت عليهم السؤال أخرست ألسنة المادحين والفاخرين، وقال الآخرون: «إنه لصادق، فهى زين نساء العالمين».

كان هذا شأني بالأمس. أما اليوم فما أولعني بأن أنتزع شعرى من جذوره وأحطم رأسى ضربًا فى الصخر من هول ما أسمعه من وخز الملام وقسوة التأنيب وما يرمينى به أقرانى من أليم التهم - إن تصريحًا أو تلميحًا - وأنا جالس بينهم أتصبب عرقا كأنى مجرم أثيم.

ولعمرى ما أقدرنى على مقاتلتهم وقتلهم! ولكن ما أعجزنى عن تكذيبهم وتفنيد مزاعمهم!

أرى شبحا قادما يسير الهوينا. إن صدق ظنى فهما اثنان، ولئن يكن هو أحدهما فسأنقض عليه إنقضاض الصاعقة، ولن يغادر هذا المكان حيًا.

(يدخل فاوست وإبليس)

فاوست

انظر إلى ذلك النور الضئيل المنبعث من نافذة المعبد! إنه لا يلبث حتى ينمحى ويتلاشى فى ظلام الليل الدامس. وإنى لكذلك أشعر كأن النور الذى فى صدرى قد طغت عليه ظلمات بعضها فوق بعض.

إبليس

أما أنا فأشعر كأنى هرٌّ رقيق العواطف. أتسلق سلم الحريق ثم أزحف على الجدران بصمت وسكون. وأعد نفسى مع هذا كله من أهل الفضل والفضيلة، لا عيب فى إلا الشىء القليل من خلق اللصوص والنزر اليسير من عبادة الشهوات.

وهذا كله مما يبعث فى نفسى ذكرى ليلة (والبورغ)، التى نحتفل بإحيائها بعد غد، وهى الليلة التى يطيب فيها السهر حقًا.

فاوست

ولكن ما خطب ذلك الكنز النفيس الذى أبصرته منذ حين فرأيت له بريقًا شديدًا؟ أليس الأولى بنا أن نبادر إلى فتحه؟

إبليس

لينعم بالك سلفا، ولتقر عينك. فلقد نظرت حديثا فى ذلك الكنز فرأيته مملوءا بالدنانير.

فاوست

أهذا كل ما هنالك؟ أليس فيه حلية أو خاتم فأقدمه للحبيبة؟

إبليس

إخال أنى رأيت فى الكنز شيئا كأنه عقد من اللؤلؤ.

فاوست

هذا حسن فلتحضره الآن؛ فإنى ليؤلمنى أن أذهب إليها من غير هدية.

إبليس

وهل فى هذا ما يبعث على الألم؟ إنك ستنال شيئا بلا شىء.

والآن وقد لمعت النجوم وتألقت السماء، أريد أن أغنيك أنشودة مطربة مشجية، وسأجعلها أغنية وعظية فإن هذا أدعى للتغرير بالحبيبة وإغوائها.

(يغنى موقعًا على قيثارة)

كـــتـــرين ! مـــا بـالى أرا ... ك وحـسنك الفـتـان يغـرى
تـسـرين فى الليـل البـهـــيم؛ وإنما هذا لأمـــر
لبـــيت دعــوات الغـــرا ... م فـجـئت فى طرب وبشـر
أقـــبلت بـكـرا حُـــرَّةً ... ورجــعت - لكن غـير بكر

* * *

أبنيـــتى فلتـــحـــذرى؛ كم مـن فـــتى فى لـؤم ذيب
من بعـــد مـــا يقـــضى مـــآ ربه يعـــجل بالـهـــروب
مـــا إن يبـــالى أن تعـــا نى مـــا تعـــانى من كـــروب
فـــحـــذار لا تســتـــسلمى إلا لـــزوج أو خـــطـــيـــب

* * *

فالنتين

من التى تريد تضليلها والتغرير بها؟ تبا لك من شقى لعين! سحقًا لك ولقيثارتك.

(يضرب القيثارة فيحطمها)

إبليس

لقد انكسرت القيثارة فلم تعد تصلح لشىء.

فالنتين

بقى أن أحطم رأسك أيها الفاجر.

إبليس

(مخاطبا فاوست)

سيدى الدكتور! تقدم ولا تتقهقر! قف إلى جانبى وتتبع حركاتى! استل سيفك ثم اقتله. ودعنى أنا أتولى صدَّ ضرباته.

فالنتين

إذن صدَّ هذه الضربة!

إبليس

ولم لا؟

فالنتين

وهذه !

إبليس

بلا ريب .

فالنتين

يخَّيل إلى أنى أبارز شيطانًا ! ويلى ما هذا؟ كأن يمينى قد شلت.

إبليس

(لفاوست) اطعنه الآن فهذا دورك!

فالنتين

أوَّاه! (يخر صريعًا)

إبليس

الآن قد هدأ ثائر هذا الحيوان الأعجم. أما نحن فلنعجل بمغادرة هذا المكان. لأنهم سرعان ما يجدُّون فى طلب القاتل.

أنا لا أخشى رجال البوليس لأنهم قوم سهل إرضاؤهم. ولكنى أخشى غائلة القصاص الذى يقفو أثر سافكى الدماء.

(يخرجان)

مارتا (من نافذتها)

النجدة ! النجدة !

مرغريت (من نافذتها)

اشعلوا مصباحا!

مارتا

سمعت أصوات قوم يتشاتمون ويتقاتلون.

جمهور من الناس

وهذا أحدهم قد قتل.

مارتا (تخرج من دارها)

ويل للقتلة! هل فروا هاربين؟

مرغريت (تخرج من منزلها)

ترى من الذى قتلوه!

جمهور من الناس

إنه أخوك ابن أمك!

مرغريت

رباه! إن هذا بلاء عظيم.

فالنتين

قد أنشب الموت في ظهره، وقريبا يقضى على القضاء الأخير. ويا ويلكن أيتها النسوة! ما لكن ولهذا النحيب والعويل. اقتربوا منى جميعا واصغوا إلى.

(يقف الجميع حوله)

أى مرغريت أنصتى إلى ! إنك ما زلت حديثة السن، ساذجة القلب؛ لا تحسنين حتى ارتكاب الرذيلة. وإنى أنصح لك، ما دمت قد سلكت سبيل العاهرات، أن تدخلى فى زمرتهن دخولا.

مرغريت

أخى بالله ربك! أهكذا تخاطبنى؟

فالنتين

ليس لمثلك أن تذكر اسم الله.

ما مضى قد فات ولا سبيل إلى رده. وسيجرى لك ما جرى لغيرك من قبل: تبدئين إتيان المنكر فى الخفاء، لا تعرفين إلا عشيقًا واحدًا. ثم لا تلبثين حتى يكثر العشاق، ويتسع النطاق، ويعرفك الكثير من سكان البلدة ثم تعرفك البلدة بأسرها.

إن العار يولد سرًا مكتمًا، لا يعلم أحد بمولده؛ تسدل عليه الأستار ويحيط به ظلام الليل البهيم. ويود الذين ارتكبوا العار أن لو قتلوه قتلا ومحوه محوًا. لكنه رغم هذا ينمو ويكبر. ثم يبرز من الخفاء والظلام فيسير فى رابعة النهار. وهو – على بروزه واشتهاره – لا يزداد إلا قبحًا ودمامة؛ وكلما سمج منظره وقبحت صورته إزداد فى النهار تسيارًا وبين الناس اشتهارًا.

لكأنى بك أيتها الفاجرة وقد التقى بك فى الطريق كرام الفتيان من أبناء هذا البلد، فحولوا عنك وجوههم كأنك جيفة ممتلئة وباء وعدوى.

ولعمرى كيف تطيقين أن تنظرى إلى الناس. فلا تنوبين عاراً وخجلاً. وأخلق بك أن تنزعى عنك هذه السلسلة الذهبية، وألا تدنسى أرض الكنيسة باقترابك من المذبح المقدس، وألا ترى الناس وجهك فى المحافل والمراقص. وأولى بمثلك أن تعتزل العالم وتنزوى فى ركن مظلم خرب. وأن تلقى بنفسك وسط المتسولين وذوى العاهات. ولئن شاءت رحمة الله فى الدار الآخرة أن يعفو عنك ويصفح، فليكن حظك فى الدنيا الألم المبرح والشقاء المضنى.

مارتا

أولى لك وأنت على باب الموت أن تستغفر الله ربك، بدلا من أن تفوه بهذه اللعنات والشتائم.

فالنتين

من لى بأن أمزق جلدك البالى إرباً أيتها القوادة الدنسة. إذن اطلب من الله المغفرة على كل ما جنيت من الذنوب.

مرغريت

أخى! إنك لتعانى أشد الآلام.

فالنتين

دعى العويل والبكاء! إنك أوليتنى أشد الآلام وأقساها يوم غادرت سبيل الطهر والعفاف.

الآن تغشانى سكرة الموت . وهأنذا سائر إلى مولاى. جنديا شجاع القلب – علم الله – شريف النفس.

(يموت)

(٢٠)

كنيسة عظيمة

صلاة وأناشيد وتوقيع على الأرغن

(مرغريت تصلى وسط أناس كثيرين ومن خلفها ملك النقمة)

ملك النقمة[١]

ويك يا مرغريت! كيف حالت بك الحال منذ أن كنت تأتين المعبد وتقفين لدى المذبح؛ وقلبك ملؤه الطهارة؛ فترتلين الصلوات بصوت رخيم. كانت نفسك إذ ذاك مزيجا من مرح الأطفال وطهارة الآلهة. فشتان ما بينك اليوم وما كنت عليه فى ذلك الزمن.

مرغريت! أى خاطر يجول بنفسك؟ أى إثم شنيع تريدين ارتكابه؟ أتصلين الآن على روح أمك، وقد كنت أنت السبب فى ورودها خوض المنون بعد أن جرعتها أمرً العذاب؛ ثم غادرت روحها فريسة لآلامٍ طويلٍ مداها، شديدٍ وقعها.

ثم أى دم هذا الدم الذى يخضب عتبة دارك!؟

ثم ما هذا الذى يتحرك فى أحشائك وينمو كل يوم، فترتعد فرائصك، خشيةً عليه وعليك مما يخبؤه لكما الزمان؟

---

(١) يمثل ملك النقمة هنا ضمير مرغريت يؤنبها على ما صنعت وما تريد أن تصنع. فقد قتلت أمها بما ألقت فى شرابها من السم وتريد التخلص من طفلها عند ولادته.

مرغريت

ويـــلاه! من لى بأن تنجـــاب عنى هـــذا الخـواطـر، التى مـابرحـت تعـاودنى بالرغم منى؟

جماعة المنشدين

انتبــه ويحك من هذا السُّبــات !

إن يوم الويـل والنقـــمـــة آت.

يتـــرك الدنيـــا هبـــاء ثـــائراً

يخسف الأرض ويمحو الراسيات(١)

(توقيع على الأرغن)

ملك النقمة

لينزل بك الويل وليحل بك العذاب!

لقد نفخ فى الصور. وبعثر ما فى القبور. ونشر قلبك نشراً من وسط التراب - حيث الراحة والسكون - وإنما ينشر ليعذب أشد العذاب، وسط السعير المضطرم.

مرغريت

من لى بأن أبرح هذا المكان؟ لكأنى بهذا العزف يحبس أنفاسى. وهذه الأناشيد تذيب مهجتى.

---

(١) هذه الأبيات والتى بعدها أنشودة دينية واحدة مشهورة مؤلفها رجل اسمه توماس تشيلانو كان يعيش فى القرن الثالث عشر.

المنشدون

بين أيدى مالك الملك القدير يقف الناس لدى قاض خطير
ليس تخفى عنده خافية من جليل أو طفيف أو حقير
كل ذنب سوف يلقى قسطه من قصاص الحاكم العدل القدير

مرغريت

إن صدرى يضيق ونفسى ينحبس.

وإخال هذه الأعمدة الضخمة سجنًا موصدًا على وكأن هذا السقف المرفوع يسحقنى سحقًا. أريد هواه.

ملك النقمة

وماذا يجديك الاختباء؟ إن العار والرذيلة لا يلبثان حتى يظهرا.

الويل ثم الويل لك؟ أتجرئين على أن تطلبى النور والهواء.

المنشدون

يالتعسى عندها ماذا أجيب؟ حينما أسأل فى اليوم العصيب
أين لى من شافع يشفع لى. حين لا يغنى محب عن حبيب،
حين لا يملك دفع الضر عن نفسه القانت والعبد المنيب.

ملك النقمة

هيهات ! إن القانتين المنيبين إلى ربهم لينأون بأوجههم عن رؤية أمثالك. إن الصالحين يرتعدون فرقًا إذا لمستك أيديهم.

ويل لك ثم ويل!

المنشدون

يا لتعسى عندها ماذا أجيب؟

مرغريت

يا جارتى! أنجدينى!

(يغمى عليها)

(٢١)

ليـلة والبـورغ[١]

المنظر: جبال الهارتس بالقرب من قريتى شيركه Schierke وايلند Elend

فاوست وإبليس

إبليس

أما بك حاجة إلى عصا مكنسة تركبها؟

أما أنا فما أحوجنى إلى تيس[٢] أمتطيه. إن الغاية لا تزال بعيدة والطريق طويلة.

---

(١) تشير الخرافات التى كانت سائدة فى العصور الوسطى إلى أن الشياطين والسحرة والساحرات والأرواح الضالة على اختلاف ضروبها وأشكالها تجتمع فى الليلة الأولى من شهر مايو فوق القمة العليا من قمم جبال الهارتس بألمانيا؛ واسم هذه القمة العليا جبل بروكن Brochen أو بلوكبرغ Blocksberg. ففى تلك الليلة (ليلة واليورغ) يؤم تلك القمة من سائر الأقطار جماهير الأبالسة والعفاريت والسحرة وهناك ينغمسون فى اللعب واللهو على النحو الذى سيراه القارئ. ولعل إبليس أراد أن يلهى فاوست عن الجرائم الثلاث التى ارتكبها: من تدنيسه عرض فتاة إلى قتل أخيها والتسبب فى تسميم أمها. فانتقل به فجأة إلى مجمع الشياطين ليسليه عن تذكر جرائمه. وفى هذا الفصل كثير من الشعوذة ومن الترهات الغامضة ولم يكتف غوتيه بأن يعرض لأنظارنا صورة الأبالسة والسحرة، بل نراه قد عرض لأعيننا أفرادا ممن أراد انتقادهم والسخرية بهم فحشرهم هنا مع الشياطين. وهذا الفصل فى حاجة إلى شرح كثير لن يتسع له المقام وسنكتفى بالاشارة إلى الأشياء الهامة جدا.

(٢) عصا المكنسة والتيس كلاهما من مراكب الشياطين.

فاوست

مادمت أحس فى رجلى نشاطًا وقوة، فحسبى هذه العصا العقداء. وماذا يجدينا أن نقصر من طول الطريق، وليس فى رحلتنا هذه أشهى وأعذب من أن ننحدر وسط هذه الأودية العديدة، ثم نصعد هاتيك الصخرة، حيث ينفجر ذلك الينبوع فتندفع منه المياه بقوة؟

إن الربيع قد أخذ يبث روحه فى أشجار الكافور، وقد أثر حتى فى دوح الصنوبر. فهل تبقى أعضاؤنا د ون أن يؤثر فيها الربيع؟

إبليس

لست أحس من روح الربيع شيئًا. ولم تزل فى جسدى بعد بقايا الشتاء القارس وأحب إلى أن يكون طريقنا وسط الثلج والجليد.

لقد أخذ قرص القمر يرتفع فوق الأفق، كئيبًا حزينا، قد أدركه النقص واحمرت صفحته، فلا يسطع منه غير ضياء ضئيل. حتى إن المرء ليصطدم فى كل خطوة يخطوها بشجرة أو صخرة. فدعى أنادى أبا مشعال[1] ليرشدنا ويرينا السبيل. وهأنذا ألمح واحدًا، لهيبه متأجج. أيها الصديق! تعال إلينا! ولا تجعل نارك تتأجج عبثا. إنك تحسن صنعًا إن أنرت لنا سبيلنا أثناء صعودنا.

أبو المشعال

إنى لأرجو أن أوفق إلى تذليل طبعى، وكبح جماحى إكرامًا لكما. فإن الطريق التى أسلكها عادة شديدة الاعوجاج.

---

(١) ترجمة لكلمة Irrlicht والعامة تسميه (أبو مشعال) وهو فى اصطلاح الخرافات عفريت يقطن الغدران ويسطع منه نور يضلل به الناس ويسير بهم إلى المستنقعات وإلى المهالك.

إبليس

أجل، إنك بهذا تبغى التشبه ببنى آدم. لكنى آمرك باسم الشيطان أن تسلك طريقًا مستقيمًا، وإلا أطفأت سراج حياتك.

أبو المشعال

يبدو لى جليًا أنك هنا رب الدار، والآمر الناهى فيها. وسأبذل من أجلك كل ما فى وسعى. لكن اذكر أن بالجبل اليوم جنة مما عليه من السحر والساحرين. وإذا كان دليلك فى السير أبا المشعال، فأجدر بك ألا تطلب من الدقة المتناهية.

(فاوست وإبليس وأبو المشعال يتناوبون الإنشاد[1]):

لقد دخلنا عالم السحر والأحلام؛ فكن لنا دليلاً مرشداً أميناً.

حتى نصل بسرعة عظيمة إلى تلك الأقطار الفسيحة المقفرة.

* * *

انظر إلى الأشجار: بعضها خلف بعض:

وهى تمر بنا مر السحاب.

وإلى جلاميد الصخر، مشرفة على الأودية

وإلى كل جندل ذى أنف طويل

يغط غطيطًا، وينخر نخيراً.

* * *

(١) القطعة الأولى والرابعة لإبليس والثالثة والخامسة لفاوست والثانية لأبى المشعال. هذا فيما يظهر من القرائن. وإن يكن المؤلف لم يذكر مع هذه القطع اسم كل منشد.

بين الصخور وبين المروج،
تنحدر الجداول والأنهار.
فهل خريراً ما أسمعه أم غناء
أم عتابا حلواً بين أحباب؟
أم أصوات تلك الأيام السماوية
التي تشتاقها النفس وتهواها؟
إن الصدى يرن الآن،
كما تتردد ذكرى العصور الخوالي.

* * *

أسمع صدًى أقرب إلينا:
صدى البوم والغربان والصقور،
وهي تنعب وتصيح؛ فهل بقيت كلها ساهرة؟
أهذا هو السَّمنَّدر كامنًا وسط الأعشاب
بأرجله الطويلة وبطنه الغليظ؟
وهذي جذور الأشجار، كأنها الثعابين
تتلوى من بين الصخور والرمال؛
كأنما تنشر حبائل ذات شكل غريب

لكى تزعجنا، أو تتصيدنا.
وعروق الشجر تمد إلى أرجل المارة أذرعا طويلة
وهذه الجرذان ذات الأشكال والألوان
قد احتشدت بجموعها وسط الحشائش والأعشاب
وطير الحباحب تطير أفواجًا وزمرًا
فتضلل الأفكار وتحير الأبصار.

* * *

لكن قل لى أنحن وقوف
أم لا نزال صاعدين؟
أرى الأشياء كلها تدور وتمور
والصخر والشجر ينظران شزرًا
وذوى المشاعل قد تزايد عددهم وتزايد لهيبهم

إبليس

تمسك بأذيالى : ولنصعد هذه القمة. فمن هنالك يستطيع المرء أن ينظر، فى دهشة وحيرة، إلى مأمون وهو يتوقد ويتوهج فى جوف الجبل[1].

---

(١) مامون Mammon إليه الذهب، ووجوده فى أعلى الجبل (بروكن) كناية عن أنه من أكبر وسائل الضلال. وفى القطعة الآتية وصف لتوزيع الذهب او لسوء توزيعه وتقسيمه بين الناس.

فاوست

ما أغرب وما أعجب هذا الضياء الحزين. يحاكى فى احمراره نور الفجر. وهو يضئ السهول والوهاد، بل إن شعاعه ليصل حتى إلى أعمق الأودية وأقصاها. هناك أبخرة تتصاعد. وهناك دخان يتطاير. وهاهنا لهيب وهاج يسطع من خلف الضباب المنتشر. وهو حيناً يبدو كأنه خيط دقيق. وطورا يتفجر كأنه ينبوع. وهنا تراه ينساب بين الأودية، فى كثير من الالتواء والانحناء وله فروع وشعب عديدة. ثم تراه قد تجمع وتراكم فى ذلك الركن السحيق. وانظر عن كثب منّا ترى الشرر يتطاير كأنه رمل ذهبى منثور. ثم تأمل فى تلك الأسوار الصخرية وكيف تشعل اشتعالا من أسفلها إلى أعلاها.

إبليس

أترى كيف أحسن المولى مامون إنارة القصر من أجل هذا العيد؟ ومن حسن الطالع أن قد أتيحت لك رؤية هذا المنظر. الآن أحسن قدوم الضيوف أفواجًا وزمرًا.

فاوست

إن الإعصار الهائل يدوى زفيفه، ويضرب ناصيتى ضربات أليمة.

إبليس

تعلق بأضلاع الصخور جيدا. وإلا ألقاك الإعصار فى تلك الهوة السحيقة. إن هذا الضباب قد زاد فى ظلمة الليل. ولو أنصت لسمعت صوت الدوح إذ تتهشم وتتحطم، فتطير البوم منزعجة. إن أعمدة تلك القصور الخضراء الأبدية[1] تنشق وتتمزق، وفروعها تكسر وتبتر، وجذوعها تئن وترن، وجذورها تجتث او تنفجر. ثم تنقض جميعا، بعضها فوق بعض، حتى تكاد تسد الهوة، والريح بينها تزأر زئيراً، وتصفر صفيراً.

---

(١) أى الغابات.

ألا تسمع أصواتًا فى الفضاء، منها البعيد ومنها القريب. إن أناشيد السحر والساحرين تملأ الجبل من أقصاه إلى أقصاه.

ساحرات منشدات

الساحرات صاعدات إلى جبل بروكن،
وقد اصفرَّ الحطب، واخضرت البذور.
هنالك تحتشد الجماهير؛
ويجلس شيخ الأبالسة على رأس الجميع.
..................................!

صوت

هاكم العجوز (باوبو)[٢] آتية وحدها، وقد ركبت ظهر خنزيرة.

المنشدات

الشرف لمن له الشرف...
تفضلى يا مولاتنا باوبو فقودينا.
فهذا خير خنزير عليه خير أم.

صوت

من أى طريق أنت آت؟

---

(٢) باوبو (Baubo) هى – فى أساطير اليونان – وصيفة للربة ديمتر Demeter التى أصيبت بفقد ابنتها برسيفون Persephone فكانت وصيفتها المذكورة تجتهد فى تسليتها بالقصص والحركات المتناهية فى القبح والفحش حتى تذهب عن الربة حزنها، فجعلها غوتيه قائدة الساحرات فى ليلة والبورغ.

صوت

عن طريق (الزنشتاين)[1] وهناك نظرت إلى البوم فى وكرها، فحملقت فى وجهى.

صوت

إلى جهنم أيها الصديق! ولكن مالك تخب مسرعًا.

صوت

إنها سلخت جلدى سلخا، فأحدثت به ماترى من الجروح.

السـاحرات المنشدات.

إن الطريق عريض، إن الطريق طويل.

يا عجبا لهذه الجموع الغريبة.

من كل راكب عصا مكنسة قد تحطمت

أو شوكة قد تهشمت. إن الأمهات، من شدة الزحام،

قد انفجرت منهن البطون، واختنقت الأجنّة.

فريق السحرة

نحن نسير ببطء كما تمشى القواقع

والنساء قد سبقتنا بشوط بعيد

ومتى كان الشيطان هو القصد والقبلة.

---

(١) اسم لصخرة كبرى Ilsenstein فوق جبال الهارتس.

فالنساء يسبقن بآلاف الخطى

فـــــريق آخـــــر من الســــحـــــرة

أمـــا نحن فـــلا نرى هذا الرأى تمامًـــا ؛

حقيقة أن النساء قد يسبقن بآلاف الخطى

ولكنهن، مــهـــمـــا أســرعن وتقــدمن،

فــبــوثبــة واحــدة يلحق بهن الرجــال[1]

انهضوا ويحكم من بين الصخور وتعالوا معنا.

صوت (من أسفل)

حبذا لو استطعنـــا أن نلحق بكم إلى العـــلا. إننا مازلنا نغســـل ونتطهر، غدونا ناصعى البياض؛ وبرغم هذا تذهب جهودنا عبثا.

المنشدون والمنشدات

لقد خرست ألسن الرياح، وهربت النجوم من السماء.

ويود القمر الحزين أن يستر وجهه عن العيون.

وأفراج السحرة تملأ الآفاق بأزيزها.

وبالشرر المتطاير من وقع خطاها.

صوت (من أسفل)

تمهلوا ! تمهلوا !

---

(١) فى هذه القطعة ربما قبلها مقارنة ظاهرة بين الرجال والنساء فى سيرهم إلى الشر.

صوت (من أعلى)

من هذا المنادى من وسط الأخدود؟

صوت (من أسفل)

خذونى معكم! لاتتركونى! قد قضيت ثلاثمائة عام أجد فى الصعود. ولم أزل عاجزًا عن بلوغ القمة. وأود لو أتيح لى أن ألحق برفقائى ومن على شاكلتى.

المنشدون والمنشدات

إركَبْ عــــصًــــا أو مكنســــة !

اركب شـــوكـــة أو اركب جــــديًا

يحــــملك كل منهـــا حـــمـــلا.

من لم يستطع اليوم نهوضًا وتحليقًا

فقد كتب عليه الذل مدى الدهر.

نصف ساحرة (من أسفل)

لقد طال تسيارى وراءكم، واقتفائى أثركم. ولم يزل بينى وبينكم مدى بعيد. الويل لى والثبور! إن بقيت فى وطنى لم أجد هناك دعة ولا راحة، وهنا أكدّ وأكدح فلا يجدى عنائى شيئًا[1].

الساحرات المنشدات

الســاحـرات مـرهم يقـوى من عـزائمـهن

وحسبهن أن يتخذن الخرقة البالية شراعا؛

---

(١) لعل هذه العجوز رمز لمن يحاول أمرًا فوق طاقته، وكثير مما يورده المؤلف هنا رمز على معنى أو مسألة. ولكن من المتعذر جدًا معرفة ما يرمى إليه فى كل حالة.

ومن الطســـوت القـــديمـــة ســـفـــينًـــا ،

فـــتـطيـــر بـهن فى جـــو الـــســـمـــاء .

إن من لم يطر اليـوم ، فلن يطيـر أبد الدهر

جميع المنشدين

فإذا ما بلغنا القمة

فانتشروا فى كل حدب وصوب !

حتى لا يبقى حشيش أو عشب

إلا وقد غشيته جموع الساحرين والساحرات

(يهبطون جميعا من الجو إلى الأرض)

إبليس

الجماهير تتزاحم وتتدافع، وتصطخب وتضطرب، وتصفر وتزأر، وتتجاذب وتتصادم. فمن نار تشعل، وشرر يتطاير، وروائح منتنة خبيثة تتصاعد. حقيقة لقد اجتمعت العناصر السحرية واحتشدت. فتعلق بأذيالى وإلا فســرعان مايفرق بيننا. أين أنت؟

فاوست (من بعيد)

هنا!

إبليس

ما هذا؟ أبعدت عنى إلى هذا الحد؟ لا بد لى إذن أن أطالب بحقوقى كصاحب هذه الدار. أفسحوا مكانا لمرور إبليس! أفسح مكانا إيهًا الجمهور العزيز! والآن أيها الدكتور تعلق بى، ولنخرج من بين هذا المزدحم بوثبة واحدة! لم أعد، حتى أنا، قادراً على تحمل كل هذا. تعالى فإنى أرى هناك فى تلك الناحية شيئًا يسطع نوره، وله بريق يجتذبنى نحوه اجتذابا. فهلم بنا ولننحدر إليه من بين هذه الأدغال.

فاوست

إنى لأعجب منك ياروح التناقض! أبعد أن كابدنا كل هذا العناء فى ليلة والبورغ من أجل الوصول إلى قمة جبل (بروكن) تريد الآن أن ننزوى فى مكان منعزل؟

إبليس

انظر ويحك إلى تلك الشعلات من النار، ذات الألوان البديعة! هنالك ناد صغير كله سرور وفرح. وإنما يكون اللهو والطرب فى المجتمع الصغير.

فاوست

كنت أود البقاء بأعلى الجبل. وهأنذا أبصر هناك نارًا تتأجج، ودخانًا يتصاعد. والجماهير قد لبت داعى الشرور. فلابد أن تكون هنالك ألغاز تحل وأسرار يكشف عنها الغطاء.

إبليس

وهناك أيضا عقد لن تحل بل تزداد تعقيداً. فذع العالم الكبير يموج بعضه فى بعض ولنلجأ إلى مكان هادئ أمين. وكم من عالم صغير فى داخل العالم الكبير، كما قيل فى المثل المأثور.

فى هذا الوادى الصغير أرى ساحرات فى عنفوان الشباب، عاريات من الثياب. وساحرات عجائز قد لبسن ثيابهن، حزما منهن وعقلا. فتعال إذن وتلطف بهن، فإن هذا لايكلفك إلا عناء قليلا، وستجنى من ورائه لذة كبرى. وكأنى أسمع موسيقاهن تعزف عزفها الملعون. لكنا سنعتاد سماعه، فهلم بنا إليهن، وسأسير أمامك لكى أريك الطريق.

ها نحن أولاء قد وصلنا! انظر إلى ماحولك! أترى أنه ليس بالمكان الصغير كما كنت تظن. وأن الطرف يكاد ألا يبلغ مداه، ففى صف واحد أرى مائة نار تستعر استعارا. وقد اجتمعوا حولها يرقصون ويطربون، ويطبخون ويشربون ويتغازلون. فهل فى العالم ما هو أحسن من هذا؟

فاوست

والآن أتريد أن تظهر أمامهم كساحر أو كشيطان؟

إبليس

إنى وإن كنت اعتدت أن أسير متخفيا فى لباس بسيطة بيد أنى فى أيام الأعياد الكبرى لا أجد بأسا فى أن يظهر المرء فى حلله وأوسمته الرسمية. حقيقة أنى ليس لى وسام (ربطة الساق)؛ لكن أقدام الخيل التى لى يعرفها هنا الخاص والعام. أترى ذلك الحلزون الذى يزحف نحونا؟ إنه قد استطاع برأسه الممدود أن يتعرف خبيئة أمرى، ويشم رائحتى. فلو أنى أردت التنكر هنا لما استطعت إلى ذلك سبيلا.

فهلم بنا ولنطف بهذه النيران. ولكن أنا لك واسطة ولتكن أنت الخاطب.

(ثم يخاطب جماعة جالسين حول نار فى عزلة عن الجميع).

أيها الشيوخ الكرام! ما بالكم قد انتحيتم ناحية عن الجميع؟ وما أجدركم بأن تكونوا وسط المعمعة والهياج. وحسبكم عزلة حينما تكونون فى منازلكم[١]

قائد

من ذا الذى يجعل الأمم موضعًا لثقته؟ إن الإنسان مهما قدم لها من جليل الخدمات، فما برحت الأمم، دأبها النساء، لايحلو فى نظرها غير الشباب

وزير

اليوم قد حاد الجميع عن جادة الصواب. فيا حبذا العهد القديم يوم كنا نحن السادة، وليس من فوقنا أحد. كان ذلك العهد هو العصر الذهبى.

---

(١) هذه الجماعة رمز يمثل لنا نفور الجيل القديم من الجيل الحديث، تلك الظاهرة الأبدية

حديث النعمة

على أنا لم نكن من البلاهة بحيث لم ننتهز كل فرصة سانحة. ولكم أقدمنا على ارتكاب ما لا يرتكب. أما الآن فقد حالت الحال. وضاع من يدنا كل شئ، فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الاحتفاظ بمناصبنا.

مؤلف

أنى لنا اليوم أن نجد فى العالم من يستطيع أن يقرأ كتابًا ممتلئًا بالحكم الجليلة وهؤلاء الأحداث ما برحوا يحسبون أنفسهم آية العقل والذكاء. ويسخرون ممن هم أكبر منهم سنا وأكثر تجربة.

إبليس (ظاهرًا فجاة بمظهر الشيخ الهرم)(١)

إنى أحس أن العالم مشرف على الزوال. وأن اليوم الآخر قد دنا. ومنذ قد صعدت هذا الجبل للمرة الأخيرة. ومادمت قد ساءت بى الأحوال، فلابد أن يكون العالم كله مشرفًا على الدمار!

ساحرة تبيع تحفًا نادرة

أيها السيدان لا تمرا بى مسرعين. بل انتهزا هذه الفرصة. وقفا لحظة لتنظرا مالدى من بضاعة فريدة وتحف عديدة. إن فى حانوتى الصغير من الهدايا ماليس له فى العالم نظير. وما من شيء لدى إلا وقد أوقع بالإنسان أو بالعالم أذى مبرحًا. فلا خنجر إلا وقد سال منه الدم القانى مدرارًا، ولا قدح إلا وقد انصب منه السم الزعاف فى أجسام ممتلئة صحة وقوة. وما من حلية فى حانوتى إلا وقد استخدمت فى استغواء زوجة وفية حتى خانت حليلها. ولا سيف إلا وقد استل فى القتل غيلة وغدرًا.

---

(١) تهكما من هؤلاء الشيوخ وتقليدًا لهم.

إبليس

أيتها الخالة. ما مضى قد فات. والذى فات مات. فلا تزجعى بنا إلى الماضى، بل ائتينا بشىء جديد. فإننا قد سئمنا كل قديم.

فاوست

إن صدق ظنى فما نحن اليوم إلا فى سوق كبيرة.

إبليس

القوم يموج بعضهم فى بعض. ويتسابقون ويتدافعون.

فاوست

ولكن من هذى؟

إبليس

أنظرت إليها جيداً! هذه (ليلات) زوجة أدم الأولى(١). احذر أن يستهويك شعرها الجميل، الذى لا تتقلد حلية سواه. وكم مز فتى أغـراه حسن تلك الغدائر فلم يستطع من شراكها خلاصاً.

فاوست

هناك اثنتان جالستان: إحداهما عجوز شمطاء. والأخرى غادة حسناء وقد رقصتا من قبل رقصاً جميلاً.

---

(١) فى بعض روايات العبرانيين أن أدم تزوج أولا (ليلات) Lilith وبعد أن هجرته تزوج بحواء، وأصبحت ليلات شيطانة. والأساطير تعزو إليها أنها تحب التغرير بالفتيان فتوقعهم فى شراك غرامها حتى يموتوا حبا بها. ويقال إن من تصرعه يموت وحول قلبه شعرة من شعورها الجميلة قد ربطت بها قلبه حتى اختنق.

إبليس

ليس اليوم يوم قعود واستراحة. الآن يبدأ الرقص من جديد. فهلم بنا ولندخل المعمعة.

(يرقص إبليس مع العجوز وفاوست مع الحسناء)

فاوست

رأيت ليلة فى منامى شجرة من التفاح
وقد تدلى منها تفاحتان جميلتان.
فاستهوانى منظرهما فتسلقت إليهما[1]

الحسناء

إن ولوعكم بالتفاح أمر قديم،
من يوم أن كنتم فى الفردوس.
وإنى لأهتز سرورا وطربا،
لأن هذه الثمار فى حديقتى أنا أيضا.

إبليس (راقصاً والعجوز)

رأيت ليلة حلماً خبيثاً. شاهدت فيه شجرة قد انشقت وكأن فيها....

العجوز

إنى أقدم خالص التحية للفارس المقدام ذى الحوافر.

....

....

(١) الغربيون يشبهون النهود بالتفاح، كما تشبه فى بلاد أخرى بالرمان. والتفاحة فى رأى البعض هى الشجرة التى أكل منها آدم وحواء.

بركتو فانتازمست[1]

ويلكم أيها الملاعين! ما هذه الجرأة المدهشة. ألم نقل لكم منذ زمن بعيد إن الأرواح ليست بالشيء الذى يبدو للعينين أو يمشى على رجلين؟ ولم يكفكم هذا بل أنتم أيضا ترقصون كما نفعل نحن معشر الآدميين.

الحسناء

ما شأن هذا المخلوق هنا؟

فاوست

إنه موجود فى كل مكان. ولا هم له إلا أن ينتقد الرقص والراقصين. فإن بدا له فى رقصهم أمر لم يتسع إدراكه لفهمه عده شيئًا مستحيلاً.

ولا يحفظه فى العالم شيء كأن يرى الناس تمشى إلى الأمام. أما إذا طفقنا ندور فى حلقة محدودة، كما يدور هو حول طاحونته القديمة. فهذا يرضيه ويشرح صدره. وخصوصًا إذا امتدح الناس فيه هذا الجمود وأثنوا عليه.

بركتو فانتزمست

ألا تزالون هاهنا؟ إن هذا لشيء عجاب. يجب أن تتفرقوا ويلكم! ألسنا الآن فى عصر العلم والعرفان؟ ولكن عصبة الشياطين لاتخضع لقاعدة أو سنة. ونحن على شدة

---

(١) Prokiophantasmist كلمة من اختراع غوتيه معناها الذى يتخيل بمؤخره. ويرمز بهذا الاسم إلى رجل معاصر من برلين اسمه الحقيقى نيقولاى Nicolai. وهو كاتب سخيف وبائع كتب. كان يزعم دائمًا أنه لا يعتقد فى الخرافات. ويطلب من كل مؤلف أن لايذكر الشياطين أو الأرواح فى كتابة ما
ولسوء حظ هذا الرجل أصيب بمرض عصبى جعله يتخيل أنه يرى أشباحًا لا وجود لها فجعل يعالج نفسه بأن يضع العلق على مقعدته حتى شفى. ولهذا اخترع له غوتيه ذلك الاسم.
وسيدعوه فى الفصل التالى بالسائح المحب للاستطلاع لأنه كتب كتابا غاية فى السخف يصف فيه سياحة ساحها. ونيقولاى هذا مثال للرجل الصغير، ذى الأفكار التافهة يريد أن يرغم سائر الناس على الخضوع لآرائه وأفكاره

ذكائنا وعقلنا قد رأينا العفاريت فى بلدة (تيجل). وقد طالما كنست ساحتى من الأوهام والخزعبلات، فما تزداد إلا قذارة! إن هذا لشىء عجاب.

الحسناء

إذن فلتكف عن مضايقتنا؟

بركتو فانتزمست

إنى أقول لكم أيها الشياطين جهاراً، بأننى لا أطيق استبدادكم هذا. وعقلى لايخضع لهذه السخافات.

(الرقص لا ينقطع)

أرى جهودى اليوم تذهب كلها أدراج الرياح. فلم يبق أمامى سوى الإكثار من الرحلات والأسفار. ولعلى أستطيع - قبل الممات - أن أنتصر على الشياطين وعلى الشعراء جميعاً.

إبليس

إنه سيذهب الآ إلى مستنقع قريب من هنا. فيجلس فيه لحظة، فيأتى العلق فينشب بمقعدته ولا يزال يمتص من دمه، حتى يداويه من ألم العفاريت ومن رؤية الشياطين.

ولكن (مخاطبا فاوست الذى كف عن الرقص) ما بالك قد غادرت الغانية التى كانت تنشدك تلك الأغانى العذبة وأنت ترقص معها؟

فاوست

بينا أرقص معها وثبت من فمها فأرة حمراء.

إبليس

هذا لعمرك شيء حسن، وأجدر ألا يحزنك حدوثه. وحسبك أن الفأرة لم تكن رمادية اللون كسائر الفيران. ومن ذا الذى يبالى بهذه الأشياء التافهة فى ساعة الغزل والغرام؟

فاوست

ثم أبصرت أمرًا عجبا! هناك، على بعد عظيم، فتاة حسناء شاحبة اللون واقفة وحدها. إنها تتدافع فى مسيرها كأن فى رجليها سلاسل وأغلالا – ولقد يخيل لى أنها شديدة الشبه بمرغريت.

إبليس

دع عنك هذه الأوهام، التى لا طائل تحتها. وهل رأيت إلا صورة مسحورة ووهما يتمثل لعينيك؟ وليس بنافع أحدًا أن ينظر إليها. فإنها إن أطالت التحديق فى أحد جمد الدم فى عروقه. بل ربما استحال صخرًا أصم. ومن قبل ماسمعت بالميدوزا[١].

فاوست

أجل إن عينيها حقيقة كأعين الموتى، الذين لم تغمض أجفانهم يد صديق ساعة الوفاة. ولكن هذا هو الصدر بعينه الذى كانت تسنده مرغريت إلى صدرى، وذاك هو الجسد الغض الذى طالما نعمت به.

إبليس

إن هذا إلا سحر أيها الأبله الذى سرعان ما ينخدع! فالميدوزا تبدو لكل امرىء فى صورة محبوبته.

---

(١) الميدوزا فى أساطير القدماء مخلوقة شعورها ثعابين والذى يراها يستحيل حجرًا.

فاوست

إنى أحس مزيجا من النشوة والحزن المبرح. ولا أستطيع أن أحول عينى عن هذا المنظر، وعجيب أن يكون حول هذا العنق الجميل خيط أحمر قانى، دقيق جدًا كأنه نصل سكين.

إبليس

وأنا أيضًا أرى هذا. ولقد تبدو الميدوزا وهى تحمل رأسها تحت إبطها لأن (برسيوس) قد جذ ناصيتها. أراك ما زلت ولوعا بكل مايصوره لك الوهم والخيال. فاطرح عنك هذا وتعال بنا نصعد هذا الكثيب. فنحن فى مكان لايقل عن بستان (براتر) بهجة ورواء[1] ولهوًا ولعبًا. وإن صدق ظنى فهذه دار تمثيل.

ماذا عندك ياهدا؟

رئيس الخدم

سنبدأ الساعة تمثيل قطعة أخرى. وهى آخر القطع السبع التى تمثل اليوم. ومن عادتنا أن نقدم للجمهور قطعًا كثيرة. وكلها قد كتبها قوم هواة. ويمثلها أيضا قوم هواة. ولا تؤاخذونى إن رجعت الساعة فإنى أريد أن أرفع الستار.

إبليس

يسرنى أن ألقاكم هنا على قمة (بلوكسبرغ). فهنا موطنكم الحقيقى.

(١) حديقة براتير Prater هى الحديقة الكبرى لمدينة فيينا.

(٢٢)

رؤيا ليـلة والبـورغ

حفلة العرس الذهبى لا بيرون وطيطانيا[١]

(قطعة تمثيلية)

رئيس المسرح

اليوم قد أرحنــا (ميدنج) وفتيانه البواســل[٢]، فلم نكلفهم أن ينقشــوا لنا المناظر الجميــلة والستائر المزركشــة. فحسبنا اليوم منظـرًا هذا الوادى الرطــب وهذا الجبل القديم.

---

(١) هذه هى القطعة التى أشير إليها فى آخر المنظر السابق، وهى تمثل أوبرون Oberon وزوجته Titania وهما ملك وملكة الجن. وكان بينهما خصام ثم اصطلحا ويحتفل الآن بهذا الصلح: فاجتمعت فرق المنشدين والموسيقيين والراقصين. وكذلك جمهور كبير من المتفرجين. وهذه القطعة كلها لا علاقة لها بقصة فاوست. وسبب وجودها هنا أن غوتيه وشيلر نشرا مرة قطعة شعرية كانا ينظمانها بيتين بيتين وسمياها اكسنيا Xenia وفى كل بيتين انتقاد لفكرة او لشخص أحد المعاصرين. وقد أحدث نشر هذه القطع ضجة كبرى بين الكتاب وقتئذ. فنظم غوتيه مجموعة أخرى من هذه القطع، ولم يرد شيلر أن ينشرها فى مجلة كان يصدرها، وقرر غوتيه أن يجعل لها مكانا فى (فاوست): فأوجد لها هذا المنظر. والقطع انتقاد لأفراد من معاصرى غوتيه أراد أن يسخر منهم وأكثرهم الآن قد نسى ذكره. فأصبحت القطع غامضة جدا ويجعل بالقارئ أن يمر بها مرا، خصوصا أن ليس لها أدنى دخل فى قصة فاوست.

(٢) ميدنج رجل كان ينقش الستائر والمناظر فى عصر غوتيه.

المنادى

ليس اليوم يوم العرس الذهبى لمضى خمسين عاما. بل لأن الخصام قد زال وحل محله الوفاق والوئام.

أوبيرون

ياعصبة الأرواح! لقد عاد الصفاء فربط بين قلبى الملك والملكة. فإن كنتم تشاركوننا فى السرور والسعادة فأظهروا ذلك الساعة!

بوك (العفريت المازح)

لقد جاءكم (بوك) يسعى ويمرح، ويجر رجليه على الأرض جراً ومن خلفه مئات العفاريت جاءوا ليمازحوه ويضاحكوه.

أريل (عفريت)

يهتف أريل بالأناشيد الشجية، ذات الأنغام السماوية الصافية.

ولئن جذب غناؤه الأشرار، فلقد يجذب الأخيار أيضًا.

أوبرون

تعلموا منا جميعًا! إن أردتم أن يسود الحب والوئام بين الزوجين فما عليكم إلا أن تفرقوا بينهما، كيما يعود الحب فيؤلف بينهما.

طيطانيا

إذا ساءت فعال الرجل، أو ساء خلق المرأة، فامسكوا كلا منهما بقوة واذهبوا بأحدهما إلى الشمال وبالآخر إلى الجنوب.

المنشدون (بقوة)

ليس المنشدون اليوم سوى عصبة الذباب والبعوض ومن على شاكلتهم. وزمرة الضفادع فى الخمائل، والجنادب وسط الحشائش.

أحد المنشددين

انظروا إلى القربة ذات الصوت الرنان. وكأنها رغوة صابون قد نفخ فيها ومن أنفها الأفطس تتصاعد النغمات الغريبة، والأصوات العجيبة.

عفريت فى دور النمو

ليس لهذا المخلوق الصغير سوى أقدام العنكبوت، وبطن كبطن الضفادع وأجنحة صغيرة منضمرة. فإن لم يكن بعد حيوانًا صغيرًا، فهو – على الأقل – قطعة شعر ضئيلة.

زوج صغير(١)

أى قصار الخطى! أنى لكما الوثوب إلى العلا، مابين قطرات الندى المتساقطة، ريح الأزهار الفائح؟ سيرا ماشئتما بخطا كما الضئيلة. فهيهات أن تصعدا فى الهواء شبرًا.

سائح محب للاستطلاع(٢)

أليس هذا كله ترهات باطلة؟ وإلا فهل أصدق ما تره عينى بأن أو يرون ذلك الإله الجميل واقف أمامى؟

---

(١) زوج هنا أى اثنان والصغر ليس صغر الحجم. بل صغر القدر الأدبى. وقد أراد غوتيه هنا أن يسخر من أخوين انتقداه هو وشيلر.

(٢) هو نيقولاى. وقد ذكر فى المنظر السابق.

أورثوذكس[1]

إنه ليس إلها بل شيطانًا رجيما مثل آلهة اليونان، وإن لم يكن له ذنب أو مخالب.

فنان من الشمال[2]

لئن كانت أعمالى التى أقوم بها ناقصة مبتورة فاعذرونى، فقد شغلنى الاستعداد لرحلتى إلى ايطاليا.

رجل محب للحشمة

إن نكد الطالع ساقنى إلى هذا المكان الكريه، حيث الوقار منبوذ والحشمة ضائعة. ساحرتان فقط تلبسان ثيابا، والأخريات عاريات!

ساحرة شابة

ليست الثياب لعمرك إلا للعجوز الشائبة. أما أنا فأجلس عارية على ظهر جديى وأرى العالم جسدى الغض.

عجوز

لنا من أدبنا ووقارنا مايمنعنا من مجادلة مثلك. وإنى لأتمنى لك العطب العاجل رغم شبابك الناضر.

رئيس المنشدين

ويحكم معشر الذباب والبعوض، لا تتجمعوا حول الغادة العارية؟

وأنتم أيها الجنادب والضفادع، لا تخرجوا عن أصول النغمة؟

---

(١) أى رجل متدين ولا يعلم من عناه غوتيه.

(٢) أى غوتيه نفسه وكان يفكر فى سياحته إلى ايطاليا.

المذبذب (ناظرًا إلى أحد الفريقين)

جمع من العرائس الحسان، ليس وراءهن للنفس مطمح.

وشبان هم خيرة الرجال ومنتهى الآمال.

المذبذب (ملتفتا إلى الفريق الآخر)

لئن لم تنشق الأرض فتبتلعهم جميعًا، لأسرعن أنا إلى الجحيم فألقى بنفسى فيها

أكسنيا[1]

نحن الحشرات الصغار، ذات المقارض الحادة. جئنا لكى نكرّم أبانا ومولانا إبليس بما يليق بمقامه الأسمى.

هننجس[2]

انظر إليها وقد تجمعت واحتشدت. وأخذت تمزح مزاحها الثقيل. ثم تزعم بعد ذلك أنها كانت حسنة النية.

رئيس الموزا

يحلو لى جدًا أن أندمج وسط هذا الجمع من الساحرات؛ فإنهن أسهل مراسًا وأساس قيادًا من آلهة الشعر والفنون[3].

---

(١) أصل معنى كلمة أكسنيا هو الهدايا التى تقدم للضيوف. فاستخدمها شيلر وغوتيه بمعنى تلك الأبيات اللاذعة التى نشراها.

(٢) Hennings كاتب انتقد الاكستيا فى مخنته المسماة روح العصر وكذلك نشر قطعة شعرية بعنوان رئيس الموز Musagetes وغوتيه يسخر منه هنا فى الثلاث القطع التالية.

(٣) أى الموز Muses.

روح العصر (سابقًا)

ما يقدر الإنسان قدره إلا الرجال الأفاضل. فتعال وتمسك بأذيالي.

فإن لجبل بلوكسبرغ قمة فسيحة الأرجاء كأنها قمة جبل (بارناسوس)

السائح المحب للاستطلاع

قل لي بأبيك. ما خطب هذا الرجل الجامد الذي يمشي في الأرض مرحا وكبراً ويشم بأنفه كل شيء يراه؟

«إنه يقفو أثر اليسوعيين!»[1]

كركي[2]

أحب الصيد في الماء الصافي، وكذا في الماء العكر، فلا تعجبوا إذا رأيتم الرجل المتدين أحيانا في صحبة الشياطين والأبالسة.

رجل الدنيا

إن المتدينين - وأبيك - قد اتخذوا كل شيء وسيلة لنيل مأربهم. فلا عجب إذا رأيتهم هنا فوق بلوكسبرغ جماعات وزمراً.

راقص

الآن تجئ جماعات جديدة من المنشدين[3]. وهأنذا أسمعهم يدقون طبولهم. فأنصتوا لأصواتهم المتكررة المملة، التي تحاكي زعيق الأوز.

---

(١) كان نيقولاى يبغض اليسوعيين.

(٢) رجل معاصر لفوتيه واسمه الحقيقي لافاتر Lavater وكانت مشيته تشبه مشية الكركي.

(٣) الجماعة السابقة أكثرها من الأدباء، والجماعة الجديدة من الفلاسفة وأضرابهم.

الفقيه

إنهم لن ينتصروا على بالنقد والصياح. وإثارة الشكوك فى صدرى. فالشيطان موجود حقيقة. وإلا لما كان هناك شياطين.

الكثير الأحلام

إن الأحلام التى امتلأ بها خيالى، قد استبدت بى هذه المرة أى استبداد. ولعمرى لو كان كل ما أتوهم الآن صحيحاً، فأنا اليوم مخبول معتوه.

رجل الحقائق الملموسة

أصبحت وكل ما فى الوجود مصدر لعذابى وإعناتى. وأرانى للمرة الأولى فى عمرى غير واثق من نفسى؛ وتوشك عقيدتى أن تتزعزع[١].

مؤمن بالعجائب

إن وجودى فى هذا المكان لمن أكبر بواعث الفرح، ويسرنى جداً أن أرى كل هذه الجماعات. ومن السهل على. بعد أن أبصرت الأرواح الخبيثة أن أهتدى إلى حقيقة الأرواح الطاهرة.

متشكك

إنهم يقتفون أثر لهيب، ويحسبون أنهم قد أوشكوا أن يظفروا بالكنوز الغالية. على أنى لا أرى إلا أن الشياطين والشكوك ألفاظ متشابهة[٢]. ومن أجل هذا أنا هنا.

رئيس المنشدين

ويل لكنَّ أيتها الضفادع فى الخمائل والجنادب وسط الحشائش، ولعنتم من هواة للنشيد والعزف.

---

(١) أى لرؤيته الشياطين والعفاريت وهو ليس ممن يؤمنون بشىء من هذا.

(٢) هى كذلك فى الألمانية Tenfel we Zoefel.

أما أنتم يازمرة البعوض والذباب! فحييتم من عازفين ومنشدين.

المتقلبون: أما نحن فنلبس لكل حالة لبوسها. فإذا كنا لم ننتفع بالمشى على الأقدام فلنمش إذن على رؤوسنا.

البائسون: كم أكلنا فيما مضى وشربنا! أما اليوم فيا ويلنا! قد رقصنا حتى خرَّقت نعالنا وبتنا نمشى بأحذية غير ذات نعال.

ذوو المشاعل: قد أتينا من المستنقعات حيث نشأنا ودرجنا. وعلى رغم هذا قد وقفنا هاهنا وسط الصفوف فكنا كأحسن من فيها.

الشهاب الساقط: لقد سقطت من السماء ولى ضياء النجوم اللامعة والنيران الساطعة، ثم هويت طريحًا على الثرى، فهل من أخذ بيدى فينهضنى؟

الضخام الأجسام: أفسحوا لهم مكانا أفسحوا ! إنهم يدوسون الأعشاب ويسحقونها سحقًا، هم كذلك من الشياطين، على الرغم من ضخامة أجسامهم وغلظ أرجلهم.

بوك (المازح): بأبيكم لا تمشوا فى الأرض مرحًا، كأنكم فيلة أبناء فيلة؛ فليس اليوم من هو أضخم جسدًا من (بوك) نفسه.

أريل Ariel: بما وهبتكم الطبيعة من أجنحة ومن روح، ومن مقدرة على الطيران، أناشدكم أن تتبعونى وتقتفوا أثرى إلى ذلك الكثيب الذى تكسوه الورود.

المنشدون (بصوت خافت)

لقد أخذ السحاب المنتشر والضباب الكثيف يضيآن بنور الفجر وقد هب النسيم فى الخمائل والرياح فى الغاب. وزال كل شىء وانمحى[1].

---

(١) أى طلع الفجر فانتهت ليلة واليورغ وانصرف الجن بأسرع مما احتشدت، ثم تعود قصة فاوست إلى سيرتها الأولى.

(٢٣)

المنظر: أرض فضاء

يوم عبوس متجهم

فاوست – وإبليس

فاوست[١]

واهًا لتلك الحسناء العذبة الروح! أهكذا تسقط إلى بؤرة الشقاء وهوة اليأس؟ أمثلها تترك لتهيم على وجهها زمنًا طويلاً، طريدة مشردة، ثم يقبض عليها ويلقى بها فى أعماق السجون، حيث تعانى أشد الويل وأمر العذاب! فيا ويحها من تعسة قد أناخت عليها الهموم وألحت عليها النوائب.

وأنت أيها الشيطان الدنئ والخائن، أتخفى عنى كل هذا؟ ثم تقف أمامى مقلبًا عينيك الجهنميتين – وملؤهما الحقد والضغن – فى رأسك الخبيث؟ ولا هم لك إلا معاندتى ومشاكستى.

أإلى السجن يذهبون بها حيث تعانى من البلاء مايسحق الجسم ويوهن النفس ويستحيل الآن دفعه ورده؟

حيث تمسى فريسة الوساوس الشيطانية، ورهينة لقضاء بشرى ظالم جائر، خلو من الحس وصفر من الرحمة.

---

(١) وقد علم للمرة الأولى بمصير مرغريت.

يجرى كل هذا فتبعدنى عنه وتلهينى عن تذكره. تذهب بى إلى تلك الملاهى المقوتة المرذولة؛ وتخفى عنى ما هى فيه من عذاب شديد وحزن مبرح. تتركها بلا نصير وسط هذه الكوارث الأليمة!

إبليس

إنها ليست الأولى!

فاوست

ويلك أيها الكلب! أيها الوحش البشع الصورة! رحماك أيها الروح الأبدى! أنزل بهذه الشيطان سخطك ومقتك! أعد هذه الأفعى إلى صورة الكلب الدنس. وقد رأيته يحلو له أن يتشكل بصورة الكلب فى الليالى الدامسة؛ ثم يلقى بنفسه بين قدمى أحد المارة حتى إذا سقط المسكين على الأرض تعلق بأكتافه ليزيد فى تعذيبه وإيلامه! فأناشدك أيها الروح القدير إلا حولته إلى تلك الصورة التى تهواها نفسه. ثم أرغمته على أن يزحف فى التراب أمامى فأسحقه برجلى سحقًا وأمحقه محقا!

ليست الأولى!

يا للويل والثبور! ويل لا يدركه العقل ولا يتصوره الحس.

لئن كان قبلها من عانى مثل ما تعانيه اليوم؛ فهل قدر لأكثر من واحدة أن تغرق فى أعماق هذا العذاب؟ أما كفى أن قد كابدت الأولى هذا الشقاء؛ فطعمت صابه، وعانت أوصابه، وقاست من ويلاته ما فيه تكفير عن جناية من بعدها من البائسات تكفيرا ترضاه رحمة الرب الغفور.

اللهم إن الألم يبرى جسدى وروحى من تصور ما تعانيه هذه التعسة وحدها؛ وأنت أيها الشيطان تبسم سخرية واستهزاء لما تكابده الآلاف من مثيلاتها.

إبليس

أرانى مرة أخرى وقد كاد معين صبرى ينضب، وجعبة حيلى تفرغ؛ إذ أراكم معشر الآدميين وقد غادركم الرشد وطاشت بكم الأحلام. لماذا تتعاقدون وإيانا على

أمر إذا كنتم عاجزين عن المضى فيه؟ كيف تحاول أن تحلق فى الجو وأنت غير آمن من أن ينتابك الصدا ع؟ أكنا نحن الذين ألقينا بأنفسـنا عليـك وأرغمناك على مصاحبتنا أم أنت الذى رميت بنفسك علينا؟

فاوست

أقصر ويلك ! ولا تكشر لى عن أنيابك الشوهاء فإن نفسى تشمئز لمرآها.

رحماك أيها الروح الجليل! يا من تكرمت فسمحت لعينى أن ترياك!

يامن يحيط علمًا بخفايا نفسى وأسرار قلبى؟ لماذا ألزمتنى صحبة هذا الزميل الشقى الذى لا يتغذى إلا من الشرور ولا يرتوى إلا من الدمار والخراب؟

إبليس

عساك قد انتهيت.

فاوست

لابد لك أن تنقذها وإلا فالويل لك! اللعن والمقت نصيبك آلاف السنين إن لم تنقذها.

إبليس

إن عقدة المنتقم الجبار قد عقدت، ولا قدرة لى على حلها. والرّتاج الهائل قد أوصد، ولا سبيل إلى فتحه.

تسألنى أن أخلصها. أينا دفع بها إلى الدمار أنت أم أنا؟

فاوست

(يلتفت حوله وقد أخذ منه الغيظ مأخذه).

إبليس

كأنك تريد أن تتناول الصواعق بيمينك!

لعمرى إنه لمن حسن الطالع أن مثل هذا لم يتح لكم يا بنى الفناء! إن النفس العاتية الظالمة إذا غـدت فى مـأزق لاتجد ما يفرج كربتها سوى أن تسـحق كل من يعترضها ولو كان من الأبرياء.

فاوست

اذهب بى إليها ! لابد من تخليصها.

إبليس

اذكر مافى سبيلك من الأخطار! أنسيت البلدة التى مابرحت تطالب بثأر القتيل الذى سفكت دمه يداك؟ إن ملائكة النقمة تسبح فوق مصرع كل قتيل؛ فلا تزال كامنة متربصة لعل القاتل يعود.

فاوست

أمثلك يقول لى مـثل هذا؟ وعلى رأسك جريرة قتل العالم بأسره! أيها الوحش البشع؛ قلت لك اذهب بى إليها وأطلق سراحها.

إبليس

سأذهب بك إليها ولكن اذكر أنى لست مسيطراً على ملكوت السموات والأرض. وإنما أفعل ما أقدر عليه. سأسعى حتى أفقد سجّانها رشده. أما أنت فانتزع منه المفاتيح. ثم اذهب ففك عقّالها. ولتخرجها من السجن يد آدمية. أما أنا فسأتولى الحراسة. وأعد الخيل المسحورة ثم أذهب بكما بعيداً. وهذا كل ما أستطيع عمله.

فاوست

إذن هلم بنا!

(٢٤)

أرض فضاء

فى ظلام الليل

(فاوست وإبليس. على صهوة جوادين أدهمين. وهما يخبان مسرعين)

فاوست

ترى ما الذى يفعلونه هناك. كأنهم ينسجون حول المشنقة نسيجاً.

إبليس

لست أدرى ما عساهم يصنعون.

فاوست

لكأنى أرى أشباحاً تعلو وتهبط وتتناول أشياء فتحنيها ثم تثنيها.

إبليس

إخالهم عصبة من الساحرات[١].

(١) يمر فاوست وإبليس بالمشنقة التى ستشنق عليها مرغريت. وقد تجمع حولها فريق من الساحرات لكى يقربن القرابين للأرواح الشريرة. كما تقضى بذلك الخرافات الشائعة.

فاوست

كأنهم يبعثرون أشياء ثم يقربون قربانًا.

إبليس

أمض بنا فى طريقنا.

(٢٥)

فى السجن

فاوست

(واقفا أمام باب من الحديد وفى إحدى يديه مفاتيح وبالأخرى مصباح)

أرانى وقد انتابتنى رعدة قد طال عهدى بمثلها. وكأنى أحس من الآلام قدر ما يعانيه العالم أجمع.

لقد ألقوا بها فى غياهب هذا السجن تحيط بها هذه الجدران الرطبة. وما ارتكبت لعمرى من جرم سوى ماصوره لها الوهم وسولت لها الأحلام.

يمسك بالقفل ليفتحه فيسمع صوتا من الداخل يغنى[1]

ويل لأمى العاهره! قد أسلمتنى للمنون
ويل لها من فاجره! ويل لوالدى الخؤون!
طوبى لأخت راحمه! دفنت عظامى فى التراب
بين الغضون الناعمه والورد محمرّ الإهاب

---

(١) هو بالطبع صوت مرغريت وقد سجنت لأنها قتلت طفلها بأن ألقته فى غدير. وقد أصابها خبل من جراء هذا، فكلامها مضطرب، وهى تنشد أغنيتها بلسان طفلها.

فبعثت من وسط الشجر طيراً أنوح على الغصون
مستنقلا بين الزهر : بين الجداول والعيون

فاوست

(يفتح القفل)

ما إخالها تعرف أن حبيبها على قاب قوسين وأنه يسمع صليل قيودها وحفيف فراشها الجاف.

(يدخل غرفة مرغريت)

مرغريت

(تحاول الاختفاء تحت الفراش)

أواه! ويلاه! إنهم قد أتوا يحملون إلى الموت الزؤام.

فاوست (همساً)

صه! صه! ما أتيت إلا لإنقاذك.

مرغريت

(مرتمية على قدميه) إن كان بين جنبيك قلب يرق فارث لمصابي!

فاوست

ويحك لا توقظي السجانين بصياحك.

(يفك قيودها)

مرغريت (راكعة)

أيها الجلاد! أنى لك الحق والمقدرة؟ أن تسوقنى إلى حتفى وسط هذا الليل البهيم؟ ألا قلب رحيم يردعك فتتركنى أعيش حتى الصباح؟

(تنهض واقفة)

أأقتل ومازلت فى ريعان الصبى؟ ومنذ زمن غير بعيد كنت غادة حسناء ذات جمال، ولو أن هذا كان علة شقائى وأصل بليتى، وكان إلى جانبى صديق ودود. أما الآن فقد نأى عنى. بعد أن مزق الإكليل وبعثرت الزهور، وفرقت أيدى سبا.

بربك! لاتمتد إلى يد القسوة والغلظة!

ارأف بى! ولا تدعنى أسترحمك عبثا.

ماذا أجرمت نحوك وأنا ما رأيتك فى حياتى من قبل.

فاوست

يوشك هذا الألم المبرح أن يقضى علىّ.

مرغريت

هانا ذى بين يديك فافعل بى ماتشاء. لكن أمهلنى قليلا حتى أرضع طفلى.

لقد كنت أناغيه وألاعبه طول ليلتى هذه، ثم جاءوا فانتزعوه من بين ذراعى فأعقبوا لى الحزن والضنى. ثم زعموا أنى قتلته. فواحزنى! إن السرور لن يجد إلى قلبى مدى الدهر سبيلا.

يؤلمنى أن أسمع الناس وقد جعلوا من قصتى أغنيات يتغنون بها، وأناشيد يتداولونها. فياو يحهم! ماذا حدا بهم إلى سلوك هذا المسلك!

فاوست

(راكعًا أمامها) إن الحبيب الذى تيمه حبك يركع الآن بين يديك وقد جاء ليفك عقالك ويطلق سراحك.

مرغريت (راكعة)

لنركع جميعا ولنبتهل إلى الأولياء والقديسين ! انظر ! هلى تبصر ماتحت هذه الأحجار؟ إن نيران الجحيم الهائلة كامنة تحت عتبة هذه الغرفة والشيطان جالس هناك، تثور ثائرة أحقاده، وتغلى مراجل غيظه.

فاوست

(بصوت عال) مرغريت! مرغريت!

مرغريت

(تنهض واقفة فتسقط عنها الأغلال)

رباه! هذا صوته! هذا صوت الحبيب. ولكن أين هو؟

لقد سمعته ينادينى، فوافرحى! إنى الآن طليقة حرة.

ولن يجرؤ أحد على حبسى ومنعى؛ لأنى سأرتمى على عنقه وأتعلق به. لقد نادانى: مرغريت، مرغريت، وكان واقفًا هناك على تلك العتبة. وقد سمعت صوته العذب الجميل برغم مايحيط بى من نيران الجحيم التى مابرحت تستعر وتلتهب، وتزأر وتزمجر، فتصم الآذان.

فاوست

ها أنذا بين يديك.

مرغريت

أأنت هو؟ بالله أعد ذكر هذا على مسمعى (تتعلق به). أجل إنه أنت. فوا فرحتاه! عفاء على الآلام والأسقام وبعداً لمخاوفى وأشجانى التى أثارها هذا السجن وهذه القيود.

أجل إنه أنت، وقد جئت لإنقاذى. لقد أنقذت. لقد نجوت. وكأنى الآن أرى ذلك الطريق الذى قابلتك فيه لأول مرة، والحديقة الجميلة التى كنت فيها أنا ومارتا تترقب زيارتك بشغف وتلهف.

فاوست (يحاول أن يخرج بها من الغرفة)

تعالى معى! تعالى معى!

مرغريت

رويدك. ابق معى قليلا! إنى ليحلو لى البقاء إلى جانبك.

(تلاطفه وتعانقه)

فاوست

عجلى، فلئن لم نسرع من هنا ساءت العاقبة، وندمنا ولات ساعة ندم.

مرغريت

ما بالك لا تقبلنى؟ هل بت عاجزا عن التقبيل؟ إن عهدك بى ليس بعيداً. فكيف أنساك التقبيل هذا الفراق القصير؟

مالى خائفة مضطربة وأنا أعانقك الساعة! ولقد كنت من قبل أجد فى حديثك ونظراتك ولثماتك نعيم الجنان وبهجة الروح وسعادة العمر. كنت إذ ذاك تلثمنى حتى تحتبس أنفاسى. والآن أما تريد أن تقبلنى! إذن أقبلك أنا (تقبله).

ويلاه، إن شفتيك باردتان. قد خبت نارهما المتأججة. كما خمدت جمرة غرامك المشتعلة. فيا ويلى! من الذى كاد لى هذا الكيد؟

فاوست

تعالى أيتها الحبيبة. اتبعينى، تشجعى! ولسوف أعانقك عناقا حاراً وأقبلك بشفاه متقدة، ورجائى إليك الآن أن تسرعى فتتبعينى.

مرغريت (ملتفتة إليه)

أهذا أنت حقا؟ أهذا أنت من غير أدنى ريب؟

فاوست

أجل أنا هو فأناشدك الله أن تتبعينى.

مرغريت

إذن يا للعجب! كيف جئت تفك أغلالى وتضمنى بين ذراعيك. كيف لا تولى وجهك عنى ذعراً واشمئزازًا؟ أتعلم أيها الصديق من الجانية التى تريد تخليصها؟

فاوست

تعالى! عجلى! إن الساعات تمر سراعًا؛ والليل مضى أكثره.

مرغريت

لقد جرَّعت أمى كأس الحمام، وأغرقت طفلى بيدى.

فيا ويلى! ألم يكن هذا الطفل هبة قد منحناها أنا وأنت! أجل لقد كان هبة لك ولى.

أرانى لا أكاد أصدق أنك أنت معى الآن. ضع يدك فى يدى حتى أومن أنى لست فى حلم. ناولنى يدك! لكن ما بالها مبتلة وكأنى أرى الدم يسيل منها فواهًا لك! أى شىء صنعت؟ ناشدتك الله ألا أغمدت هذا الخنجر!

فاوست

لا تذكرينى بالماضى، فإن الذكرى تثير شجنى وتوشك أن تقتلنى.

مرغريت

لا. إنك ستعيش. ويجب أن تعيش. دعنى أنا أصف لك القبور وما انطوت عليه.

وعلى ذكر القبور أريد منك أن تعنى بأمرها من الغد فاجعل أحسنها لأمى؛ ثم ضع أخى إلى جانبها؛ ثم ادفنى إلى جانبها ولا تبعدنى عنهما كثيرا ثم ضع طفلى الصغير إلى جانبى عند ثديى الأيمن. ولاتدع أحدا سواه يقترب منى.

أيها الحبيب لقد مضى زمن كنت أجد فيه السعادة كل السعادة فى اعتناقك والتزامك والآن هيهات لى مثل هذا النعيم، إنى ليخيل لى كأنى أحاول أن ألقى بنفسى بين يديك فتدفعنى عنك بغضب وازدراء.

وها أنت قد جئتنى اليوم ونظراتك ملؤها الصلاح والتقوى.

فاوست

فأما وقد أيقنت أنى أنا هو فتعالى معى! أسرعى!

مرغريت

أنخرج من هنا؟

فاوست

نعم، إلى الهواء الطلق، إلى الحرية.

مرغريت

هل أعددت القبر هناك؟ أهناك ينتظرنى الحمام؟ إذن هلم بنا، هلم إلى مهد الراحة الأبدية، وهناك فلتتركنى ولا تذهب بى خطوة أخرى، أذاهب الآن؟ وهل لى أن أصحبك ياهنرى؟

فاوست

أجل يجب أن تصحبينى. فما لك لا تريدين ذلك؟ إن الباب مفتوح فهلمى لنخرج!

مرغريت

لا. ليس لى أن أخرج من هنا.

إنى أصبحت وقد قطعت من خلاصى كل رجاء. ماذا يجدى الهرب وإنهم ليتربصون بى السوء حيثما سرت. ولعمرى إنه لمن أشد البلاء أن أعيش عيش المتسولين وأعانى وخزات الضمير الأليمة.

وماذ يجدينى أن أسبح فى الأرض غريبة شريدة ثم يقبضون علىّ ويعودون بى إلى السجن؟

فاوست

سأبقى إلى جانبك.

مرغريت

بربك أسرع، أسرع لإنقاذ طفلك المسكين.

اصعد فى الطريق إلى جانب النهر حتى تصل إلى وسط الغابة، فإذا بلغت الغدير أبصرت عن يسارك لوحا من الخشب ممتدا إلى حافة الماء؛ هناك فالتمس الطفل، انتشله من وسط الغدير، إنى لأراه الآن وهو لايزال يجاهد ويحاول أن يطفو على وجه الماء. أنقذه، أنقذه، بربك أنقذه...

فاوست

تدبرى أمرك قليلا، خطوة واحدة من هنا. ثم تصبحين حرة طليقة.

مرغريت

من لى بأن نصبح وقد جاوزنا هذا الجبل وتركناه خلف ظهرنا؟ أما اجتيازه الآن فأمر شديد. إن أمى جالسة هناك على صخرة. ويلى! ما لجسمى الآن يرتعد ويقشعر. أجل إن أمى جالسة هناك فوق صخرة، وأرى رأسها يهتز تعبا وإعياء.

عينها لا تبصر، فكرها لايعى. قد استولى عليها سبات عميق. لقد رقدت رقاداً طويلا ليس من بعده إفاقة.

ما نامت هذا النوم إلا لكى ألهو وإياك وألعب. أوقات ما كان أطيبها وأعذبها.

فاوست

هذا موقف لايجدى فيه الرجاء ولا السؤال. ولم يبق إلا أن أحتملك قسرا.

مرغريت

لا تمد يدك إلىّ، لا أطيق هذه الغلظة. أتهاجمنى مهاجمة القتلة الشريرين.

لقد كنت يوما ما أطوع لك من بنانك.

فاوست

عزيزتى، عزيزتى، إن الفجر يوشك أن يطلع.

مرغريت

الفجر، أجل لقد طلع الفجر. وقريبا تطلع شمس يومى الأخير، لو ساعد الجد لكان هذا اليوم يوم عرسى.

لا تقل لأحد إنك كنت فى صحبة مرغريت.

أسفى على! إكليلى الذى فقدته، لو كان يجدى الأسف.

إنا سنلتقى ثانيا، لكن لا فى المراقص وأماكن اللهو.

ما هذا الذى أراه؟ إن الجموع قد احتشدت وأصواتهم قد خفتت وضاق بهم الميدان الفسيح والطرق على رحبها.

لقد دقوا النواقيس إيذانا بموتى، وكسروا العصا[1]...

انظر! ها هم قيدونى وغللونى وأسلمو. مقصلة...

الآن ينقض الصارم على عنقى، وكأنما ينقض على أعناق الناس جميعًا، فتراهم قد خرسوا وسكنوا سكون الموتى.

فاوست

يا ليتنى لم أولد فأعانى كل هذا!

إبليس (واقفًا بباب الغرفة)

هلما، وإلا قضى عليكما. عبث كل هذا التردد والإحجام والتحادث والتساؤل. إن خيلى ترتعد من طول الانتظار، والصبح آذن بالطلوع.

مرغريت

ما هذا الذى انشقت عنه الأرض؟ أهذا هو؟ أخرجه من هنا! ما الذى يبغيه فى هذه البقعة الطاهرة؟ إنه يبغينى.

فاوست

يجب أن تعيشى.

(١) إشارة إلى عادة كانت متبعة فيما مضى. فكانوا يدقون الناقوس حين يساق المجرم إلى المشنقة، ثم تكسر فوق رأسه عصا بيضاء قبل تنفيذ العقوبة.

مرغريت

يارحمة الله، ألقى بنفسى بين يديك.

إبليس

(لفاوست) تعال، وإلا تركتك وإياها يفعل بكما القضاء ما يشاء.

مرغريت

رب إنى أنا أمتك فأنقذنى. أيها القديسون أحيطوا بى واحرسونى.

أى هنرى! إنى أرتجف فرقًا منك.

إبليس

كتب لها الهلاك !

أصوات من السماء

كتبت لها النجاة !

(إبليس لفاوست)

هلم وأسرع. (يخرجان).

صوت من داخل السجن يضعف تدريجيًا

هنرى! هنرى!

الإشراف اللغوى : عــــزة شــبل
الإشــراف الفنى : محسن مصطفى